تاريخ الأدب الأندلسى

دكتور

محمد زكريا عنانى

أستاذ بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

١٩٩٩

دار المعرفة الجامعية

٤٠ ش سوتير ـ الازاريطة ت ٤٨٣٠١٦٣

٣٨٧ ش قنال السويس ـ الشاطبى ـ ت ٥٩٧٣١٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن تاريخ الأدب العربى حافل بالصفحات المشرقة ، مما يجعل منه أحد الآداب الكبرى فى العالم وهو أدب ولد ناضجا أو بمعنى أدق إن أقدم ماوصل إلينا منه يحمل سمات الشخصية الأدبية الحية الأصيلة، الجديرة بأن تعيش على مر العصور ...

وينفرد الأدب الأندلسى من بين المراحل المختلفة بأنه يجمع مزايا كثيرة هى بنت اللقاء بين الشرق والغرب، ففيه الرصافة التى طالما بهرت الناس فى الأدب العربى القديم ، وفيه الجدة التى تتحرك فى الموشحات والأزجال و "الرومانسية" الطاغية التى تأتى عند ابن زيدون ، والظرف وخفة الروح التى تتمثل عند أبى الحكم الغزال ، فيه - باختصار شديد - أروع مايمكن أن يوجد فى أدب أمة من الأمم ، ومن هنا لقيت كتب الأدب الأندلسى القديم كل تقدير، ومنها:

كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة	لابن بسام
المغرب في حلي المغرب	لعلي بن سعيد
قلائد العقيان	للفتح بن خاقان
مطمح الأنفس	لفتح بن خاقان
زاد المسافر	لصفوان التجيبي
نفح الطيب	للمقري... الخ

فضلا عن عشرات الدواوين (مثل ديوان ابن عبد ربه ، وديوان ابن دراج وديوان ابن زيدون وديوان الأعمى التطيلى ..الخ) وعديد المجموعات وكتب الأدب الأخرى .

أما فى العصر الحديث فقد أرخت لهذا الأدب أعمال متنوعة منها على سبيل المثال :

نظرات فى تاريخ الأدب الأندلسى	لكامل كيلانى
بلاغة العرب فى الأندلس	د. أحمد ضيف
الأدب الأندلسى	د. أحمد هيكل
الأدب العربى فى الأندلس	د. عبد العزيز عتيق
تاريخ الأدب الأندلسى [جزءان]	د. إحسان عباس
قصة الأدب فى الأندلس	د. محمد عبد المنعم خفاجى
الأدب الأندلسى : موضوعاته وفنونه	د. مصطفى الشكعة
عصر الدول والإمارات [الأندلس]	د. شوقى ضيف
ملامح الشعر الأندلسى	د. عمر الدقاق الخ ...

وهناك مئات الرسائل الجامعية ، والمؤلفات التى تتناول عصرا أو ظاهرة أو جنسا أدبيا أو شخصية بعينها ، يضاف إليها ما ألف المهتمون بتاريخ الأدب الأندلسى من المستشرقين ، ومن أهم هذه الأعمال :

محاضرات فى أدب الأندلس وتاريخها	ل بروفنسال
الشعر الأندلسى	نيكل
الشعر الأندلسى المقطعى [الموشحات والأزجال]	س. شترن
الشعر الأندلسى	أ.ج . جومث
الشعر الأندلسى	أ.ى . كراتشكوفسكى

وتأتي هذه المحاضرات لتحاول أن تستفيد من الدراسات التى سبقتها ، وتعالج بصورة مبتكرة، عددا من أهم الظواهر والشخصيات الأندلسية، وقد روعى فيها أن تكون مركزة وواضحة، وأن تدعم بنماذج تمثل عيون الشعر الأندلسى على مر العصور .

ونسأل الله عز وجل أن يلهمنا الصواب ، ويهدينا مافيه الخير.

د. سعيدة محمد رمضان
أستاذ الأدب العربى
كلية الآداب جامعة طنطا

الأندلس : عبقرية المكان والزمان

من المسلم به أن المادة الأدبية : ينبغى أن تكون جوهر الاهتمام ومركز الرؤية، ومع ذلك فإن لكل ابداع أدبى مجاله الزمانى والمكانى الذى يولد فيه، وأيا كانت الاعتبارات "الذاتية" ، فإن الأمر لايخلو من "موضوعية"، ومن الضرورى أن تتعرف على الخطوط الرئيسية للبيئة والعصر والمجتمع حتى تزداد معرفتنا بالعمل الأدبى أصالة وعمقا و "الأندلس" فى المفهوم العربى الإسلامى تشمل الفترة التى تبدأ بالفتح العربى - سنة ٩٢ هـ - وتمتد حتى سقوط غرناطة سنة ٨٩٨ هـ كما تطلق تلك التسمية على كل الأقاليم المفتوحة من شبه الجزيرة الأيبيرية ، فها نحن أمام فترة تبلغ ثمانية قرون وتمتد ، مكانيا، امتدادا شاسعا، والشئ المسلم به، علاوة على هذا، أن التفهم الصحيح ينبغى أن يلقى الضوء كذلك على ماقبل الفتح، ولا يجعل من تاريخ سقوط غرناطة فى أيدى الأعداء إلا مجرد نهاية لمرحلة سياسية ، على اعتبار أن التأثيرات العربية لم تنته بين يوم وليلة . ولن تشغلنا، فى هذه المحاولة التفصيلات والتفريعات، إذ إن الفترة الزمانية والرقعة المكانية من الاتساع بمكان، وقد وقعت على أرض الأندلس فى خلال ذلك، أحداث لا حصر لها، وبرزت ظواهر أدبية وثقافية وفنية بالغة الأثر ، ومن ثم فإن غاية مانصبو اليه الآن أن نبرز الخطوط الكلية الموجزة، مكتفين بالإحالات على المصادر والمراجع، لمن شاء التوسع .

وربما كان من الضرورى تحديد وتبسيط هذا الكم من الأسماء المتداخلة من قبيل شبه الجزيرة الأيبيرية " Peninsula Iberica" (التى تكتبها المصادر الغربية عادة Iberica) - والتى تشمل كل مايعرف الآن باسم اسبانيا والبرتغال - ولايعرف بالضبط منشأ هذا الجنس فهم "شعب مجهول الأصل والمصدر، عاصر فى اسبانيا القديمة دول القلت Celtes والفينيقيين واليونان والرومان وقد انتشر فى اسبانيا كلها وجنوبى فرنسا فالأيبيريون على هذا

الحساب هم أقدم أمم غربى أوربا"[1] وفى بعض المراجع أن الشعبين - الأيبيرى والقلتى اختلطت انسابهما بعد فترة من الحروب الدامية وكونا معا نسلا جديد عرف باسم القلتبيرى Celtibères.

واما تسمية Espagne فإنها تنحدر من التسمية اللاتينية Hispa-nia ولعلها تطوير عن لفظة Hespèrie التى كانت تعنى بلاد الغرب، وأما المصادر العربية فإنها لاتقدم مادة يعتد بها بالنسبة لهذه التسميات القديمة، وماكتب فى هذا الميدان يخضع لقدر من التصورات الأسطورية فمن ذلك مايأتي به المقرى فى "نفح الطب" من أن هذه البلاد كانت أولا تحت سيطرة الأفارقة ثم صار ملك الأندلس بعدهم إلى عجم رومة، وملكهم اشبان بن طيطش وباسمه سميت الأندلس اشبانيا ، وذكر بعضهم أن اسمه اصبهان وهو الذى بنى اشبيلية، وكان اشبانيه اسما خالصا لبلد اشبيلية الذى كان ينزله اشبان هذا، ثم غلب الاسم بعده على الأندلس، فالعجم الان يسمونه اشبانيا لآثار اشبان هذا فيه، وكان أحد الملوك الذين ملكوا أقطار الدنيا فيما زعموا" ولا يبقى بعد هذا إلا اسم "الأندلس" الذى اكتسب هذه الصيغة على أيدى العرب الفاتحين، ولم يكن له وجود قبلهم، وليس معنى هذا أن الاسم محض ابتكار خالص .

وقد زعم ياقوت الحموى ، صاحب "معجم البلان" أن التسمية تعود الى "أندلس بن طوبان بن يافث بن نوح" وجاراه فى ذلك عدد من المصادر العربية، وهذا بدوره محض تفسير أسطورى لا يستند الى حقائق تاريخة واضحة ، وأما المراجع الحديثة فإنها تتفق فيما بينها على فرضية أن الاسم مشتق من فنداليشيا Wandalicia نسبة الى الاقاليم الجنوبية (التى كانت تعرف قبلا باسم Baetica) والتى احتلتها قبائل الفندال الجرمانية - أو الفندالوس،

---

(١) الأندلس ، ص ٤١ (من دائرة المعارف الإسلامية)

مستغلة ضعف الدولة الرومانية - ثم كان الفتح العربي فتحولت الكلمة إلى الأندلس[(١)] والأندلس - وسنستخدم هنا المفهوم العربي للكلمة - شبه قارة ترتبط بأوربا بسلسلة جبال البرانس (البيرنيه) فى الشمال الشرقى، ومن أشهر المعالم فيها جبال سيرا نيڤادا Sierra Nevada وسماها العرب: شارة، وجمعوها على شارات وفى ذلك يقول الشريف الادريسي:

" وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها فى الطول بجبل طويل يسمى الشارات فما خلفه فى جهة الجنوب يسمى اشبانية وماخلفه من جهة الشمال يسمى قشتالة" الجبلية يعرف باسم جبل الثلج أو جبل (شلير) ومن ثلوجه الهطالة - وهذا معنى: نيڤادا - يتغذى نهر شنيل - على مقربة من غرناطة - وفى وصفه يقول أحد المغاربة :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضكم
وشرب الحميا وهو شئ محرم
فرارا الى نار الجحيم فإنها
أخف علينا من شلير وأرحم !

وبذا فإن الأرض فى شبه الجزيرة الأيبيرية مرتفعة نسبيا كما تتسم بالجفاف ، وتغذى البلاد سلسلة من الأنهار أهمها الوادى الكبير Guadalquivir وله روافد منها نهر شنيل، وقد لخص المقري - نقلا عن

(١) راجع فى ذلك مادة "الأندلس " فى دائرة المعارف الاسلامية ومراجعها العديدة ود. الطاهر مكى، درسات أندلسية - الفصل الأول - ود. أحمد هيكل فى مستهل كتابه "الأدب الأندلسى"

ويلاحظ أن نصارى شبه الجزيره الأيبيرية لم يكونوا يستعملون هذه التسمية إذ كانوا يطلقون نعت اسبانيا على الأراضى التى كانت خاضعة لنفوذ العرب بينما استعملوا أسماء خاصة للدلالة على المناطق التابعة لهم مثل قشتاله Castille وأراجون Aragon واشتوريش Astucias الخ ثم أصبح لفظ الأندلس Andalucia يدل على المناطق الجنوبية والتى تضم غرناطة وقرطبة واشبيلية وأيضا مالقة وجيان وقادس وولبه .

غيره - طبيعة البيئة الأندلسية بقوله ان الأندلس عند علماء أهله أندلسان: فالأندلس الشرقي منه ماصبت أوديته إلى البحر الرومى المتوسط المتصاعد من أسفل أرض الأندلس الى المشرق، وذلك مابين مدينة تدمير الى سرقسطة والأندلس الغربى ماصبت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالمحيط أسفل من ذلك الحد الى ساحل المغرب فالشرقى منهما يمطر بالريح الشرقية ويصلح عليها، والغرب يمطر بالريح الغربية وبها صلاحه، وجباله هابطة الى الغرب جبلا بعد جبل، وانما قسمته الأوائل جزئين لاختلافهما فى حال أمطارهما وذلك أنه مهما استحكمت الريح الغربي كثر مطر الأندلس الغربى وقحط الأندلس الشرقى ومتى استحكمت الريح الشرقية كثر مطر الأندلس الشرقى ومحط الغربى ، وأوذية هذا القسم تجرى من الشرق جبلا بعد جبل تقطع من الجوف الى القبلة والأودية التى تخرج من تلك الجبال تقطع بعضها الى القبلة وبعضها الى الشرق وتنصب كلها الى البحر المحيط بالأندلس القاطع الى الشام، وهو البحر الرومى، وماكان من بلاد جوفى الأندلس من بلاد جليقية ومايليها، فإن أوديته تنصب الى البحر الكبير المحيط بناحية الجوف" وقد انعكست ظواهر الطبيعة هذه على الإبداع الأدبى بصورة واضحة - على ماسنرى - وهذا ماعبر عنه شاعرهم بقوله :

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ماجنة الخلد إلا فى دياركم
ولو تخيرت هذا كنت اختار

ومن ذلك أيضا تلك الأبيات التي تنسب الى شاعرة أندلسية تدعى حمدة بنت زياد المؤدب :

وقانا لفحة الرمضاء واد

سقاه مضاعف الغيث العميم

حللنا دوحه فحنا علينا

حنو المرضعات على الفطيم

وأرشفنا على ظمأ زلالا

ألذ من المدامة للنديم

يروع حصاه حالية العذارى

فتلطم جانب العقد النظيم

ولابن خفاجة :

آن للجنة بالأندلس

مجتلى حسن وريا نفس

فسنا صبحتها من شنب

ودجى ليلتها من لعس

وإذا ماهبت الريح صبا

صحت : واشوقى إلى الأندلس

وقيل فى مناقب الأندلس أنه "يشقها أربعون نهرا كبارا ، وبها من العيون والحمامات والمعادن مالايحصى ، وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسطة . وفيها من الحصون والبروج والقرى مالايحصى كثرة، حتى قيل : إن عدد القرى على نهر اشبيليه اثنا عشر ألف قرية، وليس فى معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن وأربعا من يومه إلا بالأندلس "[1]

(١) نفح الطيب ج ١ ص . ٢١

شئ من التاريخ :

لايكاد تاريخ الأندلس ينفصل عن تاريخ المغرب - بالمعنى العام للكلمة - ونحن نعتبر أن المغرب مايلى مصر من ناحية الغرب، وإن كانت هذه مسألة اختلف حولها المؤرخون والجغرافيون فعلى زمن العباسيين كانت مصر اقليما "مغربيا"، ووفقا لهذا الفهم تكلم عنها ابن سعيد ضمن كتابه "المغرب فى حلى المغرب" ولكن معظم المؤرخين يقسمون المغرب إلى :

أ - **المغرب الأدنى :** ويسمى أيضا افريقية - وعاصمته القيروان على زمن الأغالبة ثم المهدية على زمن الفاطميين ثم تونس اعتبارا من دولة الحفصيين ، ويشمل مايعرف الآن بتونس والأطراف الشرقية من الجزائر .

ب - **المغرب الأوسط :** ويشمل مايعرف الآن بالجزائر واختلفت العاصمة فيه بحسب توالى الدول فيه، ففى زمن الدولة الرستمية الإباضية الخارجية كانت عاصمته تاهرت (تياريت الآن بولاية وهران) اما على زمن دولة بنى زيرى - من صنهاجة - فكانت العاصمة مدينة أشير (مكانها بنية قرب مدينة الجزائر الآن) وصارت - في زمن بنى عبد الواد - فى تلمسان ثم تحولت العاصمة إلى الجزائر - المغرب الأقصى : ولا يفصله عن المغرب الأوسط الا نهر مولويه وكثيراً ماكان يشكل مع المغرب الأوسط وحدة سياسية وكانت عاصمته اما فاس (على زمن الأدارسة) أو مراكش (على زمن المرابطين ثم الموحدين) أما فى زمن بنى مرين (ومن بعدهم بنى وطاس) فإن مدينه فاس أصبحت العاصمة مرة أخرى فلما تولى السعديون الملك جعلوا عاصمتهم مراكش أما فى العصر الحديث فإن دولة المغرب اتخذت من مدينه الرباط عاصمة لها، وهى مدينة قديمة، بنيت فى عهد الخليفة الموحدى يعقوب (المنصور).

وقد كان اتجاه المسلمين لفتح المغرب بعد فتح مصر مسألة منطقية من كافة الوجوه ، وهكذا غزا عمرو بن العاص منطقة برقة وطرابلس سنة ٢٣ هـ،

وفى سنة ٢٧هـ سارت حملة بقيادة عبدالله بن سعد بن أبى سرح، والى مصر (وشقيق سيدنا عثمان بن عفان فى الرضاعة، ومعه عبدالله بن الزبير حتى وصلت إلى افريقيه وانتصرت على البيزنطيين عند موضع يسمى سبيطله ثم انتصر عبدالله بن سعد على أساطيل بيزنطة فى معركة ذات الصوارى سنه ٣٥هـ وتجددت محاولات فتح افريقية فى زمن معاوية الذى سير فى سنه ٤٥ حملة بقيادة معاوية بن حديج الكندى ثم كانت فترة الولاية الأولى لعقبة بن نافع من سنة ٥٠ الى ٥٥) فكانت بداية لمرحلة زاهرة من الفتوح والعمران ، إذ شيد مدينة القيروان وتولى بعده سياسى محنك هو أبو المهاجر دينار (٥٥ -٦٢) الذى استطاع أن يستميل البربر الى صفوف العرب ويجعلهم يعتنقون الإسلام، ونتيجة لهذه الخطوة تمكن المسلمون من مد نفوذهم على المغرب الأوسط كله حتى تلمسان .

وقد مر فتح المغرب بين مد وجزر إلى أن تولى أمر المغرب موسى بن نصير سنه ٨٦ فى زمن الوليد بن عبدالملك - وفى عهده كانت أركان الدولة الاسلامية قد استقرت هناك، فقد انتشر الإسلام بين البربر وتكونت منهم فرق مقاتلة الى جانب العرب وهذا التحول الفريد الذى طرأ على بلاد المغرب كانت له آثار ايجابية فى فتح الأندلس بعد ذلك، لأن معظم قبائل البربر أخذت بعد اعتناقها الإسلام تتوق إلى الحرب والجهاد، ونفسية البربر المغربية مثل نفسية العرب قلقة دائما، وتريد الحركة والكفاح ولاشك أن القائد العربى موسى بن نصر كان على علم تام بنفسية البربر وطبيعتهم فرأى أنهم إذا تركهم صارت الحياة الاسلامية تافهة بالنسبة لنفوسهم المتعطشة للحروب ولهذا حرصت على اتباع نزعة البربر نحو الحرب وكسب الغنائم بدفعهم الى الحرب وتوجيههم الى الفتوحات الخارجية .(١)

---

(١) د. أحمد مختار العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٥ .

فتح الأندلس :

خضعت شبه الجزيرة الأيبيرة للهيمنة الرومانية قرابة ستة قرون، إذ حكموها منذ أوائل القرن الثانى قبل الميلاد وحتى أوائل القرن الخامس الميلادي، وأخضعوا فى خلال هذه المدة الإمارات والمستعمرات المختلفة التى كانت قد استقرت فيها أو فى شمال المغرب ، وبخاصة الفينقيين الذين كانوا قد استقروا بالشواطئ الساحلية جنوب وشرق الأندلس حيث أسسوا مدنا منها مالقة وقادس كما أسسوا فى الساحل الافريقى عدة مراكز أهمها مدينة قرطاجنه .

وقد نشر الرومان لغتهم كما نشروا الكاثوليكية بين السكان، وغرسوا حضارتهم إبان هذه المدة الطويلة، إلا أن اركان هذه الامبراطورية الضخمة مالبثت أن أخذت فى التهاوى، مما مكن القبائل الشمالية الجرمانية من الانحدار من بلادهم جنوبا - حيث الدفء والرخاء - ومن هذه القبائل الوندال الذين استقروا فى جنوب شبه الجزيره الأيبيرية وكذلك القوط Visigodes الذين تمكنوا من طرد الوندال - مما دفع بهؤلاء للعبور الى الشاطئ الافريقى، إلى أن تم التحالف بين هذه القبائل المتناحرة، تحت زعامة ملوك القوط، وأخرهم رودريجو Rodrigo (الذى يعرف فى المصادر العربة باسم لذريق) وكانت أحوال البلاد فى عهده قد ساءت الى أبعد حد وعمت الاضطرابات والفتن ، وفى عهده بدأ الفتح الإسلامى .

وعلى الرغم من أن هناك حقائق بارزة فى الفتح العربى للأندلس، إلا أن المسألة لم تخل من بعض الأساطير ، من أشهرها ماتردد فى بعض المصادر العبرية من أن الأمير يوليان - حاكم سبتة - هو الذى أغرى العرب بفتح الأندلس انتقاما من ملكها لاعتدائه على ابنته . (فلورندا، التى تنعت فى المصادر الشعبية الإسبانية بنعت قبيح، إذ تسميها La Cava، أى الفاجرة)

لكن المؤرخين المحدثين يردون الأمور الى مسارها الصحيح على اعتبار أن هذا الفتح كانت تحتمه الأوضاع السياسية والعسكرية ، فضلا عن الاعتبارات الدينية القوية .

وبعد بعض المحاولات الاستطلاعية .مثل حملة طريف سن ٩١ التى تكللت بالنجاح)جاءت الخطوة الكبرى بتلك الحملة التى قادها طارق بن زياد - ومعظم المصادر ترجح أنه ضابط بربرى من قبيلة نفزة ، ومنها كذلك كان معظم الجند الذين بلغ عددهم سبعة آلاف مقاتل، وكان ذلك سنة ٩٢هـ، وتقول بعض الروايات إن طارقا بعد أن خرج من "العدوة" أحرق سفينه وخطب فى جنوده خطبة بليغة قوامها أن :قاتلوا أو موتوا، ولو صح ذلك الخبر لكانت "أول نص أدبى عربى: قيل على أرض الأندلس، لكن الدارسين المعاصرين يرفضون كل ماقيل فى هذا الصدد، ويردونه الى الخيال الشعبى الذى يسعى الى تجميل مثل هذه المواقف وإضفاء الطابع الأسطورى أو الخرافى عليها .

والنص المتداول من الخطبة يقول :

أيها الناس، أين المفر؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، ولا أقوات لكم إلا ماتستخلصون من أيدى عدوكم وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً، ذهب ريحكم، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من زمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإنى لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة - أرخص متاع فيها النفوس - أبرأ منها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا. استمتعم بالألذ الأرفه طويلا. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى. وقد بلغكم

ماأنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان، الرافلات فى الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقيان، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان. وقد انتخبكم الوليد بن عبدالملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتياحكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون فتحها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولى إنجادكم على مايكون لكم ذخراً فى الدارين . واعلموا أني أول مجيب لما دعوتكم إليه، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده ، فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون" (١)

والمسألة لم تقف عن هذا الحد بل تعدتها إلى الشعر فقد نسبوا له هذه الأبيات :

ركبنا سفينا بالمجاز مقيرا
عسى أن يكون الله مناقد اشترى
نفوسا وأموالا وأهلا بجنة
إذا ماأشتهينا الشئ فيها تيسرا
ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا
إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٤١ (ط. احسان عباس) ولاتختلف كثيراً عما ورد فى الوفيات (ترجمة موسى بن نصير) جـ ٥ ص ٣٢٢ فى حين ترد فى الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة بصورة مغايرة مختصرة .

وليس هذا بغريب فقد نسبوا من قبل شعرا لقابيل وهابيل ولأبناء نوح ولقوم عاد وثمود ...

وبعيداً عن تفصيلات وقائع الفتوحات نكتفى بالاشارة إلى النصر الحاسم الذى أحرزته جيوش طارق بن زياد عند شذونه Sidona (قرب وادى البرباط) بجيش قوامه اثنا عشر الفا (بعد أن أمده موسى نصير بمدد قوامه خمسة آلاف جندى) فى مواجهة جيش ضخم يقال إنه بلغ مائة ألف مقاتل، ومما ضاعف من أهمية هذا النصر أن لذريق نفسه قتل فى المعركة، ولم يعثر له على أثر ، ولم تلبث الأندلس أن استلسمت للفتح العربى فى غضون ثلاثة أعوام .

ومما ساعد على سرعة تحقيق هذا الفتح أن موسى بن نصير خرج سنة ٩٣ بجيش عربى قوامه ثمانية عشر ألف جندى ، أستولى على مدن قرمونة واشبيلية ووشقة و لاردة ثم تقابل مع جيوش طارق بن زياد على ضفاف نهر التاجو حيث كان القائد البربرى يحاصر طليطله عاصمة القوط التى سقطت فى النهاية، وربما جاز أن نتخيل أن القائدين كان من الممكن أن يتما فتح شبه الجزيرة كلها بعد ذلك لولا أن جاءت اليهما أوامر الخليفة تأمرهما بالتوجه الى دمشق، وكان قد اتجه عدد ضئيل من الجيش القوطى - بقيادة بلايو- فى الفرار الى الجبال الشمالية الغربية ومن هناك كونوا نواة للمقاومة أو لحركة الاسترداد Reconquesta وتأسست على أيديهم مملكة ليون أما القلاع التى كانت تحيط بهه المملكة فإنها لاتلبث ان تكون بدورها إمارة صلية عرفت باسم كاستا Castilla وهى التى تسميها المصادر العربة بامارة قشتاله وسيكون لها شأن كبير بعد ذلك فى مجريات الاحداث وقد اصطلح الدارسون علي تقسيم عصور الأندلس تاريخيه وأدبه - وفقاً لأتسام هي :

أ - مرحلة عصر الولاة :

وتبدأ من الفتح حتى استيلاء الأمير الاموى عبد الرحمن الداخل على مقاليد الامور في قرطبة (سنه ١٣٨هـ - ٧٥٥ م)

وفى خلال هذه المدة كانت الاندلس مجرد ولاية تابعة للدولة الأموية بالمشرق ، وقد عرفنا كيف أن موسي بن نصير وطارق بن زياد اتجها إلى دمشق بأمر من الخليفة الأموى وعين عبد العزيز بن موسى بن نصير واليا على الأندلس ، وبدأت معه مرحلة جديدة من الفتوح لكنها اجهضت بمقتله سنه ٩٧هـ، وتوالت محاولات الفتح من بعده خاصة فى عهد عبد الرحمن الغافقى الذى وصلت غزواته الى اقليم اكيتانيا - في الجنوب الغربى من فرنسا واستولى على مدينة بوردو لكن جيوشه لقيت هزيمة مباغته عند مدينتى تور وبواتييه (سنة ١١٤هـ/٧٣٢م) - وتعرف هذه المعركة فى الكتب العربية باسم بلاط الشهداء .

وقد اوقفت هذه الهزيمة المد العربى، كما جاءت عوامل أخرى داخلية فزعزعت الكيان هناك ذلك أن الفتن الداخلية اشتعلت بين المسلمين بسبب عوامل الفساد والاستبداد وضيق الأفق ، وقد شعر الأيبيريون الذين اعتنقوا الإسلام بالغبن لأنهم طولبوا بأداء الجزية على الرغم من إسلامهم وكذلك البربر الذين شعروا بأن العرب يتعالون عليهم ويعاملوهم معاملة الأسياد للعبيد ومن ثم اشتعلت الفتنة البربرية فى المغرب والأندلس حتى إذا ماتم القضاء على هذه الفتنة ثارت القلاقل بين العرب الحجازيين (البلديين) وعرب الشام

عصر الامارة الأموية (١٣٨-٣١٦)

ويبدأ هذا العصر مع استيلاء عبد الرحمن الداخل على مقاليد الأمور سنة ١٣٨ ويستمر حتى سنة ٣١٦.

ففى سنة ١٣٨ أي بعد فترة وجيزة من سقوط الدولة الأموية فى المشرق نجح هذا الأمير الأموى فى الفرار الى الغرب، ودخل الأندلس فالتف حوله أنصار بنى أمير ونجح فى الاستيلاء على قرطبة ومضى يوطد أركان ملكه على مدى أكثر من ثلاثين سنة ، ومن ثم لقب بـ "صقر قريش" لأنه "عبد البحر وقطع القفر وجند الاجناد ودون الدواوين ونال ملكا بعد انقطاعه بحسن تدبيره وقوة شكيمته "كما قال عنه أبو جعفر المنصور بحسب مانقل ابن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام .

وبغض النظر عن الكفاءة السياسية والحربية للداخل، فإن التاريخ يسجل له الاعتناء بالجوانب الحضارية فقد اهتم بتجميل قرطبة وبنى فى شمالها الغربى قصرا سماه الرصافة - على غرار قصر جده هشام بن عبدالملك فى بادية الشام وحدد مسجدها الجامع ، فضلا عن أنه كان أديبا شاعرا ، على ماسنرى .

وقد توالى على عرش قرطبة عدد من الأمراء من نسل الداخل أولهم ابنه هشام الرضا (سنه ١٧٢ ثم الأمير الحكم (١٨٠) ثم عبد الرحمن الثانى (الأوسط) سنه ٢٠٦ وفى عهده بلغ الترف فى قرطبة درجة عالية من الرقى ، وأصبحت تنافس بغداد فى هذا المضمار خاصة بعد أن انتقل اليها زرياب الموسيقى (ولاتزال آثار موسيقاه ماثلة فى ألحان أهل المغرب حتى اليوم) وكان زرياب شخصية اجتماعية ، وأحد أساطين فن الذوق والسلوك (الاتيكيت) فعلم الأندلسيين طريقة الترتيب فى تقديم الأطعمة وابتكر فى الأزياء والألوان، وقد نفس بعض أهل الأندلس على زرياب هذه المكانة التى احتلها ومن هؤلاء الشاعر يحيى بن الحكم الغزالى وقد مرت الأندلس بعد وفاة عبد الرحمن الثانى بفترة اد لمرابات وتكونت دويلات كثيرة هنا وهناك وظهر عدد من الثوار أهمهم عمر ابن حفصون ولكن قيض الله للإسلام هنا اميرا بطلا هو عبد الرحمن الثالث (الناصر) والذى حكم البلاد خمسين عاما (من ٣٠٠ الي ٣٥٠) بلغت فيها درجه رفيعة من الاستقرار والرخاء وعلو الشأن فى ميادين العلم والثقافة كافة.

وفى سنة ٣١٦ تسمى عبد الرحمن الناصر بالخليفة واستمر ذلك من بعده الى سقوط البيت الأموى فى الأندلس كما أنشأ مدنة الزهراء - شمال قرطبة - وقد تولى من بعده الحكم الثانى (المنتصر بالله) وكان ملكا حكيما محبا للكتب وفى عهده وفد أبو على القالى على الأندلس فكان من عوامل نشاط الحياة الثقافية فى الأندلس ، والحكم هذا آخر الملوك الأمويين الأقوياء إذ تولى من بعده ابنه هشام الثانى (المؤيد بالله) وكان صغيرا غرا مما حدا بالحاجب أبى منصور العامرى لأن يستبد بالأمر ويتولى بحنكة إدارة سفينة الأندلس التى كانت الأخطار تحدق بها من كل جانب الى أن توفى (سنه ٣٩٢) ثم كان ماكان من أمر ابنه عبد الرحمن (شنجول) الذى طمع فى الخلافة فكان فى ذلك نهايته ونهاية البيت الأموى معا .

دول ملوك الطوائف :

تفرقت الكلمة بعد ذلك فى الأندلس وأصبح لكل مدينة أو اقليم حاكمه المستبد بالأمر فيه، ومن أبرز هؤلاء الملوك :

- بنو عباد ، وحاضرتهم اشبيلية ، ودام ملكهم [illegible] سبعين سنة، وامتد نفوذهم الى قرطبة وغيرها.

- بنو جهور ، وكانت عاصمتهم قرطبة ، وحكموا [illegible] أربعين سنة، إلى أن استولى بنو عباد على دولتهم

- بنو حمود وعاصمتهم مالقة

- بنو الأفطس ، وحاضرتهم بطليوس ، وحكموا [illegible] سنه

- بنو ذى النون ، وعاصمتهم [illegible]يطلة، و[illegible] سنه

- بنو عامر وحاضرتهم بلنسية، وحكموا نحو [illegible] قرن .

بنو هود، وحاضرتهم قسطة، وحكموا سبعين سنة.

بنو صمادح، وعاصمتهم المرية، وحكموا نحو نصف قرن .

وهناك . فضلا عما ذكرنا ، دويلات أخرى كثيرة مثل دولة بنى القاسم فى الفنت ، ودولة بنى رزين فى شنتمرية الشرق (أو شنتمرية ابن رزين) وإمارة سعيد بن هارون وابنه محمد على شنتمرية الغرب، وإمارة بنى مزين فى شلب، وبنى يحيى فى لبله وبنى بكر فى ولبه وبنى برزال فى قرمونة

وعلى الرغم من هذا التمزق السياسى الخطير ، الذى كان يؤذن بأسوأ العواقب إلا أن الحياة الثقافية شهدت فى ظل هذه الانقسامات انتعاشا ضخما مداه المنافسة بين هؤلاء الأمراء والتهافت على الشهرة وحب الاستماع الى مدائح الشعراء فيهم ، فهو انتعاش عارض لم يستند الى دوافع دينية او قومية أو فكرية حقيقية وقد أحسن ابن رشيق عندما قال فى وصفهم :

مما يزهدنى فى أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة فى غير موضعها

كالهر يحكى انتفاضا صولة الأسد

دولة المرابطين (أو الملثمين):

لدولة المرابطين تاريخ طويل بالغ التعقيد والغموض، إذ يبدأ فى تلك المناطق الإفريقية المجهولة الشاسعة فى الشمال الغربى من افريقية، فيما يعرف اليوم بصحراء شنقيط (بموريتانيا) ووسط قبائل البربر المعروفين باسم صنهاجة ومن اهم فروعها لمتونة ومسوفة وجد اله وكان هؤلاء يتلثمون وبذلك اختلفوا عن الصنهاجيين الشماليين مثل بنى زيرى الذين حكموا المغرب الأدني والأوسط وغرناطة فى فترة من الزمن

وقد انتشر الإسلام بينهم مبكرا، ولكنه لم يقو الا فى عضون القرن الخامس بفضل زعيمهم يحيى الجدالي والفقيه عبدالله بن باسين الجزولي ، إذ توطدت على أيديهما دعائم المذهب المالكى او استقام له مفهوم ديني سلفى متين، ومن ثم فإن اسم "المرابطين الذى أطلقوه على أنفسهم كان اسما على مسمى . وعلى رأسهم لمتونة - للشمال ، أى لتلك الاصقاع التى كان يسيطر عليها آنذاك قبائل غمارة فى الشمال وقبائل برغواطة في الغرب والى جوار هؤلاء كانت تقيم كذلك قبائل زنانة وبعض الرافضة ومن إليهم ، ونجح المرابطون فى فرض هيمنتهم هناك واتخذوا من اغمات عاصمة لهم ثم شرعوا فى بناء مدينة مراكش التى سوف تصبح العاصمة بعد ذلك ويأتي التحول حين تؤول زعامة المرابطين للأمير يوسف بن تاشفين الذى تسمى بأمير المسلمين فقد برزت أهمية هذه الدولة الجديدة فى مقابل ماكان عليه مسلمو الأندلس من هوان وتفكك، ثم جاءت استعانة المعتمدبن عباد به ليدرأ عنه خطر الفونسو السادس وفى سنة ٤٧٩ عبر يوسف بن تاشفين وجيوشه مضيق جبل طارق ليتقابل مع جيوش المعتمد بن عباد ومن آزره من ملوك الطوائف ولتكون معركة الزلاقة حيث انتصر المسلمون انتصارا حاسما ورجعت جيوش المرابطين إلى مراكش لتكون لتعود مرة أخرى على الأندلس بعد ذلك بأربعة أعوام وقد عزم ابن تاشفين هذه المرة على تخليص البلاد من حكم ملوك الطوائف وتوحيد المغرب والأندلس تحت إمرته

ولم تستمر فترة الزهو طويلاً بالنسبة للمرابطين فبعد موت يوسف بن تاشفين .سنه ..٥) تولى الملك ابنه على ، وكان حاكما ورعا قليل الخبرة بالسياسة وشؤون الحكم، ومن ثم بدأ الاضطراب يتسلل إلى الدولة، ووقعت حوادث شديدة الخطر لم يتنبه الى نتائجها، فمن ذلك ظهور دعوة ابن تومرت وكثرة اشياعه ، وقد سكت عنه على بن يوسف طويلا ، ولم يحرك ساكنا إلا بعد فوات الأوان وقد خضع المرابطون لسيطرة الفقهاء ، ... ثروات الأندلس

الهائله أمراء المرابطين بالدعة وحياة الملذات والخمول ، ففقدوا مسوغات بقائهم على رأس السلطة، ولم تدم دولتهم إلا زهاء ستين سنه.

وقد تم إسقاط المرابطين، من الناحية العملية نحو سنة ٥٤٠ ، ففي هذا التاريخ أعلن أهل اشبيلية مبايعتهم لتلك الدولة الجديدة التى ظهرت بالمغرب والتى تسمت باسم الدعوة الموحدية ، وهكذا انطوت صفحة تلك الدولة التى شاخت قبل الأوان بعد أن أحرزت انتصارات باهرة ونحت فى إلحاق الهزيمة بألفونسو السادس واستطاعت أن تسترد بلنسية سنة ٤٩٥ من يدى السيد القمبيطور (رودريكو دياز) وأضاعتها أيدى الاهمال وسوء التدبير

دولة الموحدين :

ولدولة الموحدين بداية غامضة شيئا ما، ولكن خطوطها العامة معروفة على كل حال، وربما تمثلت هذه البداية بصورة أساسية فيما تسلل الى كيان المرابطين من وهن وفساد، وما كان يعج به المغرب والأندلس من اضطرابات وفتن وتيارات فكرية واجتماعية وعسكرية وروحية متصارعة متلاطمة .

على أن التصدع الفعلى فى كيان المرابطين يظهر على نحو واضح سنه ٥١٤ هـ اذ تتردد فى مراكش أصداء دعوة محمد بن تومرت مناديا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مظهرا الغلو فى تطبيق تعاليم الدين، ناشرا دعوته بين القبائل، متلقبا بالمهدى المنتظر" وبـ "الامام المعصوم" واذا بالجموع تلبي نداءه ويصطنع من بينهم عددا من :الحزاريين" على رأسهم عبد المؤمن بن على الذين يتولى زمام قيادة "الموحدين" على أثر وفاة ابن تومرت سنة ٥٢٤ هـ

وعبد المؤمن بن على بربرى من كومية – بطن من زناتة– اتسم بالعبقرية العسكرية .والدهاء السياسى، واستطاع بعد معارك طاحنة أن يستولى على مراكش – حاضرة المرابطين فى المغرب – سنة ٥٤١ ، ويؤسس دولة وطيدة الأركان انتقل بها من نصر إلى نصر إلى أن توفى سنه ٥٥٨

وكان من البديهى للدولة الموحدية، بعد أن تمكنت من سحق المرابطين في المغرب، أن تتجه إلى استئصالهم فى الاندلس، وكان أمرها موزعا بين هذه الزعامات الإسلامية وبين أطماع ملوك الفرنجة الذين أضرموا حروب الاسترداد، وساعدهم عليها مااعترى أهل الأندلس من خلل وثورات وأطماع ونزوات أدت إلى سقوط طليطلة مبكرا (سنه ٤٧٨) – على زمن ملوك الطوائف ولولا أن تدارك الله الإسلام آنذاك بالانتصار فى معركة الزلاقة سنه ٤٧٩ لكان انهيار الاندلس قد وقع بأسرع مما كان .. ثم توالى سقوط المدن فاستسلمت تطيلة سنه ٥١١هـ ثم سرقسطة سنه ٥١٢ وتمكن ألفونسو المحارب من الاستيلاء على

العديد من الحصون والمواقع المنيعة مما أدى إلى استسلام مكناسة - سنه ٥٢٧هـ - ثم طرطوشة ولاردة وافراغة من قواعد الثغر الأندلسى الأعلى ، وفى ظل هذه الحالة برزت قوة الموحدين .

وأول جيش موحدى دخل الأندلس نحو سنة ٥٤٠هـ، واستطاع هذا الجيش أن يخضع اشبيلية سنة ٥٤١، وتوالت استجابة العديد من المدن الأخرى لحركة الموحدين، بما فى ذلك قرطبة التى اضطر أميرها المرابطى يحيى بن غانية الى التخلى عنها للموحدين بعد أن اشتدت عليه مطالب ألفونسو السابع ملك قشتالة، وتمكن الجيش الموحدى من انتزاع مدينة المرية من أيدى الفرنجة بعد أن بقيت فى حوزتهم زهاء عشرة أعوام، وانضوت غرناطة اخر الأمر لملك عبد المؤمن الموحدى .

أما مااستعصي عليه فيتمثل اساسا فى مرسية التى كانت خاضعة لأبى عبدالله محمد بن سعد بن مردنيش الملقب بـ " صاحب شرق الأندلس" (١) .

ولسنا بصدد تناول تاريخ أمراء بنى عبد المؤمن ، ولكن فن الضرورى التعريج على اسمين هامين أولهما يوسف بن عبد المؤمن ثم ابنه يعقوب .

أما الأول فكان فقيها حافظا متقنا، لأن أباه هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف ، فنشؤوا فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان ، وفى قراءة العلم بين أفاضل العلماء، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله الى

---

(١) تملك ابن مردنيش شرق الأندلس (مرسية وبلنسية) سنه ٥٤٢ هـ ، وحمل الدعوة لفكرة استقلال الأندلس عن المغرب، ومن ثم تصدى لمحاولات الموحدين الرامية لضم شرق الأندلس لـ ..براطوريتهم، واخذ عليه تحالفه مع القشتاليين، وكان من مؤ ريه ابن همشك الذى تغلب على شقورة، واستطاع ابن مردنيش أن يحافظ على استقلاله حتى وفاته سنه ٥٦٧ فخضعت مرسية لسيطرة الموحدين ، وسوف نعود للتعريف بابن مردنيش فى موضعه .

الأدب وبقية العلوم"(١) . ومما يؤثر له أنه أعد العدة لجهاد الفرنجة فى الأندلس عندما عبر إليها سنه ٥٦٦هـ بجيوش جرارة أفضت الي استيلائه على مرسية وماجاورها. وكان ذلك على أثر وفاة ابن مردنيش (سنه ٥٦٧هـ).

وكان آخر ماقام به يوسف بن عبدالمؤمن أن تحرك من المغرب الي الأندلس على رأس جيش جرار ليحرر مدينة شنترين من قبضة البرتغال (وملكهم انذاك ألفونسو هينريكيز الذى تسميه الروايات العربية ابن النفق وابن الرنك)، ولكن هذه الحملة باءت بالخسران، وقتل الخليفة فى أعقابها، سنة ٥٨٠هـ.

وهكذا يفضى بنا القول الى الشخصية التالية أى الى أبى يوسف يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن، الملقب بالمنصور ويوصف بأنه الفارس الذى أظهر أبهة ملكهم، ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ونظر فى أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأقام الحدود حتي فى أهله وعشيرته الأقربين كما أقامها فى سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال فى أيامه ، وعظمت الفتوحات " (٢)

وكان من أعظم مآثر المنصور انتصاره الساحق على نصاري اسبانيا فى معركة الأرك فى سنة ٥٩١ حيث تقدر بعض المصادر - مثل الكامل لابن الأثير - أن قتلاهم تجاوزت مائة ألف قتيل .

وقد توفى المنصور (سنه ٥٩٥) وتولي الحكم من بعده ابنه محمد الناصر لدين الله ، وكانت فيه سمات من نخوة أبيه لكنه لم يكن مثله فى الحزم وادارة الجيوش وقد منى جيشه الضخم فى سنه ٦٠٩ هـ بهزيمة شنعاء فى معركة تعرف

(١) وفيات الأعيان جـ ٧ ص ١٢٠ ومابعدها

(٢) المصدر السابق جـ ٧ ص ٣-١٩

وللمزيد من التفصيلات يراجع محمد عبدالله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، القسم الثانى ومراجعه ..

باسم معركة العقاب -. بالكسر - وبهذه الهزيمة تقهقر الإسلام فى الأندلس بصورة مروعة. وعلى الرغم من أن دولة الموحدين استمرت بعد ذلك لفترة من الزمن - حتي نحو سنه ٦٦٨هـ ، ١٢٦٩م ، إلا أن معركة العقاب كانت بمثابة النهاية الفعلية لدولة الموحدين ، بل وللعرب والمسلمين فى سائر الأندلس ، ماعدا منطقة غرناطة وما حولها فى الجنوب الشرقى من شبه الجزيرة الأيبيرية ، وقد عبر أحد شعراء ذلك العصر - ابن الدباغ الاشبيلى - على معركة العقاب بقوله :

وقائلة أراك تطيل فكرا :
كأنك قد وقفت على الحساب.
فقلت لها أفكر فى عقاب
غدا سببا لمعركة العقاب
فما فى أرض أندلس مقام
وقد دخل البلا من كل باب (١)

مملكة غرناطة :

وتسمى أحيانا بـ "دولة بنى الأحمر" و "بالدولة النصرية" و أيضا بـ "الأندلس الصغري" ، وتمثل اخر المعاقل فى اسباينا.

وكانت الأندلس خلال فترة الانهيار الموحدى قد شهدت عدد من الشخصيات المكافحة على الرغم من كل الظروف العسيرة التى أحاطت بهم انذاك ، ومن هؤلاء الأمير الفارس أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود - من نسل بنى هود أصحاب سرقسطة - وبدأ حركته سنه ٦٢٥ فى مرسية ، مستغلا فترة

---

(١) نفح الطيب ٤٦٤/٤

انهيار البيت الموحدى ونادى بتخليص الأندلس من كل من النصارى والموحدين معا وبث الدعوة للعباسيين مما دعا الخليفة العباسى الى تشييع المراسيم له، وتلقب بـ "المتوكل على الله"

وسرعان ما استطاع أن يبسط نفوذه على جيان وقرطبة وماردة وبطليوس، كما انتزع غرناطة من قبضة الموحدين فى سنة ٦٢٨هـ ، وعنه يقول لسان الدين بن الخطيب انه كان "شجاعا كريما حبيباً وفيا، متوكلا عليه ، سليم الصدر ، قليل المبالاة بالأمور ، محدودا ، لم ينصر به جيش ، ولا وفق له رأى ، لغلبة الخفة عليه واستعجاله الحركات، ونشاطه الى لقاء الأعداء من غير كمال استعداد"[1] والحق أن عوامل كثيرة أسهمت فى زعزعة ملك ابن هود، أهمها فورة الحماس التى سرت فى نفوس نصارى الأندلس ، ومن ثم سقطت قرطبة – التى كانت لفترة طويلة من الزمان حاضرة الخلافة، وقد انتهت حياة ابن هود فجأة، وهو فى ثغر المرية، سنة ٦٣٥ .

وتعرضت بلنسية بدورها للمصير التعس، عندما تحالف أميرها الموحدي (السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن) مع ملك أراجون خايمى الأول – بعد أن نجح أبو جميل زيان بن مردنيش فى انتزاع المدينة منه – ولم يلبث السيد ابو زيد ان تنصر وأصبح من قواد النصارى وآزرهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على بلنسية، ثم توالى سقوط المدائن الكبرى: مرسية (٦٣٦) واشبيليه (٦٤٥) وغيرهما، ووضح ان النهاية الدامية باتت على وشك ان تخيم على سائر الأندلس .

وفى هذه الآونة العاصفة استطاع أحد القادة العرب : محمد بن يوسف الملقب بابن الأحمر، سليل بنى نصر أصحاب حصن أرجونه، من بسط هيمنته

---

(١) أعمال الأعلام ٢٧٨/٢، والإحاطة ١٢٩/٢

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢١

على عدد من المواقع والحصون الى أن استولى عل غرناطة سنه ٦٣٥ وفى ظل هذه الظروف "كانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة، وكان فرناندو الثالث ملك قشتاله يرى فى ابن الأحمر، بعد اختفاء ابن هود، زعيم الأندلس الحقيقى والخصم الذى يجب تحطيمه. وكان ابن الاحمر من جانبه يقدر خطورة المهمة التى ألقاها القدر على عاتقه ، وكان يضطرم عزما واقداما لمحاربة النصارى واستخلاص تراب الوطن من أيديهم[١] ومع ذلك فإنه اضطر الى دفع الجزية لملك قشتاله وسلم له جيان وأرجونة وبركونة وغيرها، فى مقابل توقيع معاهدة سلام بينهما ثم عاد فى سنه ٦٦٥ فتنازل عن قرابة مائة موضع وحصن مما كان فى حوزته ، خاصة فى غرب البلاد ، وخلفت هذه الأحداث جراحا غائرة فى نفوس الناس، وعلى اثرها كتب أبو البقاء الرندى مرثيته المشهورة :

لكل شئ اذا ماتم نقصان

فلا يغر بطيب العيش انسان

وتوفى محمد بن الأحمر سنه ٦٧١هـ، بعد أن ابتنى قصر الحمراء ، وبعد أن استطاع دفع ملوك بنى مرين بالمغرب لأن يعينوا الأندلس، وتكونت تبعا لذلك "مشيخة الغزاة" وتبعا لذلك تمكنت مملكة غرناطة من مجالدة أعدائها فترة طويلة من الزمن ، الى أن آذنت شمسها بالغروب وكان النصاري قد وحدوا صفوفهم ، بقيادة ايسابيللا ملكة قشتالة وفرناندو الخامس ملك أراجون ، وشددوا الحصار على غرناطة إلى أن اجبروا ملكها أبا عبد الله محمداً الذى تسميه المراجع الأوروبية Boabdil أو أبا عبدالله الصغير على توقيع معاهدة استسلام غرناطة، وذلك فى سنة ٨٩٧ (١٤٩٢م)، وبذا انطوت اخر الأعلام الإسلامية عن أرض شبه الجزيرة الأيبيرية .

---

(١) محمد عبدالله عنان: نهاية الأندلس ص ٤٢

مابعد الرحيل:

هناك مرحلة كثيرا ماتنسى من عمر الأندلس، وإذا ماذكرت فى كتب التاريخ فإنها عادة ماتهمل فى كتب الأدب ونعنى بها المرحلة "الموريسكية"، التى تتناول فترة مابعد الأندحار، أى المرحلة التى تبدأ بسقوط غرناطة وماتلاها من أحداث جسام، وقد تناولتها - تاريخيا- بعض الكتب العربية، من بينها كتاب محمد عبدالله عنان الضخم:"نهاية الأندلس، وتارخ العرب المتنتصرين"، وكتاب عادل سعيد بشتاوى "الأندلسيون المواركة"، فضلا عن الترجمة العربية لكتاب : هورتز وب. بنشنت: تاريخ مسلمى الأندلس : الموريسكيون، حياة ومأساة أقلية" الخ ... وأما الأدب فلا نكاد نجد له ذكرا إلا عند د. عبد العزيز الأهوانى فى : الزجل فى الأندلس والذين يعرضون لأحوال المسلمين "المدجنين" Las Mudejares و (المدخاروس) لابد وأنهم يتذكرون الفتح العربى لاسبانيا وماكان يلاقيه المستعربون Los Mozarabs من حسن معاملة وجميل رعاية، وماآل إليه أمر مسلمى الأندلس من مهانة وتشريد واجبار على التنصر ونقض للمواثيق.

ويتمثل نقض المواثيق بصورة أساسية من خلال معاهدة تسليم غرناطة والتى تضمنت سبعة وسبعين شرطا منها "تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمال وإبقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهمهم، ومنها إقامة شريعتهم على ماكانت ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا وأن لايولى على المسلمين إلا مسلم .. وأن يفتك جميع من أسر فى غرناطة من حيث كانوا وخصوصا أعيانا نص عليهم.. ومن أراد الجواز للعدوة (للمغرب) لايمنع.. وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لايقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين واخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الاسلام تمادى على ماأراد، ولايعاتب على من قتل نصرانيا أيام الحرب..

ولايحمل علامة كما يحمل اليهود.. ولايمنع مؤذن ولامصل ولا صائم ولا غيره من أمور دينه "

لكن هذه الشروط تسخت شرطا بعد شرط وهكذا تم طرد المسلمين من غرناطة الى ماحولها، ثم بدأت عملية إجبارهم على التنصر وتمت ابادة من لم يفعل – وكان ذلك سنه ٩٠٤ وفي ذلك يقول المقري: "وبالجملة فإنهم تنصروا عن آخرهم بادية وحضرا، وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا الناس فلم ينفعهم ذلك ،امتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا .. ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي ، فشدد عليهم النصارى في البحث حتى انهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ؛[1] ثم حمل المورسكيون بعد ذلك على مغادرة الأندلس – سنة ١٠١٧هـ حيث نقلوا الى فاس وتلمسان وتونس وغيرها، وكانت أحكام القتل والإحراق تصدر جزافا على الأندلسيين ذوى الأصول العربية، وتم كذلك منع وإحراق الكتب العربية والتسمى بأسماء إسلامية الخ [1] . ونتيجة لذلك أخذت الكتابة العربية تختفى شيئا فشيئا وإن بقيت آثار منها تعكس اللوعة والإحساس الدامى بالقهر والضياع .

---

(١) نفح الطيب جـ ٤ ص ٥٢٨

(١) راجع : تاريخ مسلمى الأندلس (الموريسكيون) ص ١٢٥ حيث يشير الى ماالكتشف من كتب اسلامية مخبوءة فى ثقوب الجدران فى بعض المدن الاسبانيه

ملاحظات حول الثقافة والمجتمع

كان التركيب السكانى فى الأندلس خليطا من أجناس شتى وحضارات متباينة شرقية وغربية، بحيث يمكن القول بأن الأندلس تمثل "حالة خاصة" فى تاريخ البشرية .

فهناك السكان الأصليون الذين ينحدرون بدورهم من أصول مختلفة بعضها محلى قديم، وبعض اخر جاء اليها من روما أو من فينيقيا، وأيضا من أقصى شمال المعمورة) مثل الوندال والقوط) ، على أن هؤلاء السكان يمكن أن يصنفوا بعد الفتح العربى إلى عدة فئات :

- **المستعربة** (Los Mozarabes)، وهم الذن بقوا على ديانتهم الأصلية (النصرانية وفقا للمذهب الكاثوليكى) ولكنهم اتصلوا بالثقافة العربية وحاولوا التجانس مع الحياة الجديدة التى أحاطت بهم، والكتب العربية تسميهم عادة : عجم الأندلس أو عجم الذمة، وقد ذكرهم ابن حوقل - الذى جاء وافدا على الأندلس فى زمن الخليفة الناصر - فى عبارته: "وبالأندلس غير ضيعة فيها ألوف من الناس لم تمدن وهم على دين النصرانية، روم ، وربما عصوا فى بعض الأوقات ، ولجأ بعضهم الى حصن فطال جهادهم لأنهم فى غاية العتو والتمرد"

- **المولدون** ، وهم نسل المسالمة ، وقد وصف ليفى بروفنسال هؤلاء المسلمين الجدد بقوله انهم زاولوا فى القرى تربية المواشى والزراعة، وفى السواحل الصيد والصناعات البحرية بينما كانوا فى المدن يقومون هم والموالى بالحرف وبالتجارة، وهذا كله يبين الدور القوى الذى قام به المولدون فى حين ان الاقتصاد العام للبلاد، وهم يشكلون القسم الأكبر من سكان الأندلس . وقد برهن الأمويون على أفضل سياسة وأحكمها عندما ساعدوهم على الارتقاء وسمحوا

لكثير منهم بالاغتناء وبالتغلغل فى المجتمع الإسلامى. وكانت سياسة اللين لا سياسة القهر هى المتبعة فى نشر الإسلام، وماليثت هذه السياسة أن اثمرت وأمدت النظام الأموى بجماعة كبيرة من ذوى القيم العليا الذين استطاعوا باستقامتهم - غير مرة - أن يفضوا الخلافات السياسية التى كانت تنشب بين العناصر المهاجرة من عرب وبرابرة ..[1] وبقيت أسر من هؤلاء المولدين محافظة على أسمائها القديمة مثل بنى مرتين Martin وبنى مردنيش Martinez وبنى قومس Comes وبنى شبريق Savarico وبنى القبطرنة Kabturno وبنى اللونقة Longo وبنى قرلمان Karluman الخ .

- **اليهود** ، وكانوا على زمن القوط أقلية مضطهدة (ومن ثم آزروا الفتح الإسلامى للأندلس) ، واعتادوا أن يعيشوا فى أحياء خاصة بهم، واستطاع بعضهم - مثل ابن النغرلة- أن يحتل مناصب رفيعة فى الدولة ، وكان منهم شعراء وكتاب بالعربية .

- **أهل البلاد المعادون للعرب**

ونقصد بهم سكان البلاد التى لم يفتحها العرب حيث تكونت الإمارات التى قادت حركة "الاسترداد" - Reconquesta - حتى تمكنوا فى النهاية من طرد المسلمين من سائر الأندلس

- **العرب الفاتحون ومواليهم** ، وقد أشرنا اليهم فى ايجاز عند الحديث عن الفتح عبر المرحلة الأموية من تاريخ الأندلس

ويمكن القول فى يسر إن المرحلة "العربية" كانت متأثرة الى حد بعيد بالطابع الشامى في كل شئ ، وربما ساعد على ذلك أن قرطبة نفسها كانت تشبه

---

(١) بروفنسال: تاريخ اسبانيا الإسبانية (بالفرنسية) ، نقلا عن د. ألبير حبيب مطلق: الحركة اللغوية فى الأندلس ص ٢٨

مدينة دمشق من عدة وجوه إذ كانت تقع على الشاطئ الأيسر من نهر الوادى الكبير كما كانت حاضرة الأمويين تقع على الضفة اليسرى من نهر بردي، وكانت حاضرة الأندلس يحف بها جبل العروس بينما يحف بدمشق جبل مشابه هو قاسيون، وقد عرفنا أن جامع قرطبة شيد على نحو يشبه المسجد الأموى بدمشق "أما الناحية الدينية فى الأندلس فى هذه الفترة فكانت هى الأخرى متأثرة بالشام، فقد اعتنق الأندلسيون فى بادئ الأمر مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى امام الشام المتوفى سنة ١٥٧هـ ، ومقامه يزاد فى ببروت، وكان الأوزاعي من المجاهدين الذين رابطوا فى مدينة بيروت التى كانت فى ذلك الوقت رباطا على العدو البيزنطى لذا اهتم مذهبه بصفة خاصة بالتشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد. وهذا الاهتمام كان يناسب وضع الأندلسيين فى هذه التفرة الأولى من حياتهم ، القائمة على الحرب والغزو ".(١)

ومن الطبيعى أن ذلك كله سينعكس بدوره على طبيعة الأدب والثقافة فى الأندلس آنذاك

ويحتاج حزب "المولدين" الى وقفة خاصة ، لأنهم احتلوا فى تاريخ الأندلس مكانة متميزة، وقد كان لهم نمطهم الخاص فى كل شئ ، فقد اعتاد معظم ارتداء الثياب البيض حزنا على الموتى، وفى ذلك يقول شاعرهم

ألا ياأهل أندلس فطنتم
بلطفكم الى أمر عجيب
لبستم فى مآتمكم بياضا
فجئتم منه فى زى غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن
ولا حزن أشد من المشيب

(١) د. العبادى ، السابق ص ١١٤ .

وكان من عادتهم فى الثياب ارتداء البرنس وهو عباءة ذات غطاء للرأس وتسمي أيضا بالغفارة ، بينما كان الخصيان يرتدون الخمار ، وتدل بعض الإشارات على أن الصقالبة - بما فى ذلك الأمراء منهم - كانوا يرتدون الأقراط ويضعون الخمار، وفى ذلك قول ابن دراج القسطلى فى مدح واحد منهم :

فتصبح فيما بين قرطيك مطلع

وقد سكن الليل البهيم خماركا

وقد تخلى الأندلسيون عن العمامة فى الغالب الأعم، وإن ظل العلماء والقضاة يحرصون عليها وفى ذلك يقول المقرى فضلا عن ابن سعيد: "وأما زى أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمائم، لاسيما فى شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لاتكاد ترى فيهم قاضيا ولافقيها مشارا اليه ألا وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها فى ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطاب اكبر عالم بمرسية ، حضرة السلطان فى ذلك الأوان، وإليه الإشارة، وقد خطب له بالملك فى تلك الجهة، وهو حاسر الرأس ، وشيبه قد غلب علي سواد شعره ، وأما الاجناد وسائر الناس فقليل منهم من تراه فى شرق منها أو فى غرب .. وكثيرا مايتزيى سلاطينهم وأجنادهم بزى النصارى المجاورين لهم .."(١)

والظاهرة العامة أن البربر، على الأقل فى الأندلس ، لم يحظوا بالقدر الكافى من التقدير، واعتبروا ، أكثر من غيرهم، بمثابة الدخلاء على البلاد، وحقيقة اننا قد نصادف بعض أقوال فى مدحهم ، مثل البيت المعروف فى تعليل تمسكهم باللثام:

لما حووا إحراز كل فضيلة

غلب الحياء عليهم فتلثموا

١) نفح الطيب جـ ١ ص ٢٢٣ (ط. احسان عباس)

لكننا ، فى مقابل ذلك ، نجد مثل قول الشاعر السميسر:

رأيت آدم فى نومى فقلت له

أبا البرية، إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك ، قال : إذن

حواء طالقة ان كان مازعموا

والحكاية المشهورة تقول إن المعتمد بن عباد بعث ليوسف بن تاشفين على أثر عودته لبلاده بعد الانتصار فى معركة الزلاقة برسالة ضمنها قول ابن زيدون:

بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا

شوقا اليكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فغدت

سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

والخبر يقول ان ابن تاشفين قال لقارئ الرسالة معلقا على البيتين :

"يطلب منا جوارى سودا وبيضا؟ قال : لايامولانا. ماأراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهارا لأن ليالى السرور بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلا لأن أيام الحزن ليال سود. فقال: والله جيد اكتب له : إن دموعنا تجرى عليه، ورؤوسنا توجعنا من بعده "! ولا شك ان هذا محض لعب فقد كان ابن تاشفين حصيفا داهية، وهو الذى استشهد فى الرد على تهديد ألفونسو السادس بقول المتنبى :

ولا كتب إلا المشرفية والقنا

ولا رسل الا والخميس

بل لقد تمكن الصقالبة من التأثير فى مجريات الأحداث، وهؤلاء الصقالبة (وبعض المؤرخين مثل دوزى يرجع التسمية إلى كلمة Sclaves)كانوا من الرقيق المشترى من المناطق السلافية وكانت القبائل الجرمانية تغير على بلادهم وتبيعهم فى أسواق الرقيق، واشترى أمويو الأندلس أعدادا كبيرة منهم ودربوهم على فنون القتال (على نحو مافعل الصالح أيوب فى مصر فى اقتنائه للماليك)

وبعد انهيار البيت الأموى ظهر من الصقالبة بعض الزعماء البارزين مثل أبى الجيش مجاهد العامرى الصقلى الذى شيد امارة فى دانية والجزر الشرقية

وهذا التركيب المتنوع المعقد سوف يخلف آثارا عميقة فى الأوضاع الاجتماعية فى نظام الحكم، إذ يلاحظ أن مفهوم "السيادة القرشية" لايلبث أن يتزعزع بعد سقوط البيت الأموى ويصبح الملك أمرا مشاعا لا يخضع الا للغلبة أو الانتخاب ، وهذا ماآلت اليه الحال فى قرطبة سنه ٤٢٢ عندما أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور " انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها" وأديرت قرطبة وفقا لنظام "جمهورى" واستطاع المولدون والبربر والصقالبة أن تكون لهم الكلمة النافذة فى بعض المناطق ، على نحو ماهو مبسوط فى كتب التاريخ .

وهناك وجهتا نظر بشأن طبيعة هؤلاء السكان، فبعض الدارسين وبخاصة العرب يؤمن بأنه يجب اعتبار سكان الأندلس عربا، على اعتبار أن العروبة كانت العنصر المهيمن الغالب الذى احتوى كافة الأجناس الأخرى التى ارتبطت به، وهكذا كان الإسلام - دين العرب - هو الأساس ، ولغتهم هلى السائدة وطبائعهم هى المسيطرة .

أما المستشرقون الإسبان، وعلى رأسهم خوليان ريبيرا، فيرون أن أهل الاندلس هم اسبان دينهم الإسلام ولغتهم العربية، على أساس أن العرب قدموا

إلى شبه الجزيرة الأيبيرية فرسانا ولم يكن معهم أسر ومن ثم فإنهم تزايدوا عن طريق الزواج بالأيبيريات وبذا فإن الدم الأيبيرى كان يزيد جيلا بعد جيل بينما يتناقص الدم العربى مرة بعد أخرى .

ولعل الاستقراء الصحيح لواقع المجتمع الأندلسى يقود الى استخلاص رأى يجمع بين وجهتى النظر، فيبرز اثر العنصر العرب دون أن يقلل من أهمية الاجناس الأخرى، والأدلة التى تدفع للأخذ بهذا الرأي كثيرة للغاية

فلا شك أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للدولة فضلا عن أنها كانت لغة الإبداع الأدبى - شعرا ونثرا - وامتد نفوذها الى المستعربين أنفسهم ولعل أوضح دليل على ذلك شكوى أحد كبار رجال الدين النصارى (الفارو القرطبى) الذى ترك وثيقة يقول فيها :

"إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ويقبلون عي دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين، لا ليردوا عليها وينقضوها، وانما ليكتسبوا من ذلك أسلوب عربيا جميلا صحيحا. ان الموهوبين من شباب النصارى لايعرفون اليوم الا لغة العرب وآدابها ويؤمنون بها ويقبلون عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها ويفخرون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديرة بالإعجاب .

لقد نسى النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجد فى الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب الى صاحبه كتابا سليما من الخطأ.فأما عن الكتابة في لغة العرب فإنك واجد منهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق، بل هم ينظمون من الشعر مايفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالاً "

على أن هذه الشكوى لاينبغى أن تستأثر بكل الانتباه ففى مقابلها ينبغى أن نلتفت الى ظاهرة انتشار اللاتينية المحلية (التى تعرف بالرومانث) حتى بين العرب أنفسهم وهاهو المقدسى صاحب :أحسن التقاسيم فى معرفة

الأقاليم" يذكر أن عددا من أهل الأندلس كان يتكلم فى موسم الحج بلهجة تستعصى على الفهم ولغة أخرى أعجمية. وابن حزم فى "جمهرة أنساب العرب" يقول إن جماعة من العرب ، هم بنى بلى، كانوا "لا يحسنون الكلام بالطينية ، لكن بالعربيه فقط رجالهم ونساؤهم" وفى هذا التخصيص مايدل على انتشار الرومانث بين سائر عرب الأندلس وخلف هذا التداخل بين الأجناس من عرب واسبان وبربر وصقالته أثره فى اللغة المتكلمة حتى إن ابن حزم يقول إن لهجة أهل فحص البلوط – على مقربة من قرطبة – تستعصى على الفهم فمن سمعها "كاد يقول انها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة، وهكذا فى كثير من البلاد فإنه بمجاورة أهل البلدة لأمة أخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله"

وفى التاريخ الأندلس أن ابن حفصون – وهو من الثوار المولدين – كان يمزج كلامه بألفاظ من الرومانث وكذلك كان يفعل ابن مردنيش أحد كبار ملوك شرقى الأندلس

وستأتى فى الموشحات والأزجال طائفة كبيرة من الألفاظ والجمل الرومانثية التى جرت على ألسنة الشعراء هناك

وقد استخلصت بعض الظواهر المكونة للشخصية الأندلسية التى نوجزها فى النقاط التالية :

القلق وعدم الاستقرار :

ان التاريخ الأندلس كله تاريخ مواقف متتابعة من القلاقل والاضطرابات ومحاولات الانفصال، وتعليلهم لهذه الظاهرة التباين الواضح بين الاجناس التى تركب منها المجتمع الأندلسى، ؛ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التى عاشت فى ظلال هذه الظروف شخصية قد عانت نوعا من القلق جعلها

تسعى الى مايشعر بالزمن أو إلى مايسكن على الاقل بعض هذا القلق، وربما كانت من أسباب مانعرف من ميل الاندلسيين إلى الوان من المتعة وصنوف من اللهو كالشراب والغناء والرقص الموسيقى ، وماأشبه ذلك مما كلف به الأندلسيون؛

الاحساس بالنقص بإزاء المشرق :

لقد حبا الله الأندلس بطبيعة لاتضاهى ، وبثروات لا تبارى، وتميز أهلوه بالذكاء والنظافة والظرف والاقبال على الحياة، ومع ذلك فإن الناظر فى أحوالهم يلحظ فى يسر أنهم كانوا ـحسون إحساسا عميقا بالنقص بإزاء المشرق على الرغم من كثرة ماألفوا من كتب ورسائل فى المباهاة ببلادهم (بل ان هذه المباهاة فى حد ذاتها يمكن أن تفسر علي انها ثمرة احساس داخلى بالنقص)[1] وقد كانوا يتظاهرون بالحرص على النواحى التقليدية ولكن هواهم كان على الدوام مع الجديد ، والميل الى التحرر من التقاليد .واليكم هذه الأبيات لابن حزم، وفيها مايكشف عن بعض جوانب النفسيه الأندلسية :

أنا الشمس فى جو العلوم منيرة
ولكن عيبى أن مطلعى الغرب
ولو أننى من جانب الشرق طالع
لجد على ماضاع من ذكرى النهب
ولى نحو أكناف العراق صبابة
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب

(١) من ذلك رسالة ابن حزم فى فضائل أهل الأندلس ورسالة الشقندى (وتأتيان فى نفح الطيب) وهناك أيضا رسالة لصفوان صاحب زاد المسافر

فكم قائل أغفلته وهو حاضر

وأطلب ماعنه تجيئ به الكتب

هنالك يدرى أن للبعد غصة

وأن كساد العلم آفته الغرب

فواعجبا ، من غاب عنهم تشوفوا

له ودنو المرء من دارهم ذنب

ومن البديهى ان يعول أهل الأندلس كثيرا على المشرق، على نحو ماتكشف عنه بصورة خاصة كتب الفهارس - مثل "فهرست مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خير الاشبيلى وكتب البرامج ، مثل برنامج الوادى آشى الخ

ويمدنا فهرست ابن خير بمادة غزيرة عن كتب اللغة والنحو مما شاع فى عصره - القرن السادس الهجرى - فمن ذلك[1] كتاب سيبويه والعين للخليل بن أحمد. و"المقتضب" لأبى العباس المبرد و "الأصول فى النحو" لأبى بكر بن السراج و"الجمل" للزجاجى و "الكافى" والمقنع " هما لأبى جعفر بن النحاس .

ومن الكتب المشرقية التى انتشرت بين الأندلسيين : البيان والتبيين للجاحظ ، والفصوص لصاعد البغدادى (الذى هاجر للأندلس وأهدى كتابه هذا للمنصور العامرى) وكتاب المجالس لثعلب (وانظر لابن عبدالبر: بهجة المجالس وانس المجالس) وأدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الأمثال للأصمعى (ولابن القوطية: شرح صدر أدب الكتاب) وشرح المعلقات لأبى جعفر بن النحاس وكتابا اليتيمة وأجناس التجنيس للثعالبى (بإجازة من الحافظ السلفى)[2]، وكذلك

---

(١) فهرست ابن خير، ص ٣٠٥ ومابعدها

(٢) فهرست ابن خير ص ٣٧ .

"أشعار هذيل" برواية الأصمعى ومجموعة "المفضليات : وشعر ذى الرمة وشعر أعشى بكر وشعر الحطيئة وكتاب الكامل للمبرد الخ .

وأما أبو على القالى فإنه خلف آثارا عميقة فى الحياة الأدبية هناك من خلال دروسه بقرطبة، ومن خلال مؤلفاته مثل النوادر والأمالى التى أولع بها أهل الأندلس (ولأبى عبيد البكرى: كتاب اللآلى فى شرح الأمالى)، وأيضا من خلال ماحمل لهم من مؤلفات أدبية مشرقية ذكرها ابن خير فى فهرسه ، ومنها:

شعر ذى الرمة
شعر الخنساء
شعر الحطيئة
شعر جميل
شعر معن بن أوس
المفضليات
شعر النابغة الذبيانى
نقائض جرير والفرزدق
شعر مالك بن الريب
شعر النابغة الجعدى
شعر عدى بن زيد
شعر عمر بن أبى ربيعة
شعر أبى نواس
جزء من شعر أبى تمام

وفى فهرست ابن خير أيضا حديث مستفيض عن [illegible] الأندلس [illegible] أبى تمام وبالمتنبى.

أما أبو تمام فإن شعره ذاع هناك عن طريق عدة روايات منها رواية الرحالة

البغدادى أبى اليسر ابراهيم بن أحمد الرياضى وهو الذى نشر فى افريقية والأندلس شعر المحدثين وأخبارهم [1] كما يذكرون فى هذا الصدد اسم عثمان بن المثنى، أحد مؤدبى قرطبة (ت سنة ٢٧٣) وفى شأنه يقول الزبيدى فى طبقاته: إنه "رحل الى المشرق فلقى حبيب بن أوس ، فقرأ عليه شعره، وأدخله الأندلس"، وأيضا اسم الأديب الشاعر مؤمن بن سعيد الذى تقابل مع أبى تمام فى بغداد .

كما ذاع ديوان الحماسة بين أهل الأندلس واعتنوا بشرحها ومن شراحها ابن سيده وعاصم بن أيوب البطليوسى وأبو عامر بن ينق الشاطبى وأبو اسحاق بن ملكون صاحب "إيضاح المنهج" وفيه جمع بين كتابى التنبيه والمبهج لابن جنى فى شرح الحماسة[2]

ولاينبغى أن يفهم من هذا أن الأندلسيين كانوا عالة على المشارقة فى اللغة والأدب ، فقد كانت لهم جهود ذات شأن فى كل ميدان، ومما ألفوه فى النحو والغة : الاستدراك على سيبويه وطبقات النحويين واللغويين ولحن العوام للزبيدى، واصلاح الخلل الواقع فى الجمل لابن السيد البطليوسى (صاحب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ، وكتاب الانتصار ممن عدل عن الاستبصار والحل فى شرح أبيات الجمل والرد على النحاة لابن مضاء القرطبى والمخصص لابن سيدة الخ .

ومن مؤلفاتهم فى الأدب ، غير ماذكرنا، كتاب العقد لابن عبد ربه واحكام صنعة الكلام للكلاعى وبغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبى ، وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضى والحلة السيراء

---

(١) فهرست ابن خير ص ٤٠٢، واقرأ دراسة شيقة للدكتو محمد بن شريفة بعنوان : أبو تمام وأبو الطيب فى أدب المغاربة ، بيروت ١٩٨٦ .

(٢) منه مخطوطة فى الاسكوريال (رقم ٣١٢) وأنظر عنها د. بن شريفة ، السابق ص ٧٩

لابن الأبار وقلائد العقيان ومطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس للفتح بن خاقان والدخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لعل بن بسام الشنتريني - ويعد أهم مؤلفاتهم فى تاريخ الأدب ولعبادة بن ماء السماء الشاعر الوشاح - وهو من تلاميذ الزبيدى - كتاب (ضائع) فى أخبار شعراء الأندلس والأعلم الشنتمرى (ت ٤٧٦) أشهر من عكف على جمع وشرح المجاميع والدواوين الشعرية مثل شعراء الستة الجاهلين وكتاب الحماسة ودواوين زهير وعلقمة الفحل والنابغة ، وقدم أبو بكر عاصم بن أيوب البلوى شروحا على الحماسة وأشعار الستة الجاهليين ، كما الفوا بدورهم مجموعات على غرار حماسة أبي تمام منها حماسة الأعلم الشنتمرى "التى ضمنها حماسة أبى تمام والحماسة البصرية وحماسة الجرجانى وغيرها ورتب أشعارها وأبوابها وشرحها شرحًا مفيدا"[١] الخ وقد ضاعت آثار كثيرة بسبب العوامل التاريخية التى ذكرناها، ولاتزال أعمال أندلسية جليلة القدر مخبوءة عن القراء، متوارية فى خزائن المخطوطات العامة والخاصة ، وهناك - مما هو مطبوع - غير ماذكرنا:

- البديع فى وصف الربيع ، لأبى الوليد اسماعيل بن عامر الحميرى نشره هنرى بيريس بالمغرب سنة ١٩٤٠، وأعيد نشره مؤخرا ، وموضوعه واضح من عنوانه، وكل مادته - ماخلا مقطعات لابن الرومى - أندلسية خالصة

- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر لأبى بحر صفوان بن ادريس التجيبى المرسى ، وكان عبد القادر محداد قد نشره فى بيروت ١٩٣٩ ثم اعيد نشره فيها سنه ١٩٧٠ ، وهو منتخبات نفيسة من دواوين شعراء عصر الموحدين مثل ابن حبوس وأبى العباس الجراوى وابن مجبر وابن يونس القسطلى وابن زهر الحفيدو وترجع أهميته الى أن معظم الدواوين التى رجع اليها - ان لم تكن كلها - مفقودة .

---

(١) د. بن شريفة ، السابق ص ٧٩

- المطرب من أشعار أهل المغرب لأبى الخطاب عمر بن حسن بن دحية، وفيه ترجمات ونصوص قلما توجد فى غيره، خاصة ماتعلق بابي الحكم الغزال

- تحفة القادم لابن الأبار ، وقد عارض به كتاب "زاد المسافر" ، وفيه بدوره ترجمات ونصوص ممالا يوجد فى غيره

- الحلة السيراء لابن الأبار أيضا، وقد وصفه محقق الكتاب د. حسين مؤنس بأنه دون شك أحسن كتب ابن الآبار وأعظمها فائدة بل هو من عيون ماألف أهل الأندلس قاطبة، ومن المراجع التى لايستغني عنها من يؤرخ له أو يكتب فى أي ناحية من نواحى الحياة فيه "

- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد: وهو موسوعة أدبية ضخمة تشمل الأندلس وصقلية والمغرب ومصر ، وقسم بحسب المدن والأقاليم وفائدته أعم من أن تحصى

ومن كتب ابن سعيد كذلك :

- القدح المعلى فى التاريخ المحلي ونشر منه اختصار بالقاهره (١٩٥٩) بعناية ابراهيم الإبيارى ثم أعيد نشره ١٩٨٠.

- الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة ، ونشره ابراهيم الابيارى بالقاهرة سنه ١٩٤٥ ثم أعيد نشره سنه ١٩٦٧

- رايات المبرزين وغايات المميزين ونشره جومث فى مدريد سنه ١٩٤٢ ثم حققه بالقاهرة د. عبد المتعال القاضى سنه ١٩٧٣

- كتاب الغراميات، وهو مفقود ، ونشر قسم منه بتحقيق د.سعيدة محمد رمضان فى مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة

- المقتطف من أزاهر الطرف، وقد نشر د. عبدالعزيز الأهوانى قسما منه يتعلق بالموشحات والأزجال ثم نشره كاملا د. سيد حنفى بالقاهره سنه ١٩٨٤.

عنوان المرقصات والمطربات، طبع بالقاهرة سنه ١٢٨٦هـ، ثم نشر فى بيروت سنه ١٩٧٣ فى طبعة سقيمة

– الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، احد أساطين الأدب والعلم فى الأندلس فى العصر الغرناطى ، وكتابه هذا وان ركز على غرناطة إلا أنه يعد فى واقع الأمر بمثابة تاريخ شامل للأندلس وقد نشره بالقاهرة محمد عبد الله عنان. وللسان الدن بن الخطيب حشد من المؤلفات ، من أهمها فى مجال الأدب :

الكتيبة الكامنة فى شعراء المائة الثامنة

ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب

السحر والشعر

جيش التوشيح

روضة التعريف بالحب الشريف

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. وهذا الكتاب موسوعة عامة عن الاندلس تاريخها وأدبها، وهو "أقدم كتاب أندلسى ظهر للنور وعرفته المطبعة العربية، وكان مصدرا لأكثر ماعرفه المشارقة عن الأندلس فى مدى مائة عام أو أكثر ؛ وقد طبع فى بولاق سنه ١٢٧٩ ونشر القسم الألي من النفح فى ليدن سنه ١٨٥٥ بعناية طائفة من المستشرقين على رأسهم دوزى ، كما ظهرت منه طبعة بإشراف الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد .القاهرة ١٩٤٩) وأخرى نشرها د. احسان عباس (بيروت ١٩٦٨)

وللمقرى كتب أخرى ذات فوائد أدبية جمة أهمها ولاشك "أزهار الرياض فى اخبار عياض "طبعت منه ثلاثة أجزاء بالقاهرة (١٩٣٩-١٩٤٢) بعناية مصطفى السقا ومن معه ثم نشرت بقية الكتاب بالمغرب مؤخرا (١٩٨٠).

وربما كان فى تناول أوضاع المرأة مايساعد على إبراز بعض ملامح الشخصية الأندلسية، وبعيدا عن التفصيلات : فالثابت أن المرأة كان لها فى المجتمع الأندلسى مكانة بارزة ، ولعل من أوضح الأدلة على ذلك كثرة عدد الشاعرات، وأقدمهن ، فيما يذكر صاحب "نفح الطيب"، "الجارية العجفاء" - من شاعرات القرن الثانى ، وكانت من جوارى عبد الرحمن الداخل ولها شعر رقيق فى الغزل، وهناك أيضا حسانة التميمية التى تعد أول شاعرة "أندلسية" بمعنى الكلمة، إذ انها ولدت على أرض الأندلس، وعاشت فى أخريات القرن الثانى الهجرى، ومن الشاعرات المبرزات حفصة بنت حمدون الحجارية - وكانت فى المائة الرابعة، على حد تعبير صاحب "المسهب"[1]- وهناك شاعرة حجازية أخرى من أصل بربرى هى أم العلا بنت يوسف [2] وبعضهن ينتمى لعائلات ذات حسب ونسب مثل ولادة بنت المستكفى - ولنا إليها عودة - ومثل أم الكرم بنت المعتصم بن صمادح

ومن شاعرات الأندلس المشهورات نزهون الغرناطية - بنت القليعى - وحفصة بنت الحاج -وهى غرناطية أيضا - وقد أحبها أبو جعفر أحمد بن سعيد وزير بنى عبد المؤمن ونافسه فى حبها الملك الموحدى أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن بن على ومن جميل شعرها الغزلى :

أغار عليك من عينى رقيبى

ومنك ومن زمانك والمكان

ولو أنى وضعتك فى عيونى

إلى يوم القيامة ماكفانى

---

(١) المغرب ٣٧/٢

(٢) شرحه ٣٨/٢

وهى لاتتورع أن تكتب الى وزيرها العاشق:

أزورك أم تزور فإن قلبى
الى ماتشتهى ابدا يميل
وقد أمنت أن تظمى وتضحى
إذا وافى الى بك القبول
فثغرى مورد عذب زلال
وفرع ذؤابتى ظل ظليل
فعجل بالجواب فما جميل
أناتك عن بثينة ياجميل

وفى هذه الأبيات مايذكر بما وجهه النقاد من نقد لعمرين أبي ربيعة أذ جعل النساء فى شعره يعربن عن مشاعرهن تجاهه ، على نحو ماأورد صاحب "العمدة" الذىَ أضاف بعد ذلك :

قال بعهم - أظنه عبد الكريم : العادة عند العرب أن الشاعر هو المتغزل المتماوت ، وعادة العجم أن يجعلوا المرأه هى الطالبة، والراغبة المخاطبة، وهذا دليل كرم النحيزة فى العرب وغيرتها عى الحرم [1] وأظن أن ذلك ينطبق على الشاعرة حفصة بوضوح

والباحثون متفقون علي أن الأندلسيين ذهبوا بتبجيل المرأة الى مدى بعيد للغاية ويمكن القول بأن الشعراء لم يصنعوا شينا أكثر من أنهم عكسوا أفكار مجتمعهم، واذا كان لكثير من معاصريهم أفكار مختلفة فقد استطاعوا تحت تأثير هذا الأدب المصفى دائما أن يعدلوا موقفهم إزاء المرأة، وأن يقووا فى

---

(١) العمدة جـ٢ ص ١٤٨ وراجع د. عبد العزيز الأهوانى: الزجل فى الاندلس ، ص ٥ .

أنفسهم علاقتهم بها لكى يجعلوها تبرز أكثر صفاتها الطبيعية أو ان شئت الدقة لتكون اكثر فطنة والطف رقة وأروع تهذيبا وأصقل ذوقا.. والنماذج المحموده فى اسبانيا الإسلامية ليست ميزة للطبقة المتميزة . انها تمتد فى كل مكان وتظهر عفويا ، ملونة هنا وهناك بالسخرية البرينة ، وبالتربية المصقولة"[1]

والخلاصة أن أوضاع المرأة فى الاندلس كانت ، بصورة عامة ، أفضل من مثيلاتها فى الشرق، حقيقة إننا لانجد فيه من تناظر "شجر الدر" مثلا ، ولكن المرأة فى الأندلس تولت عددا من المناصب الهامة فى الدولة " فكانت لبنى كاتبة للخليفة الحكم بن عبدالرحمن ، وهى نحوية شاعرة بصيرة بالحساب، عروضية خطاطة، وكانت مزنة كاتبة الخليفة الناصر لدين الله حاذقة فى الخط،، وشارك بعضهن فى رواية الحديث، [2] ومما ينبغى أن يذكر فى هذا الصدد أن ابن حزم فى "الفصل" رأي أن الحديث القائل بأن النساء ناقصات عقل ودين لايؤخذ على الإطلاق وفى جميع الأحوال "اذ بالضرورة تدري أن فى النساء من هن أفضل من كثير من الرجال، وأتم دينا وعقلا.." [3]

هذا قليل من كثير مما يمكن أن يقال عن الأندلس ، ولاشك أن هناك تحفظات ينبغى أن تساق بشأن بيئات محلية معينة، وبشأن مراحل تاريخية مختالفة، ولكنا نعتقد أن تلك الخطوط العريضة التى مرت ترسم - على علاتها - صورة عامة عن الأندلس ، ولاشك أن أبعاد هذه الخطوط العامة سوف تزداد وضوحا من خلال الحديث عن مسارات الأدب الأندلسى عبر عصوره المختلفة ..

---

(١) هـ .بيريس : الشعر الأندلسى فى عصر الطوائف :ترجمة د. الطاهر مكى ص ٣٧١
(٢) د. احسان عباس : تاريخ الأدب الأندلس (عصر سيادة قرطبة) ص ٢٦
(٣) الفصل جـ ٤ ص ١٣٢

الشعر الأندلسي
من البدايات الى مرحلة النضج

إن التقسيمات التاريخية والسياسية التى مرت مما يستعين به دارس الأدب لاعتبارات كثيرة لسنا فى مجال حصرها الان، ولكنها - على كل حال- لا يمكن أن تلزمنا بإخضاع دراسة نشأة وتطور الأدب لها، على الرغم من أن صور الأحداث السياسية التى مرت بها الأندلس كانت ماثلة فى صميم هذا الأدب، وأصداء التحولات الاجتماعية كانت تتبدى مع كل مرحلة مرت بها أعمال هؤلاء الأدباء . فإذا مافتشنا عن سبيل لقياس "أندلسية" الأديب من غيره لم نجد إلا مقاييس نسبية من قبيل ماأورده ابن حزم من أن الإجماع معقود "على أن ينسبوا الرجل الى مكان هجرته التى استقر بها ولم يرحل عنها رحيل ترك لسكناها الى أن مات .. فمن هاجر الينا من سائر البلاد فنحن أحق به وهو منا بحكم جميع أولى الأمر منا، الذين اجماعهم فرض اتباعه ، وخلافه محرم اقترافه ومن هاجر منا الي غيرنا فالحظ لنا فيه، والمكان الذى اختاره أسعد به " (١)
ويقول كذلك :

"وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلة العلماء ، فقد ذكرنا من تآليف أهله ماإن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام، أعوز وجود ذلك، على قرب المسافة فى هذه البلاد من العراق التى هى دار هجرة الفهم وذويه ، ومداد المعارف وأربابها .

ونحن اذا ذكرنا أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابى فى الشعر لم نباه به

---

(١) ابن حزم فى رسالة فى فضل الأندلس ، راجع بشأنها د. احسان عباس: تاريخ الأدب الأندلس جـ ١ ص ٤٣ ، ونص الرسالة ص ٣٤٧ - ٣٦٩

الا جريرا والفرزدق لكونه فى عصرهما ، ولو أنصف لاستشهد بشعره ، فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين . ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا احمد بن دراج القسطلى لما تأخر عن شأو بشار بن برد وحبيب والمتنبى فكيف لنا ومعه جعفر بن عثمان الحاجب وأحمد بن عبد الملك بن مروان واغلب ابن شعيب ومحمد بن شخيص واحمد بن فرج وعبد الملك سعيد المرادى ، وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه .."[1]

وفى إشارات ابن حزم مايدل دلالة قاطعة على أن جيل "الرواد" من الشعراء بالأندلس كان يضم بين جنباته أسماء كثيرة جاءت الي الأندلس من المشرق، والملاحظة الثانية أن جميع من ذكرهم - باستثناء ابن دراج - فقدت دواوينهم ، ولم تبق لهم الا شذرات مبثوثة هنا وهناك ، مما يكشف عن مدى حجم الضياع الذى تعرض له التراث الأدبى والعلمى الأندلسى.

ولايعرف شئ كبير عن جعونة هذا إلا أنه كان شاعرا فارسا ، ولذا يلقب بـ "عنترة الاندلس" (وسيبتدأ ظاهرة تلقيب شعراء الأندلس بألقاب مشرقية تتوالي تباعا) وأنه كان يعيش فى نواحى قرطبة فى أخريات عصر الولاة

وهناك شاعر آخر ظهر فى هذه الفترة هو أبو المخشى عاصم بن زيد[2]، ونهجه كذلك نهج البداوة فى شعره (وهو أبو الشاعرة حسانه التى ذكرت قبلا) ولم تحفظ الكتب له الا مقطعات قليلة منها قوله :

وهم صافنى فى جوف ليل

كلا موجيهما عندى كبير

---

(١)رسالة فى فضل الأندلس ، ص ٣٦٨

(٢) يعود أصله الى نصارى الحيرة، وكان هجاء ، مترددا على الأمراء بمدائحه . راجع عنه ابن القوطية فى تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٦ وفى الحميدى : جذوة المقتبس ص ٣٧٧ وابن سعيد فى المغرب ١٢٣/٢ الخ ..

فبتنا والقلوب معلقات

وأجنحة الرياح بنا تطير

والبيتان فيهما رهافة ، وصور حية رائقة، والصورة الأخير "وأجنحة الرياح بنا تطير " تهيئ السامع لوثبة شعورية من خلال مقطع عن الترحال والاغتراب أو نحو ذلك لكن النص - مع الأسف - يبتر عند هذا الحد. ولعله من قصيدة فى المديح، فقد كان أبو المخشى يتردد على أمراء البيت الأموى ، والمرجح أنه توفى فى اخريات القرن الثانى الهجرى .

وهناك أيضا عباس بن ناصح الجزيرى ، نسبة للجزيرة الخضراء ، ولكن نشأته بمصر، وله رحلة للحجاز وللعراق ولقاء مع أبى نواس ثم عودة للأندلس، ولاتوجد من شعره الا نتف لاتكشف على نحو واضح عن مدى قيمته ومن عجيب الأمر أن ابن حزم أغفل الإشارة الى عبدالرحمن (الداخل)، فهل مرجع ذلك الى أنه كان أميرا فارسا مشيدا للدول فاتحا للممالك ، قبل أن يكون منشئا للقصائد، مدبجا للأبيات؟ ربما، على أن مؤرخى الأندلس لم يغمطوا الداخل نصيبه من الشاعريه ، وهاهو المراكشى يصفه فى "البيان المغرب" بأنه "كان فصيحا بليغا حسن التوقيع جيد الفصول مطبوع الشعر"، وسنتوقف أمام هذا الشعر لأنه جيد حقا، ولأنه يكشف عن أزمة هؤلاء الوافدين الذين أحسوا بأن مصيرهم مرتبط بالأندلس ، لكنهم كانوا يشعرون فى الوقت ذلك بفرط الحنين الى الديار المشرقية الغائبة وراء الأفق ، مفعمة بالذكريات الندية الآسرة ، مترعة بصور الطفولة اللاهية والشباب الذى انطفأ وميضه مع الأيام. هكذا تنداح أبيات الداخل وقد رأى من يتأهب للرحيل للمشرق :

أيها الراكب الميمم أرضي

اقر من بعضى السلام لبعضى

ان جسمى كما علمت بأرض

وفؤادى ومالكيه بأرض

قدر البين بيننا فافترقنا

وطوى البين عن جفونى غمضى

قد قضى الله بالفراق علينا

فعسى باجتماعنا سوى يقضى [1]

أو يقول (بديهة ، فيما يذكرون) وقد مر على رصافة قرطبة، فهاجت فى صدره الذكريات، وحركت "نخلة منفردة" أشجانه ، فصدح لسانه بهذا النشيد الملتاع :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تناءت بأرض النخل عن بلد النخل

فقلت: شبيهى فى التغرب والنوي

وطول التنائى عن بنى وعن أهلى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك فى الإقصاء والمنتآى مثلى

سقتك غوادى المزن من صوبها الذى

يسح ويستمرى السماكين بالوبل

لماذا حركت النخلة كل هذا الشجو الطاغى ، ودفعته لأن يرى فيها "معادلا" لغربته، يعترف أمامه بما تخفيه لواعجه، لماذا يتكرر ذكر النخلة فى البيت الأول ثلاث مرات متواليات ولماذا هذا الالحاح على "التغرب" و "النوى" و "الاقصاء" و "المنتآى" ، حتى لنحس بالدموع تنساب علي وجنتيه، واختلاجة الأسى تنتفض بين أضالعه ...؟

ومن الملاحظ أن هناك مقطوعة أخرى على غرار السابقة تقول أبياتها :

يانخل أنت غريبة مثلى
في الغرب نائية عن الأصل
فابكى وهل تبكى
عجماء لم تطبع على خبل
لو أنها تبكى إذن لبكت
ماء الفرات ومنبت النخل
لكنها ذهلت، وأذهلنى
بغضى بنى العباس، عن أهلى

والمقطوعة الأخرى تنسب أحيانا لأمير أموى آخر هو عبدالملك بن عمر ابن الحكم "الذى اجتاز فى قصده قرطبة ... بمدينة اشبيلة فرآى في موضع منها.. نخلة مفردة، فلحقته رقة عند النظر اليها ، وقال بديها الأبيات المذكورة"

أيا كان الأمر فإن فى شعر الداخل ظواهر لاتخفى[1]، منها أنه فى معظمه يأتي "مقطوعات" لاقصائد، ومدارها حول "الذات" فى ضعفها وأيضا فى

(١) راجع أيضا مقطوعته التى أولها:

شتان من قام ذا امتعـاض	منتضى الشـفرتين نصلا
فجـاب قفـرا وشق بحرا	مسـاميا لجة ومحــلا
فشاد مجـــد وبز ملكا	ومنبرا للخطـاب مصلا
وجند الجنـــد حين أودى	ومصر المصـر حين أخلى
ثم دعا أهلـــه جمـيعا	حيث انتأوا أن هلم أهلا
فجاء هذا طريد جـــوع	شـريد سيـف اباد قتلا
فنال أمنا ونال شبـــعا	وحاز مالا وضـم شـملا
ألم يكن حق ذا على ذا	أعـظم من منعم ومولى

توثبها وإبانها ومايندلع فيها من روح التحدى والكبرياء، مثل أبياته التى قالها وقد بلغه أن أحد المقربين له قال مامعناه ان الداخل لم يبلغ مابلغ من شأن إلا بفضل مؤازرته له ، فاعترت الداخل غضبة عبر عنها شعرا بقوله :

لايلف ممتن علينا قائل
لولاى مالملك الأنام الداخل
سعدى وحزمى والمهند والقنا
ومقادر بلغت وحال حائل
ان الملوك مع الزمان كواكب
نجم يطالعنا ونجم آفل
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا
أيريد تدبير البرية غافل
ويقول قوم سعده لاعقله
خير السعادة ماحماها العاقل
ابنى أمية قد جبرنا صدعكم
بالغرب رغما والسعود قبائل
مادام من نسلى إمام قائم
فالملك فيكم ثابت متواصل

وامتد الإحساس الشعرى الى الكثيرين من أمراء بنى أمية فى الأندلس ، مثل هشام الأول (الرضا) ابن عبد الرحمن الداخل، وعنه يقول المقرى إنه كان "اذا حضر مجلسا امتلأ أدبا وتاريخا وذكرا"، أما الحكم (الربضى) ابن هشام ففيه يقول صاحب الحلة السيراء: "كان أديبا مفتنا ، وخطيبا مفوها وشاعرا مجودا ، تحذر صولاته ، وتستندر أبياته" وله قصيدة مشهورة قالها عند فتكه

بأهل الربض لما ثاروا عليه، ووصفت بأنها :أحسن شعر قيل فى معناه" [1]

وأولها :

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعا
وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة
أبادرها مستنضى السيف دارعا

وله أيضا قصيدة أخرى ذات طابع بطولى ، يقول فيها:

غناء صليل البيض أشهى الى الأذن
من اللحن فى الأوتار واللهو والردن
إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا
أرتك نجوما يطلعن من الطعن

ومع ذلك فان للحكم شعرا كله شكوى من هجر المحبوب وعذاب الهجران والتذلل والتضرع على نحو مايأتى فى قوله :

ظل من فرط حبه مملوكا
ولقد كان قبل ذاك مليكا
ان بكى أوشكا زيد ظلما
وبعادا يدنى حماما وشيكا
هكذا يحسن التذلل فى الحب
(م) اذا كان فى الهوي مملوكا

---

(١) المغرب ١/٤٤

ومن ابرز الأمراء الشعراء أبو عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن وكذلك المستعين .سليمان بن الحكم) الذى تأثر بالأبيات المنسوبة لهارون الرشيد :

ملك الثلاث الأنسات عنانى
وحللن من قلبى بكل مكان
مالى تطاوعنى البرية كلها
وأطيعهن وهن في عصيانى
ماذاك إلا أن سلطان الهوى
- وبه قوين - أعز من سلطانى

فكتب هو :

عجبا يهاب الليث حد سنانى
وأهاب لحظ فواتر الأجفان
وأقارع الأهوال لامتهيبا
منها سوى الإعراض والهجران
وتملكت نفسى ثلاث كالدمى
زهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظر
من فرق أغصان علي كثبان
هذى الهلال وتلك بنت المشترى
حسنا وهذى أخت غصن البان
لا تعذلوا ملكا تذلل للهوى
ذل الهوي عز وملك ثان

ومن شعراء البيت الأموى ايضا (المستظهر) - عبد الرحمن بن هشام ، الذى يوصف بأنه كان على حداثة سنه يقظا ذكيا صاحب "بديهة رويه ويصوغ قطعا من الشعر مستجادة[1] ومن أشهر شعره قصيدته فى محبوبته "العبشمية" التى نوهت به مصادر الأدب الأندلسى مثل "الذخيرة" و "الحلة السيراء" و "المعجب"، ولهم الحق فى هذا التنويه فإنها نمط رفيع من الشعر، يجمع بين "كلاسيكية" التعبير وصدق الشعور وبراعة الصور وحيوية الأداء ، وقد استهلها بما لاقاه من عدم ترحاب أهل محبوبته به . ثم اتجه الى "الحبيبة" - وكان اسمها كذلك - ليقول فى صدق وسذاجة:

جعلت لها شرطا على تعبدى

وسُقت اليها فى الهوى مهجتى مهراً

تعلقتها من عبد شمس غريرة

محدرة من صيد آبائها غرا

حمامة بيت العبشميين رفرفت

فطرت اليها من سراتهم نسرا

لقد طال صوم الحب عنك فما الذى

يضرك منه أن تكونى له فطرا

وانى لأستشفى بمرى بداركم

هدوءا واستسقى لساكنها القطرا

وألصق أحشائي ببرد ترابها

لأطفئ من نار الأسى بكم جمرا

وفى هذه القصيدة نفحات من غرر قصائد ذى الرمة وجميل بثينة ولعلها

(١) الذخيرة ١ /٥٧

من أجود ماألف فى زمانها نصاعة عبارة وصدق إحساس .

ويمكن القول بأن حركة الشعر إبان هذه الفترة تخضع لمجموعة اعتبارات ، منها ان الأسماء البارزة فى الأدب ذات أصول مشرقية واضحة ، وأن هذا الشعر يتأرجح بين الطابع القديم النمط الجديد الذى بدأ يتألق بالمشرق على أيدى المجددين الكبار من أمثال بشار وأبى نواس وكأنما كان الشعر انذاك فى مرحلة ترقب، ينتظر من يعينه ليصل الى مرحلة النضج والاكتمال ، ويضفى عليه طابعا يميزه عبر الزمن .

يحيى بن الحكم الغزال
واكتمال الشخصية الأدبية الأندلسية

مرت بنا في الصفحات السابقة ملامح مما كتب في الأندلس على أيدى الشعراء الطارئين، وبعض أمراء البيت الأموى من ذوى الميول الأدبية، وهذا كله يمثل البدايات التى لم تشكل تيارا أو اتجاها واضح المعالم محدد السمات ، ذلك أن الحركة الأدبية فى بلد من البلدان لا تنهض بين يوم وليلة كما قد تنشأ الدول ، وإنما هى نتاج محاولات شتى لا تنضج إلا ببطء ، ومن خلال عشرات التجارب والمحاولات والرأى السائد فى هذا الصدد يقول إن :

" الشعر الأندلسى الذى رسخ أصوله أناس نبتوا فى البيئة الأندلسية لم يبدأ بالظهور إلا فى حدود سنة ٢٠٠ هـ - وهذه حقيقة هامة فى نشأة ذلك الشعر وفى النماذج التى احتذاها والمجالات التى كان يرودها، فهو من الناحية الزمنية أخذ يتكون حين كان الشعر المشرقى يشهد تجديد بشار وأبى نواس، ويقف عل مفترق الطرق بين مذهبى أبى تمام والبحترى ، ولما كان الأندلسيون حينئذ يلتفقون فى كل شئ إلى المشرق فقد اتخذوا شعر المحدثين مثالا يقلدونه ومنارا يهتدون به ، أى أن الشعر المحدث لا شعر العرب الأوائل هو الأنموذج الكبير الذى استوحوه فى أشعارهم وليس معنى هذا أنهم لم يعرفوا شعر العرب الأوائل، ولكن نماذج الشعر المحدث نالت القسط الأكبر من إعجابهم" (١)

ومن حسن حظ الأندلس أنها شهدت مع أخريات القرن الثانى الهجرى ظهور شاعر يصح أن يقال عنه إنه "أندلسى" بحق، بحياته، وبالروح الشعرى الذى نضج عنده ، وبطبيعة الموضوعات التى عالجها، هذا الشاعر هو يحيى بن

---

(١) د. إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى جـ ١ ص ٤٨

الحكم الغزال (١٥٠ - ٢٥٠هـ ، ٧٧٠ - ٨٦٤م)، وصدق من قال إن الشخصية الغزال سحرها الخاص، لايملك من يتعرف عليها إلا الإحساس بالإعجاب والمحبة والمعايشة ان لتلتقى فيه الشاعر الساخر فى الموقف العصيب، أو الدبلوماسى البارع الخفيف الظل ، فتعجب به، وتلمح فى سريرته النقاء والصفاء النفسى فتحبه وتطلع على من اعماقه ومحاوراته فتحسن أنك تعيش على مقربة منه، ويبقى السحر الخاص أبعد من أن تفسره علاقات المعايشة والمحبة والإعجاب، ثمة شئ آخر، شئ يشبه أن يكون "سرا" معلقا حاول الأندلسيون أن ينكوا طلاسمه فزادوه انغلاقا حين سموا الغزال: "عراف الأندلس"، وفى المعجم "ويقال للحازى: عراف، وللقناقن: عراف وللطبيب عراف، والحازى هو الذى يقرأ الأسرار ويدعى علم الغيب، والقناقن: المهندس الذى يعين مواضع الماء تحت الأرض، فأى ذلك كان الغزال حين أطلق عليه عراف الأندلس"؟ أسئلة تتوالى - وكثير منها بقى بلا جواب، عن هذا الشاعر الداهية، التى أضيف الى جوانبها" الأسرارية" أنه ارتحل الى العراق متنكرا ، فيما يقال،[1] وفى بعض الإشارات عنه مايكشف عن تطلعه لأن يكون وريث زعامة الشعر من بعد أبى نواس ، ثم نرى له عودة إلى بلاده، وسعى إلى الثراء يقوده إلى السجن، ورحلات وسفارات إلى "بلاد المجوس" - حكايات كثيرة عن هذا الشاعر الوسيم "ومن ثم لقب بالغزال" هى التى سوف نحاول التعرف عليها من خلال ما سلم من شعره، ذلك أن ديوانه قد فقد وماوصل الينا من أعماله ، لايكاد يبلغ ثلاثين أو أربعين صفحة.

ولسنا نريد أن نشغل طويلا بتفصيلات حياته أو بالأحرى بما وصل إلينا منها ويحسبنا أن نذكر أنه ينحدر من أصول عربية عريقة (من بنى بكر بن وائل) وأنه ولد فى مدينة جيان فى الجنوب الغربى من شبه القارة الأيبيرية، سنة ١٥٠ أو نحوها (وبعض المراجع تجعل تاريخ مولده سنة ١٥٤هـ) فى زمن

(١) مقدمة كتاب من صادق البنداق : يحيى بن الحكم الغزال (احسان عباس)

إمارة عبد الرحمن الداخل ، وتربى تربة دينية جيدة ، كما نشأ على "أخلاق الفروسية" كما تقول المصادر ، وقد عمر قرابة مائة سنة مما يدل على قوة بنيانه وعاصر خمسة من أمراء البيت الأموى هم عبدالرحمن الداخل وابنه هشام ثم الحكم وعبد الرحمن الثانى، وجانبا من إمارة الأمير محمد، وله فى ذلك - من أرجوزة -:

أدركت بالمصر ملوكا أربعة

وخامسا هذا الذى نحن معه

واكتسب خلال عمره هذا المديد قدرا موفوراً من الثقافة فى علوم اللغة والبلاغة والأدب والفلسفة والفقه والفلك ، كما يذكرون أنه كان يجيد الروميه - اللاتينية - واهتم بالتاريخ ، ويذكرون له فى هذا الصدد أرجوزته - التى ذكرنا شيئا منها - فى التأريخ لفتح الأندلس ، وقد اطلع عليها مؤرخ الأندلس ابن حيان ، صاحب "المقتبس" و "المتين" وأشاد بها بما يكشف عن أنها كانت جميلة طويلة عرض فيها أسباب الفتح والوقائع التى جرت بين المسلمين وأهل البلاد، وأطال الحديث عن أمراء هذا الصقع فى أسلوب جميل فيه عمق، وكانت شائعة متداولة بين أيدى الناس، وقد ضاعت هذه الأرجوزة"(١) ولعلها من أوائل الأراجيز التعليمية التاريخية فى الادب العرب ان لم تكن أولها جميعا، ذلك انها أسبق من أرجوزة ابن المعتز فى تاريخ البيت العباسى ، وأسبق بطبيعة الحال من أرجوزة ابن عيدربه فى التاريخ الأندلسى .

وفى بعض المصادر مايدل على أن الغزال حاول محاكاة القرآن الكريم فها هو القاضى عياض فى "الشفا" يقول: "وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس فى زمنه، فحكى أنه رام شيئا من هذا، فنظر فى سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها. قال: فاعترتنى منه خشية ورقة حملتنى

(١) نقلا عن تاريخ الفكر الأندلسى لبالانسيا ص ٥٦

على التوبة والإنابة" [١] ، ويبدو هذا غريبا على شخصية أندلسية بارزة مقربة من الملوك والأمراء ، وفى هذا التصرف ماقد يكشف عن سلوك فردى أو عن مسلك "أندلسى" وهو - من الناحية الأدبية - يدل دلالة قاطعة على أن الغزال كان مبرزا فى النثر تبريزه فى الشعر وايثارا للإيجاز نترك جانبا الأمور الزخرى المتعلقة بحياته ، والموضوعات المختلفة التى ترددت فى شعره لنتوقف فحسب زمام السمات الأساسية كما تتمثل فى شعر النقد الاجتماعى وفى حديث سفاراته ؛الدبلوماسية" ببلاد "المجوس"!

- شعر النقد الاجتماعى:

للحميدى فى جذوة المقتبس جملة تقول إن "الغزال رئيس، كثير القول ، مطبوع النظم فى الحكم والجد والهزل" [٢] وقال الضبى فى "بغية الملتمس" إن الغزال ؛جليل فى نفسه وعمله ومنزلته عن أمراء بلده [٣] وأجمل مؤرخ الأندلس فى العصر الحديث محمد عبدالله عنان ، الحديث عن هذه المكانة قائلا:

؛بالإضافة إلى صفة الشاعر الفيلسوف، والمفكر الحر، فقد عرف الغزال بصفة أجل وأخطر هى صفة الحكيم الناصح، والسياسى المحنك ، واشتهر بأصالة الرأى وحسن التدبير واللباقة والدهاء ، مع أنه لم يكن من رجال الدولة الرسميين ، لكن هذه الخلال كانت تفسح له فى بلاط قرطبة مكانة خاصة وتجعله موضع الثقة والتقدير" [٤]

ومن المهم أن نشير إلى هذه المكانة ونحن بصدد الحديث عن شعر النقد الاجتماعى عنده لأن الغزال - على ماسنرى - كان سليط اللسان أحياناً بحيث

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢٧٥/١ وراجع نفح الطيب جـ ٢ ص ٢٦١
(٢) جذوة المقتبس ، السابق
(٣) بغية الملمس رقم ١٤٦٧
(٤) تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ص ١٣٨

أوغر صدر عدد من الناس عليه ، ومن هؤلاء المغنى الشهير زرياب الذى انتقل من بغداد إلى قرطبة حيث احتل عند اميرها عبدالرحمن (الثانى)منزلة مرموقة، وأصبح زرياب شخصية اجتماعية من الطراز الأول فرضت على المجتمع ذوقها ونظرياتها فى الثياب وتناول الطعام وطبيعة الغناء، وربما أثارت هذه المكانة الغيرة فى نفس الغزال فأطلق أهاجيه فى زرياب (ولم يصل إلينا منها شئ) وأثرت هذه الأهاجى فى زرياب فشكاه إلى الأمير، فكان أن أصدر هذا قرارا بنفى الغزال، ونجحت الوساطة فى دفعه للعدول عن أمره هذا ، إلا أن الشاعر الكبير حز فى نفسه أن تؤول الأمور الى هذا الموقف ، فارتحل عن البلاد الى بغداد حيث بقى فيها زمنا وقد خاض الغزال معركة ضارية ضد بعض الفقهاء والقضاة المرتشين والمتعسفين ، وكان مما قاله وقد سأله قاضى قرطبة - معاذ بن عثمان - عن رأيه فى أحد من ولاهم أحباس قرطبة :

يقول لى القاضى معاذ مشاورا

ولى امرءا ، فيما يرى ، من ذوى الفضل

فديتك ، ماذا تحسب المرء صانعا؟

فقلت : وماذا يصنع الدب بالنحل؟

يدق خلاياها ويأكل شهدها

ويترك للذبان ماكان من فضل!

ويقول فى فقهاء عصره اذ رآهم وقد تضخمت ثرواتهم :

لست تلقى الفقيه إلا غنيا

ليت شعرى من أين يستغنونا

تقطع البر والبحار طلاب الر

(م) زق والقوم هاهنا قاعدونا

إن للقوم مضربا غاب عنا

لم يصب قصد وجهه الراكبونا

ولم يكن الغزال يتوانى عن توجيه النصح لذوى الجاه حتى يرعووا ، راسما صورة واقعية لما يؤول اليه حالهم بعد أن ينطوى عنهم بريق السلطان :

وإن أعطيت سلطانا

فحاذر صولة الزمن

أخو السلطان موصوف

بحسن الرأى والفطن

فساعة مايزاوله

رماه الناس باللعن

ويصبح رأيه المحمود

منسوبا الى الأفن

كأن بشاشة السلطا

ن حين تزول لم تكن !

وقد حاول هؤلاء الفقهاء النيل من الغزال ، مستغلين بعض ماجاء فى شعره من تساؤلات حائرة عن القضاء والقدر والواقع أن الغزال لم يكن ملحدا ولا متشككا. لقد كان مسلما وزاهداً ، ولو أنه فى بعض ساعاته نظم ماعن له عن النفس والروح بأسلوب يجوز أن نسميه اليوم بالأسلوب العلمى، ولكن دون أن تنعت الغزال بالتخلى عن الإيمان والشك بالله عز وجل"[1]

ويبلغ الغزال الذروة من الإجادة والنقد اللاذع فى مقطوعاته "الاجتماعية"

(١) د. البنداق ، السابق ص ٣٨

من قبيل قوله:

وخيرها أبوها بين شيخ
كثير المال أو حدث فقير
فقالت :خطتا خسف ومإن
أرى من حظوة للمستخير
ولكن إن عزمت فكل شئ
أحب إلى من وجه الكبير
لأن المرء بعد الفقر يثرى
وهذا لايعود إلى صغير

وقوله :

قالت أحبك ، قلت كاذبة
غرى بذا من ليس ينتقد
هذا كلام لست أقبله
الشيخ ليس يحبه أحد
سيان قولك ذا وقولك إن
(م) الريح نعقدها فتنعقد
أو أن تقولى النار باردة
أو أن تقولى الثلج يتقد

بل إن الرجل لم يتوان عن تناول ذاته من منظور السخرية والنقد اللاذع، الذى يتجسم فى قصيدته البائية "خرجت إليك وثوبها مقلوب" وتروى كتب الأدب على لسان تاجر أندلسى يدعى عتبة: "وجهنى الأمير الحكم وابنه عبدالرحمن إلى المشرق . وكان عبدالله بن طاهر واليا على مصر من قبل المأمون

عباسى، فلقيته بالعراق فسألنى عن قصيدة الغزال التى مطلعها:

خرجت إليك وثوبها مقلوب
ولقلبها - طربا إليك - وجيب

وعما إذا كتبت أحفظها فقلت نعم، فاستنشدينها فأنشدته إياها، فسر بها كتبها ، ونلت بها حظا عنده"[1] ، فهذه قصيدة يحفظها الناس ويطلبها عشاق الأدب فى مختلف الأقطار ، لأنها نموذج فريد فى نقد الذات على نحو لا يكاد يعرف عند سواه ، وهو القائل أيضا فى أرجوزة:

تسألنى عن حالتى أم عمر
وهى ترى ما حل بى من العبر
وما الذى يسأل عنه من خبر
وقد كفاه الكشف عن ذاك النظر
وماتكون حالتى مع الكبر
اربد منى الوجه وابيض الشعر
ونقص السمع بنقصان البصر
وصرت لا أنهض إلا بعد شر
لو ضامنى من ضامنى لم أنتصر
فانظر إلى واعتبر ثم اعتبر

(١) البنداق ، السابق ص ٦٢ وللقصيدة رواية أخرى تختلف فى كثير من الأبيات، ومطلعها فى الثانية:

لم أنس إذ برزت إلى لعوب
طربا وحيث قميصها مقلوب

فإن للحليم فيّ معتبر (١)

سفارة الغزال :

هذا موضوع استهوى المؤرخين ، وكتبوا فيه كثيرا فى محاولة للكشف عن غموضه ، خاصة وأن المصدر الأساسى حول هذه السفارة (كتاب ابن دحية الكلبى: المطرب فى أشعار أهل المغرب) متأخر عن الغزال بنحو أربعة قرون ، والمعضلة أيضا أن المادة التى يقدمها ابن دحية مضطربة وتخلو من التحديد المفترض فى المؤلفات ذات الطابع التاريخى .

ولن نوغل طويلا فى الاختلافات التى توقف المؤرخون من قدامى ومحدثين - بإزائها، ونبدأ بكلام ابن دحية لنورد منه القليل الذى يغنى عن الكثير :

"ولما وفد على السلطان عبد الرحمن (الثانى) رسل ملك المجوس تطلب الصلح بعد خروجهم من إشبيلية وايقاعها بجهاتها ثم هزيمتهم بها، وقتل قائد الأسطول فيها، رأى أن يراجعهم بقبول ذلك فأمر الغزال أن يمشى فى رسالته مع رسل ملكهم لما كان الغزال عليه من حدة الخاطر وبديهة الرأى وحسن الجواب والنجدة والإقدام، والدخول والخروج من كل باب ، وصحبته يحيى بن حبيب ، فنهض إلى مدينة شلب ، وقد أنشئ لهما مركب حسن كامل الآلة، وروجع ملك المجوس على رسالته ، وكوفئ على هديته ، ومشى رسول ملكهم فى مركبهم الذى جاؤوا فيه مع مركب الغزال"..

ثم إن الغزال سلم من هول تلك البحار، وركوب الأخطار ووصل أول بلاد

---

(١) انظر أيضا قوله :

قال الأمير مداعبا بمقاله ... جاء الغزال بحسنه وجماله

ابن الجمال من امرئ أربى على ... متعدد السبعين من أحواله

أين الجمال له، الجمال من أمرئ ... لقاه ريب الدهر فى أغلاله

المجوس.. وهى جزيرة عظيمة فى بحر المحيط ... وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة ثم يمضى تقرير ابن بدحية ، ليتحدث عن لقاء الوفد – وعلى رأسه الغزال – بالملك ، الذى دهش من ذكاء الشاعر العربى وحسن تخلصه ولباقته ووصفه بتلك العبارة: "هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهائهم "إو هكذا كان الغزال حقا، وفى بقية الحديث

"وللغزال معهم مجالس مذكورة، ومقاوم مشهورة، فى بعضها جادل علماءهم فبكتهم، وفى بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم . ولما سمعت امرأة ملك المجوس بذكر الغزال وجهت فيه لتراه ، فلما دخل عليها سلم ، ثم شخص فيها طويلا ينظرها نظرة المتعجب ، فقالت سله عن إدمان نظره لماذا هو ؟ ألفرط استحسان أم لضد ذلك ، فقال: ماهو إلا أنى لم أتوهم أن فى العالم منظرا مثل هذا.." الى آخر المواقف الغزلية التى أفاض ابن دحية فى ذكرها ، ونقل أخبارا مما رويت عن رفاقة فى الرحلة تدل على أن الملكة " أولعت بالغزال فكانت لا تصبر عنه يوما حتى توجه فيه، ويقيم عندها يحدثها بسير المسلمين واخبارهم وبلادهم ويمن يجاورهم ... وكان الغزال فى اكتهاله وسيما ، وكان فى صباه جميلا، ولذلك سمى بالغزال ، ومشى الى بلاد المجوس وهو قد شارف الخمسين وقد خطه الشيب.. ولكنه كان حسن الصورة وفى الحديث الذى مضى إشارة إلى :المجوس" الذين كانوا قد هاجموا إشبيلية ثم ارتدوا عنها مهزومين وأرادوا الصلح ، وهنا ينبغى تفسير تعبير "المجوس" على أنه يعنى "الفايكنج" أو النورمان الشماليين الذين كانت لهم بالفعل غزوة تحدث عنها ابن الأثير فى تاريخه "الكامل " – أخبار سنة .٢٣ وسماهم بدوره بـ "المجوس" لكن لسان الا بن ابن الخطيب يورد رأيا آخر بشأن هذه الحملة، إذ يقول بصدد عهد الأمير عبدالرحمن الثانى – ابن الحكم – :

" وفى أيامه خرجت مراكب المجوس فدخلت مدينة إشبيلية وقادس وشذونه واشبونة ثم انهزموا والمجوس هم الذين يسمونهم اليوم نصارى قشتالة

بالانقليش وأهل المشرق بالفرنج وبالانكليز، ومستقر ملكهم بجزيرتين عظيمتين."

وإذن فهناك رأيان بشأن المجوس: أن يكونوا سكان الشمال أو أن يكونوا الإنجليز ، وانعكس هذا الخلاف على كتابات المستشرقين والمؤرخين المحدثين ، وكان من رأي الفريق الأول أن ملك المجوس المعنى هو هوريك ملك الدنمرك "بينما يذهب أصحاب الرأى الثانى (ومنهم المستشرق إلن) الى القول بأن المعنى هنا ملك ايرلندا تورغايس

وتنبغى الإشارة إلى طرف ثالث من أطراف النزاع، ذلك أن التاريخ تحدث عن سفارة تمت انذاك بين أمير قرطبة – عن الرحمن الثانى – وبين يتوفيلس إمبراطور بيزنطة ، والذى كان يسعى إلى تغذية الصراع بين العباسيين وبين أمراء قرطبة الأمويين حتى لا تتجه كل القوى العباسية ضده وحده وكان ذلك فى سنة ٢٢٥ هـ على وجه التحديد (٨٣٦م) وقد أورد ابن حيان فى "المقتبس" أخبار هذه الفارة، ونقلها عنه المقرى فى نفح الطب حيث يأتى "أن الأمير عبد الرحمن" بن الحكم المرواني وجه شاعره الغزال إلى ملك الروم، فاعجبه حديثه، وخف على قلبه .. وكان يوما جالسا عنده ، وإذا بزوجة الملك قد خرجت وعليها زينتها وهى كالشمس الطالعة حسنا فجعل الغزال لا يميل طرفه عنها ..."[١]

وللمستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال رأى يرجح فيه أن رحلة الغزال كانت إلى القسطنطينية وأما الرحلة إلى بلاد النورمان (المجوس) فنسجها الخيال الشعبى ، ولم يكن لها وجود فعلى ، إلا أن هناك اتجاها آخر يتحدث عن سفارتين أولاهما إلى بيزنطة والثانية الى ببلاد النورمان و وذلك فى محاولة للتوفيق بين ماجاء عن ابن حيان ثم ابن دحية .

وقد ورد اسم الملكة فى شعر الغزال على أنه (نود) ويصر بروفنسال على

(١) نفح جـ ٧ ص ٣٧٢

أن يجعلها: تود لأن زوجة الأمبراطور البزنطى كان اسمها انذاك تودورا ، بينما يرى غيره أن اسم (نود) يمكن أن يكون تحويرا عن اسم نورمانى مألوف عندهم

وأيا كان الأمر فإن الشعر الذى خلفه الغزال فى المملكة الأوروبية يمثل حالة خاصة لا يكاد يوجد لها نظير فى الشعر العربى ، مثل هذه الأبيات :

كلفت ياقلبى هوى متعبا
غالبت منه الضيغم الأغلبا
انى تعلقت مجوسية
تأبى لشمس الحسن أن تغربا
أقصى بلاد الله فى حيث لا
يلفى إليها ذاهب مذهبا
يانود يارود الشباب التى
تطلع من أزرارها الكوكبا
يابأبى الشخص الذى لا أرى
أحلى على قلبى ولا أعذبا
إن قلت يوما إن عينى رأت
مشبهة لم أعد أن أكذبا
قالت : أرى فوديه قد نورا
دعابة توجب أن أدعبا
قلت له : ماباله إنه
قد ينتج المهر كذا أشهبا
فاستضحكت عجبا لقولى لها
وإنما قلت لكى تعجبا!

وهذا الشعر رواه ابن دحية وقال إن الغزال ارتجله بين يدي الملكة عندما سألته - مداعبة - عن عمره ، فرد عليها مداعبا كذلك : - عشرون سنة ، فأبدت دهشتها من الجواب ، فما كان منه إلا أن قال هذه الأبيات على البديهة!

ولسنا مطالبين بأن نصدق ماحيك من حكايات حول بعض شعر الغزال لكن الشئ المؤكد أننا نحس فى شعره بذلك الوهج الناضر التلقائى ، الذى يواكب مسيرة الزمن - مهما طال الزمن - فلا يذبل أبدا ، وكان ابن دحية مصيبا عندما علق على الأبيات السابقة بقوله "إن هذا الشعر لو روى لعمر بن أبى ربيعة أو لبشار بن برد أو لعباس بن الأحنف ومن هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له ، وإنما أوجب أن يكون ذكره منسيا إذ كان أندلسيا ، وإلا فماله أخمل وماحق مثله أن يهمل ؟"

وفى المقطوعات التى مرت يتبدى فن الغزال فى قدرته على أن يرسم ببساطة المواقف ويحدد لها الشخصيات ويجعلها تنطق بما يلائم الموقف ، ويصنع فى عفوية عجيبة "تراچيديا" مكتملة الأبعاد ، ولسنا نعنى أن الشعر القصصى لم يكن معروفا قبله، ولكن مانقصده أنه لم يكن بكل هذه الحيوية والتركيز والانسجام بين المواقف والصور والجمل والإيقاع .

شعراء عصر الإمارة والفتنة البربرية
(القرن الرابع وأوائل الخامس)

إلى أى حد تتبع قوة الأدب قوة الدولة التى يبزغ فى زمنها؟ إن هذا التساؤل قد يبدو ضيئل الشأن أحيانا، لكنه - بالنسبة للأندلس - يستمد أهميته الخاصة، لأن "الدولة" هناك مرت بمراحل عجيبة من ارتفاع وانحدار وارتفاع، ولم تخضع هذه التحولات الحادة لمنطق واضح ، ولم يخضع الأدب بدوره لهذا التأرجح بين القمة والحضيض...

ونحن مضطرون ، فى هذا العرض الموجز، لأن نغفل شعراء لهم شأن مثل مؤمن بن سعيد، الملقب بـ "دعبل الأندلس" لكثرة شعره فى الهجاء، ومن جيد شعره قوله فى الدرهم:

تيمنى حبك يادرهم
فالقلب من برح الهوى مغرم
يامشبه النجم إذا مابدا
منك استعارت حسنها الأنجم (١)

وأيضا محمد بن يحيى القلفاط، وعده الحجارى من نحاة قرطبة المعروفين بالإقراء ، وهو بدوره معدود ضمن الهجائين ، وقد ذكر المقرى أنه كان صديقا حميما لابن عبد ربه ، ثم انقلبت المودة إلى خصام، وتهاجيا بعد عمر من المدائح والمودة!

(١) انظر عنه المغرب جـ ١ ص ١٣٤ ومراجعه السابق جـ ١ ص ١١١ والمقرى جـ ٢ ص ١٩٩ الخ

ابن عبد ربه : (٢٤٦ - ٣٢٨)

ولابد ، على كل حال، من وقفة أمام أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد" ، ذلك الكتاب الموسوعى الضخم الذى صنع شهرته ، وربما قلل من شأنه باعتباره شاعرا ، ذلك أنه وجه معظم الاهتمام إلى هذا التصنيف البارع ، فضاع ابن عبد ربه الشاعر وسط ذلك .

وقد اختلفت الآراء حول هذا الشعر ، فقد عده د. أحمد ضيف من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء" وكلام الأستاذ أحمد أمين عنه يشبه ذلك ، فقد اعتبره مجرد صدى للمشارقة ، وأنه كان "يجتهد ماالستطاع أن يأخذ معانيهم ويزيد عليها ويختار فى كل نوع من الشعر إماما من المشارقة، فطورا إمامه صريع الغوانى، وطورا أبو العتاهية وغيرهم ، ولم يتحرر تحررا كافيا ، ولم يصغ الى قلبه قط"[١] بينما رفع آخرون من قدر شعره، ورأوا فى كثير مما وصل الينا منه صدقا فى الإحساس وقوة فى التعبير وقد كان القدماء يرون فيه "حجة الأدب، وان له شعرا انتهى منتهاه وتجاوز سماك الإحسان وسهاه [٢] وعده ابن سعيد "إمام أهل الأدب بالمائة الرابعة وفرسان شعرائها فى المغرب كله"[٣] وذكر الحميدى أن ديوانه يقع فى نيف وعشرين جزءا من جملة ماجمع للحكم بن عبدالله ،

---

(١) راجع أحمد ضيف فى : بلاغة العرب فى الأندلس ص ٩١ ، وأحمد أمين : ظهر الإسلام ، ١٢٤/٣، ويراجع بصورة خاصة: د. أحمد هيكل فى : الأدب الأندلسى ، ص ٢٢٩

(٢) ابن خاقان : قلائد العقيان

(٣) عنوان المرقصات والمطربات ٥٦

لكن هذا الديوان ضاع مع ماتبدد من تراث أهل الأندلس، ولم تبق منه إلا أشتات متفرقات ، جمعت فيما أطلق عليه اسم "ديوان[1] وإذا أسقطنا المنظومات (في التاريخ وفي العروض) فإن الشعر المتبقى لا يكاد يتجاوز الألف بيت ومنها قوله :

هلا ابتكرت لبين أنت مبتكر
هيهات يأبى عليك الله والقدر
مازلت أبكى حذار البين من كمد
حتى رثى لى فيك الريح والمطر
يابرده من حيا مزن على كبد
نيرانها بغليل الشوق تستعر
آليت ألا أرى ولا قمرا
حتى أراك فأنت الشمس والقمر

وقوله :

يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا
ورشا بتقطيع القلوب رفيقا

(١) نشره محمد التونجي بعنوان : ديوان ابن عبد ربه ، بيروت ١٩٧٧ ، كما نشره د. محمد رضوان الداية في بيروت أيضا سنه ١٩٧٩ ، وكان شعر ابن عبد ربه : جمع وتحقيق ودراسة موضوعا لرسالة ماجستير أعدها بجامعة القاهرة موسى رزق ريحان ، سنه١٩٧١ ، وراجع عن ابن عبد ربه دراسة د. جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده ط ٢، بيروت ١٩٧٩.

ماإن رأيت ولا سمعت بمثله
دراً يعود من الحياء عقيقا
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
أبصرت وجهك فى سناه غريقا
يامن تقطع خصره من رقة
مابال قلبك لا يكون رقيقا؟

وعارض قصيدة صريع الغوانى:

أديرا علىّ الراح لاتشربا قبلى
ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى

بأبيات من جيد ماقال ، أولها:

أتقتلنى ظلما وتجحدنى قتلى
وقد قام من عينيك لى شاهدا عدل
أطلاب ذحلى ليس بى غير شادن
بعينيه سحر فاطلبوا عنده ذحلى
أغار على قلبى فلما أتيته
أطالبه فيه أغار على عقلى
بنفسى التى ضنت برد سلامها
ولو سألت قتلى وهبت لها قتلى
إذا جئتها صدّت حياء بوجهها
فتهجرنى هجرا أحلى من الوصل

وإن حكمت جارت على بحكمها

ولكن ذاك الجور أشهى من العدل!

فلما تقدمت السن بابن عبد ربه عزف عن هذا الضرب من الشعر الغزلى، وكتب عددا من "الممحصات" وهى قصائد فى الزهد يكفر بها عما كان قد قاله فى الغزل والخمريات والمجون، ومن هذا النمط قوله :

أتلهو بين باطية وزير

وأنت من الهلاك على شفير

فيا من غره أمل طويل

يؤديه إلى أجل قصير

أتفرح والمنية كل يوم

تريك مكان قبرك فى القبور

هى الدنيا فإن سرتك يوما

فإن الحزن عاقبة الغرور

ستسلب كل ماجمعت منها

كعارية ترد إلى المعير

وتعتاض اليقين من التظنى

ودار الحق من دار الغرور

ولنا أن نسلم بأن ابن عبدربه كان غزير الشعر ، متنوع الموضوعات وقد عاش الرجل قرابة ثمانين سنة، شرّقت فيها شهرته وغرّبت حتى إن الفتح بن خاقان فى "مطمح الأنفس" يسوق نقلا عن أحد الحجاج الأندلسيين (الخطيب أبى الوليد بن عباد) أنه "حج، فلما انصرف تطلع إلى لقاء المتنبى واستشرف، ورأي

أن لقياه فائدة يكتسبها ، وحلة فخر لا يحتسبها، فصار إليه فوجده فى مسجد عمرو بن العاص، ففاوضه قليلا ثم قال: انشدنى لمليح الأندلس ، ويعنى ابن عبد ربه فأنشده : (يالؤلؤا يسبى العقول أنيقا) ... فلما أكمل إنشاده استعاده منها، وقال : ياابن عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبوا"!

وليس فيما سلم من ديوان ابن عبد ربه ما يجعله يحتل تلك المكانة المرموقة فى الشعر ، ولعل الرأى الصحيح أن "أسلوبه الشعرى بصفة عامة أصيل سهل التناول إلا أنه غير عميق الفكر ، ولا دقيق الصورة ولا خصب المعانى، مع نغمة موسقية وحاسة فنية تعطى الدارس دليلا علي وفرة التجربة وأصالة الشاعرية وطول النفس الشعرى وتنوع اتجاهاته"[1] ، والملاحظ أن ابن عبد ربه اكثر من معارضه المشارقة، ولعل هذا من مظاهر المحافظة؛ التى غلبت على آرائه وجعلته يسير فى ركاب مدرسة مسلم بن الوليد وأبى تمام.

ومن غريب الأمر أن اسمه ذكر فى "الذخيرة" وغيرها على اعتبار أنه من السباقين فى اختراع الموشحات ، وهذه قضية تناقش فى غير هذا المكان!

ابن دراج القسطلى (متنبى الأندلس) ٣٤٧هـ - ٤٢١ هـ:

هو أحمد بن محمد بن العاصى ...ابن دراج ، وكنيته أبو عمر ، ينحدر من أسرة بربرية (من صنهاجة) ذات رئاسة فى قسطلة، إلى حد أن هذه البلدة التى تقع الآن فى البرتغال تذكر أحيانا باسم قسطلة دراج، ويشير د. محمود على مكى - ناشر ديوان ابن دراج ، وعليه عولنا فى هذه الصفحات ، إلى أن

---

(١) المطمح (ط. شوابكة) ص ٢٧٣

(٢) ع.زمامة: الشاعر الأندلسى ابن عبد ربه القرطبى فى : المورد المجلد السابع ١٩٧٧ ص ٤٢

أثر هذه "البربرية" غير واضح فى حياة ابن دراج أو فى شعره ، وتعليل ذلك أن آل ابن دراج دخلوا الأندلس مع الفتح فتأقلموا تماما حتى أصبحوا أندلسيين خالصين ، ولعل من أدلة ذلك أن ابن دراج لم يجد غضاضة فى أن يهجو الزعيم البربرى زيرى بن عطية المغراوي عندما أعلن العصيان ضد المنصور العامري، وإذا كانت جل مدائحه انصرفت للمنصور وأبنائه فإن شعره بعدهم اتجه الي هؤلاء الملوك الذين كانوا علي عداء مع البربر ، ولم يقصد أمراء البربر زمن ملوك الطوائف باستثناء الحمدونيين .

ولا يعرف شئ ذوبال عن فترة النشأة فى حياة ابن دراج، وأول شعر معروف له قاله وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره ، فى مدح المنصور العامرى، أى سنه ٣٨٢ وهى حافلة بالنضج والحيوية، مما يدل على أنها مسبوقة بعشرات القصائد ، وأولها:

أضاء لها فجر النهى فنهاها

عن الدنف المضنى بحرّ هواها

وضللها صبح جلا ليلة الدجي

وقد كان يهديها إليّ دجاها

والقصيدة ، كما يذكر الحميدى، معارضة لأبى العلاء صاعد البغدادى، الشاعر اللغوى الذى هاجر إلى الأندلس ، وهى ، كما مر، فى المديح، وهكذا يأتى معظم محتوى ديوان ابن دراج ، الذى لقبه الأندلسيون بـ" متنبى الأندلس" لا لأنه شاعر مدح فحسب، بل لأنه أيضاً شاعر فحل ينتمى إلى تلك المدرسة العريقة التى انبتت فى المشرق شعراء من طراز أبى تمام والمتنبى ، وأبدعت فى المغرب تلك الشاعرية الفذة التى أعطت جل طاقتها لفن المديح.

لكن الموضوع المدحى ، عند ابن دراج، لايعدو أن يكون مجرد موضوع أو زاوية ضمن زوايا أخرى وعلى سبيل المثال فإن القصيدة السابقة تقع فى

ثلاثة وخمسين بيتا (وابن دراج هو أول شاعر أندلسى يصل إلينا ديوانه ، وليس منتخبات منه) استأثر منه المدح بثلاثة عشر بيتا بينما حفلت بوصف أحوال الترحـال وأهواله والحـديث عن هموم الذات وآلام البعاد عن الأهل والأحباب :

ولله عزمى يوم ودعت نحوه
نفوسا شجانى بينها وشجاها
وربةُ خدر كالجمان دموعها
عزيز على قلبى شطوط نواها
وبنت ثمان مايزال يروعنى
على النأى تذكارى خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جد جده
منوطا بحبلى عاتقى يداها

حتى يصل إلى مقطع المديح ليسكب فيه كل ماستطاع أن يضفيه على المنصور العامرى من سجايا :

لدى ملك إحدى لواحظ طرفه
بعين الرضا حسب المنى وكفاها
هو الحاجب المنصور والملك الذى
سعى فتعالى جده فتناهى
سليل الملوك الصيد من سرو حمير
توسط فى الأحساب سمك ذراها
لباب معاليها وإنسان عينها
وبدر دياجيها وشمس ضحاها

وأنت تقلب فى ديوانه الضخم الذى يقع فى أكثر من ستمائة صفحة فلا تكاد تظفر بغير المدائح أما الغزل فهناك مقطعات قليلة منها قوله فيمن خانت عهده :

سأمنع قلبى أن يحن اليك
وأنهى دموعى أن تفيض عليك
أغدرا ولم أغدر وخونا ولم أخن
لقد ضاع لى صدق الوفاء لديك
بفعلك عيب الحسن عندى وإن غدت
مهاة النقا والشمس مشتبهيك
أصد بوجهى عن سنا الشما طالعاً
لأن صار منسوب الصفات إليك
وأصرف عن ذكراك سمعى ومنطقى
ولو نازعتنيها حمامة أيك
ولو عن لى ظبى الفلا لاجتنبته
لتمثال عينيك وسالفتيك

وهذه القطعة مما قاله فى زمن الصبا، أما بعد ذلك العهد فإن غزله لا ينم عن فورة مشاعر، والخلاصة أن الغزل نادر فى ديوانه، وعادة مايأتى فى صدر القصائد مثل قوله:

غرام ولاشكوى وعتب ولاعتبى
وشوق ولا لقيا وصبر ولا عقبى
وكم حن معشوق وأعتب عاشق
وقلبك ماأقسى وقلبى ماأصبى

سأصدع أحناء الضلوع بزفرة

تطير إليك القلب لو أن لى قلبا

وأسبل آماق الدموع بعبرة

وإن حرمت منك المودة فى القربى[1]

وقد تأتى مقطعات فى الوصف (ممزوجة عادة بالمديح) مثل قوله فى النرجس:

شكلان من راح وروضة نرجس

يتنازعان الشبه وسط المجلس

متباهيين تلونا بتلون

متبارين تنفسا بتنفس

لكن هذى بين أحشاء الفتى

نار وهذا جنة للأنفس

فكأنها من حد سيفك تلتظى

وكأنه من طيب خلقك يكتسى

ولكن شاعرية ابن دراج فى مجموع شعره المدحى أقوى مما تتبدى فى هذه المقطوعات الوصفية والتى لا يستبعد أن تكون قد قيلت ارتجالا، ومن ثم خلت من العمق ومن أصالة التعبير [2]

ولكن كل هذه موضوعات ثانوية عنده، لأن الرجل قد فنى فى شعر

(١) راجع أيضا مرثية أخرى فى الديوان ص ١١٩

(٢) راجع الديوان ص ٣٥ ومابعدها (فى روضة سوسن، فى البهار، فى النرجس ، فى الخيرى ، فى الورد ، فى السوسن وفى النيلوفر)

المديح إلى أبعد مدى ، ولولا أن لهذه المدائح قيمة تاريخية كبرى لضعف شأن ابن دراج، إذ إن كثيرا منها اتصل ببطولات المنصور العامرى وحملاته الموفقة على ممالك إسبانيا النصرانية، وأرخ لهذه الفترة العجيبة من عمر "قرطبة" حاضرة الخلافة، وهى تتحول من حاضرة لدولة إسلامية مترامية الأطراف إلى مجرد إمارة صغيرة بعد أن انفرط عقد الأندلس، وأقبل ملوك "الطوائف" يصولون ويجولون ... وأما من حيث الفن فبحسبنا أن نشير الى قوله :

دعى عزمات المستضام تسير
فتنجد فى عرض الفلا وتغور
لعل بما أشجاك من لوعة النوى
يعز ذليل أو يفك أسير
ألم تعلمى أن الثواء هو التوى
وأن بيوت العاجزين قبور
ولم تزجرى طير السرى بحروفها
فتنبئك إن/فهى سرور
تخوفنى طول السفار وإنه
لتقبيل كف العامرى سفير
دعيني أرد ماء المفاوز آجنا
إلى حيث ماء المكرمات نمير
فإن خطيرات المهالك ضمن
لراكبها أن الجزاء خطير

وهى قصيدة نسجت على غرار قوله أبى نواس
أجارة بيتينا أبوك غيور
وميسور مايرجى لديك عسير

فكيف جاز لابن دراج أن يعارض واحدة من أجمل ماكتب فى الشعر العربى على مر العصور [1]، الواقع أن شاعرنا حاول أن يقدم " تفصيلات" لموقف الوداع، لم يتطرق إليها أبو نواس، فحالفه التوفيق وهو يصف فراق الزوجة وطفله الوليد واعتصار الوجدان ولوعة الأسى :

ولما تدانت للوداع وقد هفا

بصبرى منها أنة وزفير

تناشدنى عهد المودة والهوى

وفى المهد مبغوم النداء صغير

عيىٌ بمرجوع الخطاب ولفظه

بموقع أهواء النفوس خبير

وطار جناح الشوق بى وهفت بها

جوانح من ذعر الفراق تطير

عصيت شفيع النفس فيه وقادنى

رواح لتدآب السرى وبكور

واستطاع ابن دراج فى بعض مقاطع هذه الرائية أن يصل إلى درجة رفيعة من إضفاء الحيوية على الأبيات وتقديم لوحات فريدة فى صفائها وروعة صورها:

ولو بصرت بى والسرى جل عزمتي

وجرسى لجنان الفلاة سمير

---

(١) يذكر ابن خلكان فى الوفيات جـ ١ ص ١٣٥ ط إحسان عباس أن "المنصور بن أبى عامر أمره أن يعارض قصيدة أبى نواس.."

وأعتسف الموماة فى غسق الدجى

وللأسد فى غيل الغياض زئير

وقد حومت زهر النجوم كأنها

كواعب فى خضر الحدائق حور

ودارت نجوم القطب حتى كأنها

كؤوس مها والى بهن مدير

وقد خيلت طرق المجرة أنها

على مفرق الليل البهيم قتير

وثاقب عزمى والظلام مروع

وقد غض أجفان النجوم فتور

لقد أيقنت أن المنى طوع همتى

وأني بعطف العامرى جدير

والقصيدة طويلة نسبيا (وعادة مايطيل ابن دراج فى مدائحه التى يتجاوز بعضها المائة بيت) ، ومع ذلك فإنها لوحات تترى وآهات تتفجر عن صدر مكلوم ومعان تنساب فى رصانة وعمق فترسم صورة لملك اجتمعت فيه كل صفات النبل والفروسية والعدل والجود، وتخلب عبارة ابن دراج اللب بمتانة سبكها واستيعابها الدقيق للمعنى ، وقد يستعمل فيها الغريب أحيانا - على نحو ماكان يصنع أبو تمام أو المتنبى - لكنه الغريب الذى يتفق والمعنى الذى يريد ، مثل قوله فى وصف أهوال الترحال:

ولو شاهدتنى والصواخد تلتظى

على ورقراق السراب يمور

أسلط حر الهاجرات إذا سطا

على حر وجهي والأصيل هجير

وأستنشق النكباء وهي بوارح

وأستوطئ الرمضاء وهي تفور

وللموت في عيش الجبان تلون

وللذعر في سمع الجرئ صفير

لبان لها أني من الضيم جازع

وأني على مض الخطوب صبور

والحق أن ديوان ابن دراج يأتيَ حافلا بأمثال هذه الأبيات التى بلغت ذروة التناسق بين المعنى والأداء مما جعله يعد من بين "الشعراء الفحول"، ونقل ابن بسام في ؛الذخيرة" عن ابن حيان أنه كان ؛سباق حلبة الشعراء العامريين وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين " كما نقل عن ابن شهيد قوله "والفرق بين أبى عمر وغيره أن أبا عمر مطبوع النظام شديد أسر الكلام ، ثم زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب ، وماتراه من حوكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجيشة بحره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طلقه في الوصف وبغيته للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره""(١) وهذا قليل من كثير مما قيل فى هذا الشاعر المبدع الكبير(٢)

(١) الذخيرة ط. إحسان عباس جـ١ من القسم الاول ص ٦١

(٢) راجع عنه أيضا : الجذوة ١٠٢ ، والمغرب جـ ٢ ص ٦٠ يتيمة الدهر جـ٢ ص ١٠٤ ، الوافى جـ٨ ص ٤٩ الخ

يوسف بن هارون الرمادى (أبو عمر).

هذا شاعر أندلسى من طبقة الفحول ، أوتى فى زمنه القسط الأوفر من الشهرة، ولكنه - فى عصرنا الحديث - لم ينل إلا مكانة ثانوية بسبب ضياع ديوانه، أو بالأحرى دواوينه، بحسب ماسنرى ...

وفى اسم "الرمادى" آراء كبيرة، نجملها فيماياتى:

- يقول ابن بشكوال فى "الصلة":

"كان يلقب أبى جنيش فنقل إلى الرمادى"

- ويقول الحميدى إن المرجح أن أحد آبائه من رمادة، موضع بالمغرب، وأيد ابن خلكان هذا الرأى ونقل عن ياقوت فى "المشترك وضعا والمختلف صقعا" أن هناك عشرة مواضع تسمى الرمادة، منها رمادة المغرب التى ينسب لها شاعرنا

- أما ابن سعيد فنقل عن الحجارى أن الرمادى من قرى شلب

- وقد ذكر مؤرخ الأندلس ابن حيان اسمه فى أكثر من موضع ، وسماه فى مرة الشاعر "الرمادى"(وفى بعض) آخر: يوسف بن هارون البطليوسى، الشاعر المعروف بأبي جنيش واختلفوا فى معنى (أبى جنيش) "وفى رأى جونثالث(بلانثيا ، مؤلف "تاريخ الفكر الأندلسى"، أن الرمادى) لا تعدو أن تكون الصيغة العربية لكنيته بالإسبانية الدارجة (أبو جنيش) إذ إن الجنيش Cenisa بالاسبانية تعنى الرماد وكأن نعته بهذه اللغة يكون El-Cenicento أما هنرى بيريس فرجح أن يكون منشأ التسمية امتهانه تجارة الرماد.

- مما يضاف إلى مشكلة الاسم قول ابن سناء الملك عن الخرجة فى

الموشحة : وقد تكون الخرجة عجمية اللفظ بشرط أن يكون لفظها أيضا فى العجمى [illegible] "قطليا ورماديا زطيا" وفسر "الرمادى" هنا بالشعبى ...

- ومع هذا كله فالمتفق عليه أن شاعرنا عربى الأرومة، إذ إنه ينسب إلى كندة...

وقد ولد الرمادى فى أوائل القرن الرابع الهجرى، وتوفى سنة ٤٠٣هـ أى أنه عاصر فترة اضطراب كيان الدولة الأموية بالأندلس ، ثم ارتقائها للذروة بعد أن دان الأمر لعبد الرحمن الناصر ، وقضى على الفتن وعم الأمن والرخاء ، وقد شرع الناصر - سنه ٣٢٥ فى بناء قصر "الزهراء" على مقربة من قرطبة، وفى زمنه وفد أبو علي القالى الى الأندلس ، سنة ٣٣٠هـ فاحتفى به أهل البلاد أيما احتفاء ، وكتب الرمادى فيه واحدة من أشهر قصائده استهلها بمقطع غزلى يقول فيه :

من حاكم بينى وبين عذولى
الشجو شجوى والعويل عويلى
أقصر فما دين الهوى كفر ولا
أعتد لومك لى من التنزيل
عجبا لقوم لم تكن أذهانهم
لهوى ولا أجسادهم لنحول
دقت معانى الحب عن أفهامهم
فتأولوه بأقبح التأويل
فى أى جارحة أصون معذبى
سلمت من التعذيب والتنكيل
ان قلت فى عينى فثم مدامعى
أو قلت فى قلبى فثم غليلى

لكن جعلت له المسامع مسكنا

وحجبته عن عذل كل عذول

وبعد هذا المقطع الغزلي يأتى مقطع آخر فى الحديث عن الترحال ووصف جواده والحديث عن الصيد والرياض ونحو ذلك مما ترددت أصداؤه طويلا فى الشعر العربى حتى يفضى به القول إلى القالى:

قسه إلى الأعراب تعلم أنه

أولى من الأعراب بالتفضيل

حازت قبائلهم لغات جمعت

فيهم وحاز لغات كل قبيل

فالشرق خال بعده، فكأنما

نزل الخراب بربعه المأهول

جمعوا بغيبته وموت شيوخه

عنهم ولما يظفروا ببديل

مذ جاءهم وهم بليل همومهم

منه فصاروا فى دجى موصول

فكأنه شمس بدت فى غربنا

وتغربت فى شرقهم بأفول

ياسيدى هذا ثنائي لم أقل

زورا ولا عرضت بالتنويل

من كان يأمل نائلا فأنا امرؤ

لم أرج غير القرب فى تنويلى

ولاغرابة ، والقصيدة تتدفق بهذه القوة الآسرة الساحرة ، أن توليها

المصادر قسطا موفورا من الاهتمام، فنرى اقتباسات منها فى عشرات الكتب المشرقية مثل اليتيمة والوفيات والوافى ومسالك الأمصار والشذرات ، وفى العديد من المؤلفات والمجموعات الأندلسية والمغربية مثل المطمح والمعجب والنفح ورفع الحجب [(١)] الخ ..

ومما يذكر عن مرحلة شباب الرمادى أنه كان عكوفا على اللهو ، وسوف يقوده ذلك إلى السجن - فى عهد الحكم (المنتصر) - وفى "المقتبس" أنهم قبضوا على كثير من المجاهرين بالمجون وأودعوا السجن "فكان ممن ألحف الطلب لهم والبحث عليه من مستخفيهم يوسف بن هارون البطليوسى الشاعر المعروف بأبى جنيش زعيمهم، غاب مدة والطلب له حثيث، والنداء عليه متصل ، فلما أيقن أن البقاع لا تطيقه والأرض لا تحمله ، أهدى نفسه كالعبد مستبسلا لحتفه"

وفى بقية الخبر أن الشاعر اتجه إلى السجن بالزهراء فأسلم نفسه وبقى فى محبسه حتى لان له الخليفة فأطلق سراحه بعد أشهر ، وكان ذلك سنه ٣٦١ ، الا أنه لم ينعم بالحرية طويلا إذ سرعان ماقبض عليه ثانية بتهمة الإساءة للخليفة إذ شاع أنه هجاه بقصيدة - أو قصائد - لم يسلم منها إلا بيت يتيم يقول فيه:

يولى ويعزل من يومه

فلا ذا يتم ولا ذا يتم

والمرجح أن مقامه طال فى السجن بدليل ماذكروا من أنه "عمل فى السجن كتابا سماه: كتاب الطير، فى أجزاء ، وكله من شعره، وصف فيه كل

---

(١) أنظر ملاحظات د. أحمد هيكل: الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٢٩٢ حول هذه القصيدة

طائر معروف ، وذكر خواصه وذيل كل قطعة بمدح ولى العهد هشام، مستشفعا إلى أبيه فى إطلاقه"، وقد ضاع كتاب الطير هذا ، كما ضاع ديوان الشاعر ولم يسلم من شعره إلا قدر محدود - نحو مائه - صفحة، (جمعها ماهر زهير جرار) لاتوجد فيه عن الطير إلا بضع مقطوعات ، منها قوله فى حمامة:

أذات الطوق فى التغريد أشهى

إلى أذنى من الوتر الفصيح

إذا هتفت على غصن رفيع

بنوح أو على غصن مريح

تضم عليه منقارا ونحرا

كما خر الفجيع على الضريح(١)

وبيتان فى حمامة هما :

أحمامة فوق الأراكة بينى

بحياة من أبكاك ماأبكاك؟

أما أنا فبكيت من حرق الهوي

وفراق من أهوى . أأنت كذاك؟

وأما السجن فإن لدينا له أكثر من نص مما كتبه وهو معزول عن الدنيا ، بعيد عما اعتاد عليه من لهو وخمر ونزق ، منها قصيدته "لك الأمن من شجو يزيد تشوقى"، وفيها يقول:

---

(١) يضم كتاب التشبيهات ثلاثة عشر بيتا فى البازى.

أعينى إن كانت لدمعك فضلة

تثبت صبرى ساعة فتدفقى

فلو ساعدت قالت أمن قلة الأسى

تبقت دموعى أم من البحر تستقى

وله من غيرها:

نسائلها هلا كفاك نحوله

ونصبته أو دمعه وهموله

تكنفه همان : شجو وصبوة

فبلغ واشيه المنى وعذوله

فإن يستبن فى وجهه هم سجنه

فقد غاب فى الأحشاء عنك دخيله

معنى بكتمان الحبيب وحبه

فان يقتل الكتمان فهو قتيله

وقد راعنى سجن فشط ولودنا

من السجن لم يسهل على دخوله

والذى يطالع فى شعر الرمادى - أو بالأحرى ماوصل منه - يجد فيه مقطوعات كثيرة فى الغزل والخمر ووصف الزهور ومناظر الطبيعة ، ولكنه لايجد أثرا واضحا لمن اتصل بهم من خلفاء وحجاب وأمراء وحجاب وتحدثنا كتب التاريخ إنه "كان مختصا بأبى الحسن المصحفى منضويا إليه" كما يقول المراكشى فى "المعجب" ، وقد تمت نكبة المصحفى سنه ٣٦٧هـ وقبض على السلطة غريمه ابن أبي عامر (المنصور العامري) وعندئذ يتحول إليه الرمادى ليصبح من مداحه - كما يقول ابن سعيد - ومع ذلك فإننا لا نملك شيئا مما قاله فى المنصور ،

الذى مر بنا أمر بأسه وحنكته وتفانيه فى الغزو والجهاد، والمراكشى فى "المعجب " يتحدث عن هجاء للرمادى فى المنصور (بتأثير من المصحفى) فلما فقد هذا نفوده تعرض شاعرنا المعقاب والنفى ، ثم بدلت العقوبة إلى الاكتفاء بأن نودى بمقاطعته "فأقام أبو عمر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة فى آخر أيام المنصور"

وهذا الخبر ينقضه أن نكبة المصحفى كانت سنة ٣٦٧، فى حين إن الرمادى امتدت به السن إلى أن شهد الفتنة البربرية، أى أنه عاش سنوات بعد وفاة المنصور العامرى، ومن غير المتصور أنه عاش منزويا عن الناس كل هذه المدة .

والدارسون لفن الرمادى يرون أن شعره انصبت فيه "ألوان الحياة الأندلسية، فشعره وثيقة حضارية هامة، إذ إنه مع تبدل الحياة تبدلت طبيعة الشعر فالبيئة الأندلسية تمثل أجواء جديدة من الاستسلام والاغراء ، وبوجود طبقة الجوارى والغلمان الصقالبة والبشكنس والنساء الشقراوات تبدلت عواطف الشعراء ، وتعقدت تصورات اللذة ، فتعقد تبعا لذلك التصوير الشعرى ، وأصبحت اللذة غاية بذاتها ولم تعد متعة عارضة، فاقترنت بجمال الطبيعة وبالغناء والموسيقى والخمر . ثم إن الانكسار الحاصل فى الهوية الاجتماعية من حيث توزع المال والسلطة من جهة، وسلطة الفقهاء من جهة أخرى التى تصطدم دائما مع هذه الأجواء الجديدة، كل هذا عمق الانكسار فى الهوية الفردية وولد الألم الغامر الذى لاتبتله إلا اللذة المتواصلة ، فتصبح الحياة فراديس مصطنعة

---

(١) انظر أيضا مقطوعة قالها فى السجن ص ١٧ من مجموعة شعر الرمادى أولها:

حبيسك ممن أتلف الحب قلبه ... ويلذع قلبى حرقة دونها الجمر

وأيضا قصيدته:

هبوا أن سجنى مانع من وصاله ... فما الخطب أيضا فى امتناع خياله؟

يبتدعها الشاعر، فالرمادي جمع في شعره هذه الأمور ، فهو يمثل التمرد على الفقهاء من جهة، وهذا التهافت على اللذة من جهة أخرى" [1]

ولا نعرف أي لقب شعري مشرقي أطلق على الرمادي ، وربما كان أقرب الأسماء اليه اسم أبي نواس، فقد كان صنوه في التغني بالخمر ، واذا كانت معظم قصائده فيها قد فقدت فبحسبنا أن قسطا لابأس به من الرائية "بخطب الشاربين" قد سلم من الضياع ، وكان الرمادي كتبها عندما فكر الحكم المستنصر في استئصال شجرة العنب من الأندلس وأمر بإراقة الخمر والضرب بيد من حديد على شاربيها ، فراح يتفجع ويتوجع بقوله :

بخطب الشاربين يضيق صدري

وترمضني بليتهم لعمري

وهل هم غير عشاق أصيبوا

بفقد حبائب ومنوا بهجر

وضمنها بيت العرجي الشهير :

"أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر"!

وأيضا من الظواهر "النواسية"- إو فلنقل الأبيقورية - عنده ذلك التفاني في عشق الحياة والابتهاج بالطبيعة من أيضا ذلك التعلق بالغلمان، على نحو مايكشف عنه قوله في غلام ألثغ:

لا الراء تطمع في الوصال ولا أنا

الهجر يجمعنا فنحن سواء

---

(١) شعر الرمادي ، ص ٤١

فاذا خلوت كتبتها فى راحتى

وبكيت منتحبا أنا والراء!

والإكثار من الحديث عن مفاتن النساء .ولكن من غير فحش وأحاديث الهوى . **مثل قوله :**

وإنى لأغضى الطرف عنك جلالة

وخوفا على خديك من لحظاتى

ولو أننى أهملت عينى بأن ترى

سناك لحالت دونها عبراتى

رأيت وشاة الكاشحين أباعدا

ولكن دمعى من عديد وشاتى

زعمت بأنى حلت عنك ولم أكن

اعنيك فى بثى وفى حسراتى

وهل أنا إلا طالب لمنيتى

إذا حلت عمن فى يديه وفاتى

والنصوص التى مرت تكشف عن خصائص الرمادى ، الذى كان ينتمى بدوره لمدرسة المحدثين ، إلا أنه كان فى الوقت ذاته بصيرا بالأدوات الفنية التقليدية عى نحو ماتكشف عنها مدحته فى أبي على القالي، حتى إذا مامال إلى موضوعات الوصف والتعبير عن الذات لجأ إلى الجملة البسيطة التى تكسب جمالها من حيوية الصور ، والحق أن الرمادى لم يكن يمعن فى الغوص تنقيبا - متعمدا - عن المعنى الجديد بل كان يتدفق هذا تدفقا طبعا بين يديه، فشاعرنا كان شاعر طبع ، إلا أنه كان يحرص فى الوقت ذاته على أن

يجعل عبارته مشرقة وصوره متألقة، لايحاكى فيها أحدا

ويلحظ القارئ فى كثير من مقطوعات الرمادى مواقف ذات أبعاد درامية محددة مركزة على نحو يذكر بمنهج الغزال ، إلا أن الرمادى كان أكثر صقلا لعبارته وتجويد الصوره ، من قبيل قوله:

لما بدا فى لازور
دى الحرير وقد بهر
كبرت من فرط الجما
ل وقلت : ماهذا بشر
فأجابنى لا تنكروا
ثوب السماء على القمر !

والخلاصة إن إبداع النص يتمثل عند الرمادى فى "الصورة" بينما يتألق عند الغزال فى "الموقف "، وبينهما ولا شك أواصر قوامها غلبة الروح "الأندلسية" الفنية على شعرهما .

عصر ملوك الطوائف
(من شعراء القرن الخامس الهجرى)
ابن زيدون

إذا ذكرت الأندلس فإن صورا كثيرة تتداعى إلى النفس من خلال ذكراها، يأتى من بينها ولا شك اسم الشاعر العبقرى ابن زيدون .

وقد ارتبط اسم هذا الشاعر بعصر ملوك الطوائف خاصة فى قرطبة واشبيلية، وكان طرفا فيما جدّ على العصر من أحداث متلاحقة انتهت بسقوط الخلافة الأموية واختيار أهل قرطبة لأبى الحزم بن جهور أميرا أو حاكما لقرطبة وماحولها، بينما استولى بنو عباد على إشبيلية، واشتعلت الفتن بين الأقاليم وازداد نفوذ النصارى وضغطهم من كل اتجاه .

وشاعرنا (أحمد بن عبدالله بن احمد بن غالب بن زيدون) ينحدر من بنى مخزوم ، وهم بطن من لؤى بن غالب، أى أنه كان قرش العنصر، وكان لأسرته شأن فى قرطبة، على نحو ماذكر ابن حيان من أنه كان "من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة أيام الجماعة والفتنة"، والثابت أن مولده كان بالرصافة، على مقربة من قرطبة، سنة ٣٩٤هـ، وأنه نشأ محاطا بالرعاية والتثقيف من قبل أبيه ثم أساتذة ذلك العصر ومنهم أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى الذى يوصف بأنه كان "رجلا جيد الدين ، حسن العقل، متصاونا ، لين العريكة، واسع الخلق، مع نبله وبراعته وتقدمه فى علم العربية واللغة، راوية للشعر وكتب الآداب على حد تعبير ابن بشكوال صاحب الصلة .

وكان ابن زيدون[١] في الثامنة والعشرين من عمره عندما تم اتفاق أهل قرطبة على زعامة أبي الحزم بن جهور ، والمرجح أنه قام بنصيب وافر في هذا الأمر حتى أن الفتح بن خاقان يصفه بأنه "زعيم الفئة القرطبية، ونشأة الدولة الجهورية"، وهيأت له هذه الزعامة أن يحتل منصب الوزارة ، وقد نقل ابن بسام عن أبي مروان بن حيان قوله :

"وقد أجرى ذكر من اصطنع ابن جهور، من رجال دولته فقال: ونوه أيضا بفتى الآداب وعمدة الظرف والشاعر البديع الوصف والرصف أبي الوليد أحمد بن زيدون ذي الأبوة النبيهة بقرطبة والوسامة والدراية وحلاوة المنظوم والسلاطة وقوة العارضة والافتنان في المعرفة . وقدمه إلى النظر على أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعد على مكانه من الخاصة والسفارة بينه وبن الرؤساء ، فاحسن التصرف في ذلك، وغلب على قلوب الملوك "[٢]

ومع ذلك فإن أبا الحزم بن جهور كان تخوف في قرارة نفسه من ابن زيدون ، كما أنه ، من ناحية أخرى ، كان ينقم عليه انغماسه في حياة اللهو واقتران اسمه باسم ولادة بنت المستكفي (وسنعود إلى ذلك بعد قليل) من خلال قصة حب عاصفة ودفعه طبعه الحاد، وثقته المفرطة في نفسه، لأن يحط من قدر ابن القلاس وابن عبدوس (منافسه في حب ولادة) وكان العصر عصر فتن وانقلابات ومن ثم دبرت له تهمة اغتصاب عقار وحوكم محاكمة ظالمة أفضت به على عجلة إلى السجن ، حيث مكث فيه قرابة خمسمائة يوم . ويرى بعض

---

(١)راجع عنه ابن بسام في الذخيرة وكتاب ابن نباتة : سرح العيون والصفدي في : تمام المتون ، وابن سعيد في : المغرب (جـ١ ص ٦٣) والحميدي في الجذوة ص ١٢١ وابن خاقان في القلائد ص ٧٠ وابن دحية في المطرب ص ١٦٦ الخ ..

وراجع مقدمة ديوانه – نشر علي عبد العظيم – القاهرة ودراسة (وهي في الأصل رسالة للماجستير) نشرت بالقاهرة سنة ١٩٥٥ في ٥٨٧ ص فضلا عن دراسات أخرى متفرقة

(٢) الذخيرة (القسم الأول من المجلد الأول ١ ط إحسان عباس) ص ٣٣٧

الباحثين أن الشاعر أودع السجن مرتين، لكن الرأى الصائب أنه "لم يسجن إلا مرة واحدة فى عهد أبى الحزم بن جهور بعد نقض بيعة هشام بقرطبة سنه ٤٣١هـ ، وبعد أن تولى ابن المكوى القضاء - وهو الذى نيط به أمر محاكمته - لسبع خلون من محرم سنة ٤٣٢هـ، ونحن نعلم أن الشاعر فر من سجنه وكتب رسالته الى أستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد الذى توفى لثمان خلون من شعبان سنه ٤٣٣ ، ومن هنا نستطيع ان نجزم بان الشاعر سجن فى الفترة بين محرم سنه ٤٣٢ وشعبان سنة ٤٣٣ .(١)

وقد فر ابن زيدون من السجن بقرطبة، واتجه إلى إشبيلية لائذا بآل ابن عباد، أعداء ابن جهور، وأمدته فترة السجن ثم الاختفاء والهرب بطائفة من فرائد ماكتب فى السجن والاغتراب والاحساس بالضياع ، مثل قصيدته :

خليلى لا فطر يسر ولا أضحى

فما حال من أمسى مشوقا كما أضحى

وفيها يتحدث عن قرطبة وأحيائها ومعالمها حديث المتيم المشوق، حتى ينتهى إلى الزهراء فيلهج لسانه :

ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح

تقضى تنائيـــها مدامعـــه نزحـــــا

مقاصير ملك أشرقت جنباتها

فخلنا العشــــاء الجون أثناءها صبحا

محل ارتياح يذكر الخلد طيبه

اذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحى

---

(١) على عبد العظيم ، مقدمة ديوان ابن زيدان ، ص ٤٣

وكذلك أرجوزته :

يادمع صب ماشئت أن تصوبا

ويافؤادى آن أن تذوبا

إن الرزايا أصبحت ضروبا

لم أر لى فى أهلها ضريبا

قد ملأ الشوق الحشا ندوبا

فى الغرب إذ رحت به غريبا

وأيضا هذه المقطوعة التى كتبها على غرار قصيدة للمتنبى واتخذ من مطلعها "خاتمة" لأبياته:

هل تذكرون غريبا عاده شجن

– من ذكركم – وجفا أجفانه الوسن

يخفى لواعجه والشوق يفضحه

فقد تساوى – لديه – السر والعلن

ياويلتاه ، أيبقى فى جوانحه

فؤاده ، وهو بالأطلال مرتهن

وأرق العين –والظلماء عاكفة–

ورقاء قد شفها – إذ شفنى – حزن

فبت أشكو وتشكو فوق أيكتها

وبات يهفو ارتياحا بيننا الغصن

ياهل أجالس أقواما أحبهم

كنا وكانوا – على عهد – فقد ضغنوا

أو تحفظون عهودا لا أضيعها

إن الكرام بحفظ العهد تمتحن

ومنها:

إن كان عاد لكم عيد فرب فتى

بالشوق قد عاده من ذكركم حزن

وأفردته الليالى من أحبته

فبات ينشدها مما جنى الزمن:

" بم التعلل لا أهل ولا وطن

ولا نديم ولا كأس ولا سكن "

ولم يكف ابن زيدون طيلة هذه المدة عن محاولة التوسل لابن جهور لكى يعفو عنه ، حتى إذا ما مات أبو الحزم وتولى من بعده ابنه أبو الوليد تبدل الحال، إذ كانت أواصر الصداقة تربط بين الرجلين منذ أمد بعيد، وهكذا جاءت العودة المظفرة إلي قرطبة "ورفع - أبو الوليد - مكانته ، ونوه به ، وأسنى خطته واعتمد عليه فى السفارة بينه وبين الملوك المجاورين ، وبذا يمكن القول بأن ابن زيدون أصبح - مرة أخرى - " وزير خارجية" قرطبة والمستشار الأول لأميرها الجديدة ولم يخل الأمر من أزمات توالت بين الرجلين ، بفعل المؤامرات والأحقاد وتقلب النفوس وهذا كله سيدفع بالشاعر إلى الرحيل مرة ثانية إلى إشبيلية، واستقبل من أميرها الداهية المعتضد بن عباد أحسن استقبال، وأصبح من وزرائه المقربين ومستشاريه الأثيرين، وتلقب بـ "ذى الوزارتين" كناية عن قيامه بمهام المستشار والوزير ثم استطاع بعد ذلك أن يستحوذ على منصب "الكتابة" الذى أتاح له الاطلاع على كل أسرار الدولة فكأنه أصبح - بتعبير العصر الحديث - رئيس الوزراء فى إشبيلية

وكانت فى المعتضد غلظة وسرعة فتك وكثرة تقلب ، ومع ذلك نجح ابن زيدون فى أن ينجو من بطشه ويحافظ على مكانته ويتخلص من مناوئيه - مثل ابن حصن كاتب المعتضد ، وأيضا ابن عبد البر .

ثم آل عرش إشبيلية للمعتمد سنه ٤٦١، وكان شاعرا بل وتلميذا لابن زيدون ، ولذا لم تفلح كل المحاولات التى سعت لإحداث الوقيعة بينهما ، بل ان نطور الأمور فى الأندلس زاد من التقارب بين الرجلين ، إذ تطلع المعتمد للاستيلاء على قرطبة ومن أدرى بقرطبة وأحوالها من ابن زيدون ؟ ، حتى إذا ماتحقق النصر ازداد شأن الشاعر عند المعتمد بن عباد ، خاصة وأن أهل قرطبة كانوا لا يعصون له أمرا ، ويرون فيه "زعيمهم الروحى"، والمعبر عن أمانيهم ومجدهم وكيانهم .

ثم وقعت الفتنة فى إشبيلية ، والمعتمد فى قرطبة، فسعى لاخمادها بتسيير جيش ضخم بقيادة أحد أبنائه، وأمر ابن زيدون أن يسافر مع الجيش، لما كان يعهده فيه من ذكاء وفطنة ، وماكان يعرفه من حب أهل اشبيلية له ، على أن سفر ابن زيدون كان مكيدة من طرف خصوم الشاعر - وعلى رأسهم ابن مرتين قائد الجيوش فى قرطبة والوزير ابن عمار - ليخلوا لهم الجو هناك ، ويتخلصا من الرجل الذى كان يحظى بأعلى مكانة عند المعتمد وعند أهل المدينة.

وإذا كان جيوش المعتمد قد نجحت فى استرداد اشبيلية ، فإن الوزير الشاعر كان قد أجهد بفعل الشيخوخة وكثرة مابذل من جهد، ومن ثم يودع الحياة بعد ذلك بزمن وجيز - فى رجب سنة ٤٦٣هـ ، وكان لموته رنة أسي فى نفوس الناس بالأندلس، خاصة فى مدينته قرطبة .

ولادة وابن زيدون :

إن لقصة الحب العاصف بين ابن زيدون وولادة أثرا عميقا فى حياة الشاعر وفى آثاره الأدبية ، ومن ثم نتحدث عنها هنا على حدة ،خاصة وانها شغلت الدارسين والأدباء فى القديم والحديث وخلفت أصداء شبيهة بما كان من حكايات وأساطير حول عنتر وعبلة، وليلى والمجنون ، وجميل وبثينة وكثير وعزة الخ

أما ابن زيدون فقد عرفنا شيئا من أمره : شاعرا ووزيرا ورجل دولة من الطراز الأول ، وشخصية اجتماعية مرموقة فتن بها أهل قرطبة ، ورأوا فيها تجسيما حيا لكل مالمدينتهم العريقة من حضارة و "ارستوقراطية" واعتداد بالذات وطموح وإقبال على الحياة .

وأما هى : ولادة ، فإنها أميرة وابنة خليفة .وإن كان أبوها عادة مايوصف بأنه ساقط الهمة دنىء النفس ، وهو أحد الذين أسهموا فى القضاء على البيت الأموى بطيشه وضعف همته وعكوفه على الشهوات، وكانت ولادة ، على النقيض منه ، مشهورة بأنها - على حد تعبير ابن بسام -:

"كانت فى نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لاحرار المصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر .. إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب ، وطهارة أثواب [1] لكن ابن بسام

(١) الذخيرة (ط. إحسان عباس) المجلد الثانى من القسم الزول، ص ٤٢٩ ومن الأعمال اا نية والمسرحية حول الموضوع مسرحية لإبراهيم الأحدب وفصل قصير تمثيلى لأحمد رامى بعنوان: غرام الشعراء ، ومسرحية شعرية لعلى عبد العظيم بعنوان : ولادة وأخرى لحسين سراج (غرام ولادة) وفاروق جويدة (الوزير العاشق) ونذير العظمة(سيزيف) ورواية نثرية لعلى الجارم :هاتف من الأندلس، الخ ..

لا يكتفى بهذا الجانب "طاهر الأثواب " بل يعرج على كونها" اطرحت التحصيل وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها - كتبت - زعموا - على أحد عاتقى ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالى

وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الاخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى

وأعطى قبلتى من يشتهيها

وفى كتب الأدب الأندلسى ، وعلي رأسها "الذخيرة" أطراف من حكاية الحب التى جمعت بينهما ، وكان ذلك أيام شباب الشاعر وفى فترة إقبال الحياة عليه ، ووفقا لروايته فإنها هى التى كتبت له :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى

فإنى رأيت الليل أكتم للسر

وبى منك مالوكان للبدر مابدا

وبالليل ماأدجى وبالنجم لم يسر

وأنه أنشدها فى إثر اللقاء مقطوعة من أربعة أبيات يقول فيها :

ودع الصبر محب ودعك

ذائع من سره ماستودعك

يقرع السن على أن لم يكن

زاد فى تلك الخطى إذ شيعك

ياأخا البدر سناء وسنا

حفظ الله زمانا أطلعك

إن يطل بعدك ليلى فلكم

بت أشكو قصر الليل معك

والأبيات ترد بالفعل فى الديوان ، ولكنها ليست بالضرورة مما قيل فى أعقاب "اللقاء الأول " كما قد يوحى نص "الذخيرة"، والمهم أننا نجد عنده تعلقا "من نوع ما" بولادة ،يرتدى أحيانا قناع العذرية ، ويجمح أحيانا جموحا حسيا، وكان يقع بينهما مايقع بين المحبين من غيرة وخصام وقطيعة أيضا ، وقد تحركت الغيرة فى نفس ابن زيدون ، عندما وجد أن غريمه ابن عبدوس يزداد منها تقربا ومودة، فعمد الشاعر إلى هجائه بالرسالة الهزلية؛ وبعث بالنص لولادة كما هجا غريمه ابن القلاس بأقذع الهجاء ، ولم يستطع مع ذلك أن يجعلها تؤثره بمشاعرها (وفى الذخيرة أنها حنقت عليه لأنها توهمت أنه يميل إلى جاريتها عتبة) ثم تطور الحال به إلى أن سجن، (ولعل لابن عبدوس يدا فى مسألة السجن هذه) وفر منه إلى إشبيلية ، حيث بعث إليها بقصيدته الفريدة الغريبة:

أضحى التنائى بديلا من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

هلا وقد حان صبح البين صبحنا

حين فقام بنا للـ ى ناعينا

من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم

حزنا مع الدهر لايبلى ويبلينا

أن الزمان الذى مازال يضحكنا

أنسا بقربهم قد عاد يبكينا

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا

بأن نغص فقال الدهر آمينا

وقد نكون ومايخشى تفرقنا

فاليوم نحن ومايرجى تلاقينا

والقصيدة تمضى كلها على هذا النمط العذب الرقراق، (الذى يذكر بقصائد الحب الخالدة مثل لامارتين فى بحيرته وغير ذلك من روائع الشعر "الرومانتيكى") وفيها دلائل حية على صدق المشاعر ، ومع ذلك فإن قصة الحب هذه مالبثت أن تهاوت لأسباب أفاضت فيها كتب التاريخ والأدب ، من أهمها أن ولادة كانت مريضة نفسيا ، وأنها كانت تعانى من ميل حاد لتعذيب الآخرين - وهو مايعرف الآن بالسادية - والرغبة فى تلويث سمعتهم، وقد يستدل على ذلك من قول العمرى : وكانت ولادة ذات بوادر يشيب لها رأس الوليد ، وفى نظر نيكل أن سلوكها كان متسما بالخشونة المتطرفة والاتجاه المادى الطبيعى الذى يذكرنا بجورج صائد ، وأنها ورثت عن أبيها بعض ملامح الخشونة "[١] ، ولكن هذا الحب ، على كل حال ، جعل ابن زيدون يصدح بقصائد خالد مثل "أضحى التنائى" ومثل :

إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا

والأفق طلق ووجه الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال فى أصائله

كأنما رق لى فاعتل اشفاقا

والروض عن مائه الفضى مبتسم

كما شققت عن اللبات أطواقا

يوم كأيام لذات لنا انصرمت

بتنا لها - حين نام الدهور سراقا

(١) راجع على عبد العظيم ، مقدمة الديوان ، ص ٣٩

كل بهيج لنا ذكرى تشوقنا

إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا

لا سكن الله قلبا عن ذكركمو

فلم يطر بجناح الشوق خفاقا

ألوان أخرى من الفن :

دارت موضوعات الشعر عند ابن زيدون حول موضوعات الغزل والوصف والموضوعات التقليدية من مديح ورثاء وهجاء وقد عرفنا أنه شاعر حب من الطراز الأول - وسنكتفى بما قلناه عن حبه لولادة ، وهى قصائد تخللتها عادة لوحات وصفية متألقة (انظر مثلا مستهل قافيته : إنى ذكرتك بالزهراء مشتاقا) ، وأما جانب المدائح فإن الناس عادة مايتجاهلونه لأن شهرته فى الشعر العاطفى ، لكن المؤرخين المدققين عرفوا له قوةباعه فى أكثر من فن ، على نحو ماتترجم ذلك عبارة المراكشى من أن ابن زيدون "كان إذا نسب أنساك كثير عزة، وإذا مدح أزرى بزهير ، وإذا فخر أناف على امرئ القيس "، والحق أن مدائح الشاعر تأتي رصينة رنانة طيعة، فيها نفثات "بحترية" لاتنفى عنها الأصالة، وتدور حول ماهو مألوف من المعانى المدحية، لكن ابن زيدون بث فى جنباتها من حرارة روحه ودقة تعبيره ماجعلها تموج بالإيحاء والإشراق والنبل واقرأ قوله فى أبى الحزم بن جهور :

هذا الصباح على سراك رقيبا

فصلى بفرعك ليلك الغربيبا

ومن أبياتها مما يمتزج فيه التمهيد بالعتاب بالمديح :

مالى وللأيام ؟ لج مع الصبا

عدوانها فكسا العذار مشيبا

محقت هلال السن قبل تمامه

وذوى بها غصن الشباب رطيبا

لألم بى مالو ألم بشاهق

لا نهال جانبه فصار كثيبا

فلئن تسمنى الحادثات فقد أرى

للجفن فى العضب الصقيل ندوبا

ولئن عجبت لأن أضام وجهور

نعم النصير لقد رأيت عجيبا

من لاتعدى النائبات لجاره

زحفا ولاتمشى الضراء دبيبا

ملك أطاع الله منه موفق

مازال أوابا اليه منيبا

بسام ثغر البشر إن عقد الحبا

فرأيت وضاحا هناك مهيبا

ملأ النواظر صامتا ، ولربما

ملأ المسامع سائلا ومجيبا

وقد تأخذ مدائحه مسارا آخر أكثر نعومة وكأنه نسجها هذه المرة بخيوط من حرير ، وكأن الكلمات يهمس بها همسا ينساب على إيقاع موسيقى هادئة رقيقة ، ومثل هذه القصيدة التى أعرب فيها عن شكره للمظفر بن الأفطس أمير بطليوس ، عندما وفد إليه ، فارا من قراطبه ، فأحسن استقباله ونعنى بذلك قصيدته :

هى الشمس مغربها فى الكلل

ومطلعها من جيوب الحلل

ومن أبيات الشكر :

سأشكر أنك أعليتني
بأحظى مكان وأدنى محل
وأني إن زرت لم تحتجب
وإن طال بى مجلس لم تمل
تبسمت ثم ثنيت الوساد
فحسبى من خطر ما أجل
فلو صافح الترب خدى لهان
ولوكاثر القطر شكرى لعل
بأمثالها يسترق الكريم
إذا مطمح بسواه أخل

وابن زيدون فى معظم شعره واضح في معانيه ،سهل فى ألفاظه ، وهو فى كل هذا يكشف عن ثقافة لغوية وأدبية ضخمة ، ومما يميزه كذلك هذا الفيض من الصور المتألقة ، التى تكشف عن ولعه بالتشبيه وبالطباق على نحو خاص ، وهذه القدرة الموسيقية التى يضفيها على الأبيات فتنبض بالغنائية وتنسل إلي الفؤاد .

وشعر ابن زيدون مرآة صادقة للشعر العربى - إجمالا - بكل مزاياه وعيوبه ، وإذا كان قد استوعب كل ماذكرنا من مفاخر فإنه لا يشف عن رؤية إنسانية خاصة إلا فى القليل النادر ، ولا شك أن جوانب الجودة عنده هى الأساس ، ومن ثم اتفق الدارسون على الإشادة به ، ورأوا فيه " أعظم شاعر قديم أنجبته الأندلس " على حد تعبير جومث .

المعتمد بن عباد

شهد الربع الأول من القرن السادس الهجري سقوط الخلافة الأموية سنة (٤٢٢) واشتداد ساعد حركة " الاسترداد " النصرانية ، وتمزق الدولة إلى أشلاء متناثرة بعد الجاه والمنعة وعلو الشأن علي زمن الفاتحين الأوائل وحتى أيام عبد الرحمن الداخل والخليفة الناصر وأيضا المنصور العامري .

وشهدت الأندلس بعد ذلك ، من بين ما شهدت ، سطوع نجم بني عباد الذي تتابعوا علي ملك إشبيلية وكان منشئ دولتهم القاضي محمد بن اسماعيل ابن عباد (وأصوله من عرب الحيرة) رجلا داهية واسع الطموح ، استطاع أن ينصب نفسه أميرا علي المدينة ، وأعلن أنه يحكم في ظل " الشرعية " ويتعضيد ممن زعم أنه هشام بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر " وكانت أخباره انقطعت منذ نيف وعشرين سنة ، ثم قيل إنه حي في قلعة من قلاع الأندلس ، فدعاه القاضي وجعل له اسم الملك ووطد به سلطانه ، وثبت إمارته توفي الرجل المدعو هشاما" [(١)] ، وكان هذا الموقف واحدا من عجائب التاريخ ، الحافلة بالخداع والادعاء [(٢)].

وقد استمرت إمارة محمد بن القاسم قرابة عشرين عاما (من ٤١٤ - ٤٣٣ هـ) ، فلما مات خلفه ابنه أبو عمرو ، الملقب بالمعتضد الذي حكم قرابة

---

(١) د. الوهاب عزام : المعتمد بن عباد ، القاهرة ١٩٧٦ ص ٨ .

٢) يصفه ابن بسام في الذخيرة - المجلد الأول من القسم الثاني ، ص ٣٧ . بـ " صاحب الرجعة " وقد توقفت الخطبة له في أشبيلية سنة ٤٥١ . وكان هشام المؤيد قد اختفي علي أثر استيلاء أحد أمراء البيت الأموي علي مقاليد الأمور في قرطبة وتواري عن الأنظار طويلا حتي حيكت حوله الأساطير راجع أيضا :د . حرجى طربية : الوجدية وأثرها في الأندلس ، بيروت ١٩٨٣ ص ٥٩ وما بعدها .

ثلاثين سنة ، قويت فيها دعائم الدولة حتي أصبحت دولة بني عباد أقوي إمارات عهد ملوك الطوائف ، ، لكن هذا المجد لم يقم إلا علي القسوة في أنكي صورها ، حتي لتذكر كتب التاريخ أن بستان قصره حفل بالعديد من الأخشاب التي نصبت وعليها رؤوس من فتك بهم من رجالات الأندلس وكان يقول : في مثل هذا البستآن فليتنزه :! ، وعبر ابن حيان عن رأيه في باب فرط القسوة وتجاوز الحدود " حكايات شنيعة لم يعد في أكثرها للعالم بصدقها دليل يقوم عليها ،.. ومهما برئ من مغبتها فلم يبرأ من فظاعة السطوة وشدة القسوة .. " وكان المعتضد شديد الشغف بمقطوعة قال فيها بعد أن أخضع مدينة " رندة " لنفوذه :

لقد حصلت يارندة
فصرت لملكنا عقدة
أفادتناك أرماح
وأسياف لها حدة
وأجناد أشداء
إليهم تنتهى الشدة
غدوت يرونني مولى
لهم وأراهم عدة
سأفنى مدة الأعدا
ء إن من طالت بي المدة
وتبلى بي ضلالتهم
ليزداد الهوي جدة

فكم من عدة قتلـ

ت منهم بعدها عدة

نظمت رؤوسهم عقدا

فحلت لبة السُدة [(١)]

ومما يذكر أنه لم يتورع عن قتل ابنه وولي عهده اسماعيل إذ شك في ولائه له واتهه بالخيانة .

وربما كان المعتضد أعظم ملوك " الطوائف " قوة ومنعة لكن ابنه المعتمد (أبو القاسم محمد بن عباد): هو الذي خلد ذكره في التاريخ باعتباره شاعرا إلي جانب أنه كان الأمير الذي دانت له الأصقاع وعمرت قصوره بأعظم آيات الترف ، ثم هوي من علٍ وتحولت حياته اللاهية إلي مأساة بالمعني الدقيق للكلمة .

ونمر بإيجاز علي حياة المعتمد ، علي الرغم من أبعادها " الدرامية " العجيبة ، التي استحوذت علي الاهتمام في القديم وفي العصر الحديث ووجد فيها الروائيون وكتاب المسرح مادة خصبة للحديث عن البطولة والحب والدهاء والذكاء والطموح و أيضا تتناول مأساة الإنسان في ارتقائه قمة المجد ، ثم في انحداره إلي الدرك الأسفل من الضياع والهوان

وتتلخص حياة المعتمد أبي القاسم محمد بن عباد في أنه ولد في مدينة باجة ، غربي الأندلس في وكان يتلقب في بداية أمره باسم الظافر المؤيد بالله ، ثم تحول إلى المعتمد بعد توليه العرش سنة ٤٦١ هـ ولا يعرف شئ عن أمه

---

١) الذخيرة (القسم الثاني) المجلد الأول ص ٣٢ .

(وكان المعتضد قد تزوج من ثمانمائة فتاة) وتمرس منذ شبابه علي الأعمال العسكرية والسياسية ، فقد ضم إلي مملكة العبابدة عددا من المدن والقلاع ، منها شلب (وعين أميرا عليها) فلما تولي الملك عين عليها صديقه الشاعر ابن عمار ، الذي كان قرينه في حياة اللهو والمجون في شلب ، ثم كان زواجه من اعتماد الرميكية ، نحو سنة ٤٥٠ هـ [١]

وقد خلف هذا الزواج أثرا عميقا فى حياة المعتمد ، وكانت له بمثابة المستشار فى كافة شؤون الدولة والملهمة لكثير من شعره ويؤثر أن شاعرنا قاد فى سنة ٤٥٩ حملة للاستيلاء على مالقة وكانت من أملاك باديس بن زيرى الصنهاجى صاحب غرناطة ، وقد كادت هذه الحملة أن تحقق غاياتها إلا أن الدائرة دارت عليه فى النهاية ، وفر من المدينة وهو فى خزى من الهزيمة، وفى خوف من حساب أبيه وهو الطاغية القاسى الجبار ، وفى هذا الموقف كتب الشاعر واحدة من أجمل قصائده ، استهلها بمخاطبة نفسه :

سكن فؤادك ، لا تذهب بك الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترض بالبكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وان يكن قدر قد عاق عن وطر
فلا مرد لما يأتى به القدر

---

(١) رجع د. صلاح خالص هذا التاريخ في دراسة حول : المعتمد بن عباد الأشبلي ،بغداد سنة ١٩٥٨ ص ٣٠ .

وان تكن خيبة فى الدهر واحدة

فكم غزوت ومن أشياعك الظفر

وهذه القصيدة أول ما وصل إلينا من آثاره ، وفيها ماينم عن دربة ، مما يوكد أنها كانت مسبوقة بمحاولات كثيرة قبلها .

وعندما آل إليه الملك (سنة ٤٦١ هـ) لم تصرفه أمور الدولة عن الشعر والشعراء، ولاننسى أن المعتمد قرب ابن عمار وجعله على شلب، ثم استدعاه إلى إشبيلية حيث تقلد الوزارة، واستطاع المعتمد فى سنة ٤٦٢ أن يستولى على قرطبة التى كانت جيوشه قد جاءت إليها لتدعيم ملك عبدالملك بن جهور وصد غارات ابن ذى النون عنها، ثم لم تلبث هذه الجيوش أن بسطت نفوذها على حاضرة الأمويين ، وفى ذلك يقول المعتمد :

من للملوك بشأو الأصيد البطل

هيهات ، جاءتكم مهدية الدول

خطبت قرطبة الحسناء إذمنعت

من جاء يخطبها، بالبيض والأسل

كما نجح ابن عمار فى الاستيلاء على مرسية، لكنه لم يكن فى واقع الأمر يعمل لحساب سيده "المعتمد" وإنما لحساب نفسه ، متواطئا فى ذلك مع ملوك الفرنجة وخاصة ألفونسو السادس ، وفى هذه الآونة سقطت طليطلة فى أيدى النصارى (سنة ٤٧٤ هـ) وابتدأ بذلك طور خطير فى زعزعة كيان المعتمد ابن عباد، واشتداد قوة حركة "الاسترداد"، وكان سيد إشبيلية القوى يؤدى الجزية صاغرا لألفونسو السادس ، وصورة الأندلس تبدو آنذاك شديدة الاضطراب ، منذرة بالويل والدمار ، وبالفعل وقع التنافر بين المعتمد والملك القشتالى ،

ولم يكن هناك من مناص إلا الاستعانة بالأمير المرابطى يوسف بن تاشفين وكان ماكان من أمر عبور الجيوش البربرية إلى الأندلس والانتصار الهائل فى معركة الزلاقة التى يسميها الأوربيون ساكر الياس Sacralias ذلك سنة ٤٧٩

وبعد ذلك بسنتين كان العبور الثانى ليوسف بن تاشفين لتخليص بعض الحصون من أيدى الفرنجة ، ثم كان العبور الثالث الذى قرر فيها أمير البربر تخليص الأندلس من كافة ملوك الطوائف - بما فيهم المعتمد بن عباد - وتوحيد البلاد تحت امرته ، وهكذا كان الاستيلاء على مملكة غرناطة وطرد بنى زيرى منها ، ثم جاء الوقت الذى تأهب فيه للانقضاض على المعتمد، ولم يتورع هذا عن طلب العون من ألفونسو السادس، ونجحت جيوش المرابطين فى الاستيلاء على قرطبة وقتل أميرها (المأمون ابن المعتمد) وفى سنة ٤٨٤ دخلت الجيوش البربرية إشبيلية، وسيق المعتمد وأمهات أولاده وأولاده إلى أغمات عاصمة البربر، ولسان حاله يتمتم :

لما تماسكت الدموع
وتنبه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة
فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضو
ع على فمى السم النقيع
إن يسلب القوم العدا
ملكى وتسلمنى الجموع

فالقلب بين ضلوعه
لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا
ع أيسلب الشريف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم
ألا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القميـ
ص على الحشا شئ دفوع
وبذلت نفسي كي تسيـ
ل إذا يسيل بها النجيع
أجلي تأخر لم يكن
بهواي ذلي والخضوع
ماسرت قط الى القتا
ل وكان من أملي الرجوع
شيم الألى أنا منهم
والأصل تتبعه الفروع

ثم كانت حياة النفي والمهانة والحرمان في سجن أغمات ، وهو يرسف في القيود كالليث الأسير أما اعتماد الرميكية - مليكة إشبيلية التي كانت ترفل في الجاه والنعيم - فإنها وبناتها كن يتعيشن بالغزل نظير دراهم معدودات ، ولم يكن له وقد ضاع الملك إلا أن يلوذ بكنف الشعر يبثه أشجانه ، ومن أجمل ما كتب في سجن أغمات تلك الأبيات وقد رأى قمرية تنوح وفي عشها طائران

صفيران :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر
مساء وقد أخنى على إلفها الدهر
بكت لم ترق دمعا وأسبلت عبرة
يقصر عنها القطر مهما همى القطر
وناحت وباحت واستراحت بسرها
ومانطقت حرفا يبوح به سر
فمالى لا أبكى أم القلب صخرة
وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده
وأبكى لألاف عديدهم كثر
بنى صغير، أو خليل موافق
يمزق ذا قفر ويغرق ذا بحر
ونجمان زين للزمان احتواهما
بقرطبة النكداء أو رندة القبر
إذن إن ضن جفنى بقطرة
وإن لؤمت نفسى فصاحبها الصبر
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى
لمثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

وقد بكى الملك الذاهب، وتأسف على الذكريات النادية فى إشبيلية، لكن الشجو يبلغ أوجه فى مراثيه لولديه:

يقولون صبرا لاسبيل إلى الصبر
سأبكى وأبكى ماتطاول من عمرى
هوى الكوكبان : الفتح ثم شقيقه
يزيد فهل عند الكواكب من خبر
نري زهرها فى مأتم كل ليلة
تخمش لهفا وسطه لهفة البدر
ينحن على نجمين أثكلت ذا وذا
وأصبر؟ ماللقلب فى الصبر من عذر

وفى تغبيره عن المهانة التى آل إليها أمر فلذات أكباده ، وقد أقبل العيد وليس على بناته سوى الأطمار البالية :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة
يغزلن للناس لايملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

والحق أن شعر السجن وشكوى الدهر وصل إلى ذروة روعته الفنية والتأثير ية عند المعتمد بن عباد ، ومن أجمل ما نذكره له فى هذا المجال تلك الأبيات التى يناجى فيها الأغلال التى تكبله ووقع ذلك على أطفاله الصغار وهم ينظرون إليه فى أسى :

قيدى أما تعلمنى مسلما
أبيت أن تشفق أو ترحما
دمى شراب لك واللحم قد
أكلته لاتهشم الأعظما
يبصرنى فيك أبو هاشم
فينثنى القلب وقد هشما
ارحم طفيلا طائشا لبه
لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله
جرعتهن السم والعلقما
منهن من يفهم شيئا فقد
خفنا عليه للبكاء العمى
والغير لايفهم شيئا فما
يفتح إلا لرضاع فما

وآخر مانذكره له تلك الزفرة الحزينة التى تفيض بالحنين إلى الماضى الذاهب فى إشبيلية (وأهل الأندلس يسمونها أيضا: حمص) حتى ليتمنى لو

يدفن جدثه فيها:

غريب بأرض المغربين أسير
سيبكى عليه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا
ويتهل دمع بينهن غزير
سيبكيه فى زاهيه والزاهر الندى
وطلابه والعرف ثم نكير
إذا قيل فى أغمات قد مات جوده
فما يرتجى للجود بعد نشور
فياليت شعرى هل أبيتن ليلة
أمامى وخلفى روضة وغدير
تراه عسيرا أم يسيرا مناله
ألا كل ماشاء الإله يسير
قضى الله فى حمص الحمام وبعثرت
هنالك منا للنشور قبور

هذه خطوط عامة عن أمير فارس شاعر بمعنى الكلمة ، وإذا كان الذى وصل من شعره قليل فإن فيه مايكشف عن سمات فنية متنوعة، ولعل من أبرزها ذلك "الوضوح الذى يدل علي وضوح التجربة لدى الشاعر ، فلا تعثر فى شعره على غموض ولا التواء ، ومما ساعد عل هذا الوضوح الوحدة فى شعره،

فكل مقطوعة أو قصيدة تتحدث عن خاطر مر بنفس المعتمد ، وتتضافر الابيات في إيضاح هذا الخاطر ، وتسير في اتساق ونظام" [1] ، ومن الملامح الفنية البارزة عنده روعة وقوة الصور، فإنها كانت تأتي في شعره صافية ، رقراقة مجسمة للمعنى ، والأمثلة عليها أكثر من أن تحصى مثل قوله في غلام رآه يوم العروبة (الزلاقة) في خضم القتال :

ولما اقتحمت الوغى دارعا

وقنعت وجهك بالمغفر

حسبنا محياك شمس الضحى

عليها سحاب من العنبر

وهناك هذا الجيشان الوجداني الذي يكسو شعره بغلالة من الصدق وقوة الأسر مما يخلف في نفس القارئ أثرا عميقا لايمحى أبدا

---

(١) ديوان المعتمد بن عباد بتحقيق د. أحمد أحمد بدوى ود. حامد عبد المجيد (مراجعة طه حسين) القاهرة سنه ١٩٥١ ص ٣ (من المقدمة)، وهناك طبعة أخرى للدكتور رضا الحبيب السويسى تونس ١٩٧٥ سنه ١٩٧٥ لا تختلف كثيرا عن ط القاهرة

أبو اسحاق الألبيرى، تحليل قصيدة

هناك نصوص أدبية تكتسب أبعادا بالغة القوة والتأثير لا بالنسبة لعصرها وحده، ولا من حيث ارتباطها بـ " مناسبة" أو بقطر ما وإنما لأنها تتغلغل فى صميم الأحداث بحيث تصبح قيمة انسانية مطلقة ، تعبر عن واقعة ما كما أنها تمثل ركيزة ورمزا ومجالا لتأويلات لا حد لها من التنوع والثراء.

من هذه النصوص النادرة قصيدة تعود بنا إلى غرناطة فى ظل ملوك الطوائف ، وإلى الأندلس بكل ماكانت تموج به آنذاك من أجناس وأجواء وأهواء وأعاصير راحت تتهدد مسلميها بعد أن انقسموا الى شيع متنافرة : فهناك بنو عباد فى اشبيلية، ودولة بنى جهور فى قرطبة، وبنو هود فى سرقسطة والعامريون فى بلنسية وبنو الأفطس فى بطليوس ... صورة مأساوية لكيان كان من قبل ملء السمع والبصر ، لكن البنيان الشامخ انهار ، وتحول الى مجرد طلول وجدران وسراديب وأحجار ...

لكن مايشغلنا الآن قصيدة اشتهرت فى غرناطة التى كانت خاضعة آنذاك لأمير بربرى من صنهاجة هو باديس بن حبوس ، رأس بنى زيرى آنذاك

وقد قدر لباديس هذا أن يحرز سلسلة من الانتصارات على زهير العامرى، صاحب المرية، وعلى بنى عباد وبنى حمود ، ولكنه كان "سفاكا للدماء، فيه عدل بجهل" على حد تعبير الذهبى، الذى روى عنه نوادر تشبه من بعض الوجوه ماروى عن قراقوش وزير صلاح الدين ، فمن ذلك أن امرأة وقفت له عند باب مدينة ألبيرة" فقالت: يامولانا: ابنى يعقنى، فطلبه ودعا بالسيف،

فقالت المرأة: إنما أردت تهديده ، فقال: ماأنا بمعلم كتاب ، وأمر به فضربت عنقه" (١)

وخبر آخر حكاه الذهبى أيضا يقول ان أميرا صنهاجيا مر ببدوى بائس ومعه زوجة جميلة، فأركبها الأمير شفقة عليها ثم هرول بها وضمها الى حريمه، وجاء الرجل لقصر الأمير فطردوه، عندئذ توجه الى باديس فشكاله أمره، فقال الملك لذلك الأمير "ادفع اليه زوجته" فأنكر، فقال : يابدوى! هل لك من شهيد ولو كلبا يعرفها؟ قال: نعم، فدخل بكلب له الى الدار، وأخرجت الحرم ، فلما رآها الكلب عرفها وبصبص ، فأمر الملك بدفعها إلى ، البدوى ، وضرب عنق الأمير، فقال البدوى:هى طالق لكونها سكتت ورضيت فقال الملك صدقت! ولو لم تطلقها لألحقتك به . ثم أمر بالمرأة فقتلت" ولا نريد أن نطيل فى أخبار باديس هذا الذى امتد ملكه على غرناطة طويلا (ثم تملك من بعده عن الله بن بلكين ابن حبوس، وفى عهده استولى يوسف بن تاشفين على غرناطة سنه ٤٨٣ وتم نفى عبدالله الى أغمات وهناك ألف كتابه: التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بنى زيرى فى غرناطة، وهذا الكتاب نشره ليفى بروفنسال تحت عنوان : مذكرات الأمير عبدالله ، ويعد أهم مصدر عن نهاية عهد ملوك الطوائف، خاصة مااتصل منها بغرناطة) إذ حكمها من ٤٣٠ هـ إلى ٤٦٦ هـ.

ومن أغرب مااتسم به ذلك العهد ازدياد نفوذ اليهود بصورة لم يحدث لها مثيل من قبل، ولعل من أسبابه أن بنى زيرى كانوا يشعرون بالعزلة بسبب عداء بقية أهل الأندلس لهم ، وشعورهم بأن هؤلاء البربر دخلاء عليهم، ومن ثم عول بنو زيرى على هؤلاء اليهود ، فكان منهم الوزراء وجباة الأموال والمراجعون الخ ... وكان جل اعتمادهم على بنى النغرلة .

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥٩١/١٨

وتجدر الإشارة هنا الى أن هذه الصيغة : النغرلة مختلف علها إذ "يكتب الاسم على أشكال لعل أصوبها ابن نغدالة أى "المدبر" ويطلق على اثنين مشهورين هما صمونيل بن يوسف (اسماعيل أو اشموال بن يوسف) ويوسف ابنه، وقد كان اسماعيل عالما وزر لصاحب غرناطة، وخلفه ابنه يوسف فأساء التصرف فيما يبدو ، فثار الناس عليه وقتلوه ، ولكن ابن بسام ينسب أفعال الابن إلى أبيه ، ويتابعه فى ذلك ابن سعيد فى المغرب" (١) والثابت على كل حال ان مكانة ابن النغرلة كانت عالية عند باديس ، لأن هذا اليهودى الماكر جعل أمير غرناطة سجينا للملذات والخمر ، وسعى (هو أو أبوه) لتمكين ابن صمادح - صاحب المرية - من الاستيلاء على غرناطة، كما أرهق أهل المدينة بالضرائب الباهظة، ومكن اليهود فى المقابل من المناصب البارزة، وهذا كله عمل على إلهاب مشاعر مسلمى غرناطة الذين صبروا طويلا على هذا العبث من ابن النغرلة، وهذا التراخى من باديس بن حبوس، وكان أن انفجر الموقف فى التاسع من صفر سنه ٤٥٩ (٣٠ من ديسمبر ١٠٦٦) واذا بالجموع الغاضبة تفتك بالوزير اليهودى وتقتل بضعة آلاف من بنى جلدته، وتشيع الخراب والدمار فى أحياء اليهود بغرناطة .ويجعلون من أسباب اشتعال الثورة ضد اليهود تلك القصيدة التى أشرنا اليها فى مستهل هذا الحديث ، وهى لشاعر اسمه أبو الإسحاق الإلبيرى، هو الذى نتناوله الآن فى إيجاز .

---

(١) هامش الذخيرة، المجلد الثانى من القسم الأول ، ص ٧٦١ ولابن حزم رسالة الرد على ابن النغريلة، تحقيق د. احسان عباس، القاهرة سنه ١٩٦٠. وذكر ابن بسام بعض مدائح فيهم ألفها شاعر يدعى المنفتل .

(٢) ذكر ابن بسام أن عدد القتلى نيف على أربعة الاف - ص ٧٦٩ من القسم الأول - فى حين يقول جومث فى :مع شعراء الأندلس والمتنبى ، الطبعة الثالثة - بترجمة د. الطاهر مكى - ص ٩١ أن عدد القتلى ثلاثة آلاف

وهناك أمور متفق عليها بالنسبة له، منها ان اسمه ابراهيم بن مسعود التجيبى ، وأن كنيته أبو اسحاق ، وأنه ينسب الى مدينة البيرة، (التى نفى اليها بتحريض من ابن النغرلة) ، ونقل ابن سعيد عن صاحب المسهب أنه "من حصن العقاب ، وكان قد اشتهر فى غرناطة اسمه ، وشاع علمه ، وارتسم بالصلاح، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغرله اليهودى ، وعلى أهل غرناطة انقيادهم له ، فسعى فى نفيه الي ألبيرة ، فقال شعره المشهور :

ألا قل لصنهاجة أجمعين

بدور الزمان وأسد العرين

فاشتهر هذا الشعر ، وثارت غرناطة على اليهودى فقتلوه وعظم قدر أبى إسحاق" (١)

وذهب لسان الدين بن الخطيب الى مثل هذا القول - مع بسط وتفصيل - إذ يذكر استفحال شأن ابن نغرالة "الى أن طرق جاهه الاعتلال، وأسرع الى حاله الاختلال ، وكثرت فيه الأقوال، ورمى بمداخلة ابن صمادح صاحب المرية فى تصيير ملك باديس إليه . وحفظت القصيدة المنسوبة الى المولى العابد أبى إسحاق الألبيرى - رضى الله عنه :ألا قل لصنهاجة أجمعين (وأوردها كاملة) فثار بهم صنهاجة، وقد تيقنوا إعراضه عنه وعمله على نكبته ، وزحفوا على داره، وقد تبعتهم العامة، فاقتحموها وانتهبوها. وأخفى اليهودى نفسه فى بيت ملآن فحما ، وسود به وجهه وتنكر ، فأخرجوه وقتلوه ، وصلبوه على باب المدينة، وقتل فى هذا اليوم آلاف من اليهود.."

وفى هذه الإشارات مايجعل من قصيدة الألبيرى الشرارة التى فجرت

---

(١) المغرب جـ ٢ ص ١٣٣

المعمعة، بينما لايأتى عنها فى مصادر أخرى أدنى إشارة تدل على صلتها بالأحداث، فمن ذلك أن ابن بسام يجعل ثورة أهل غرناطة مقرونة باكتشاف ماكان من أمر التواطؤ بين ابن النغرلة وابن صمادح - الذى تحدثنا عنه قبلا - وربما كان أرجح الآراء أن عوامل كثيرة أسهمت فى صنع هذه الأحداث ، منها عكوف باديس على ملذاته الي حد أنه لم يعد يرى من الأمر شيئا ، ومنها تسليمه كافة مقاليد الأمور الى ذلك الوزير اليهودى الداهية، الذي لم يكف طيلة عهده عن التآمر والغدر ونهب الأموال وسوء الإدارة والاستهتار بالرعية والدين ، ومنها أيضا تلك القصيدة المتفجرة بالقوة وصدق التعبير والتى تقول أبياتها :

ألا قل لصنهاجة أجمعين
بدور الزمان وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة
تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا
ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا
وتاهوا ، وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى
فحان الهلاك ومايشعرون

هكذا تأتي البداية ملائمة لجلال الموقف العاصف، وتتجلى البراعة فى

(١) أعمال الأعلام (تاريخ اسبانية الإسلامية) تحقيق ل. بروفنسال بيرنت ١٩٥٦ ص ٢٣٣

توجيه الخطاب الى صنهاجة - الى شعب غرناطة - وكأننا أمام خطبة أو "منشور"، وهى نغمة قليلا ما نصادفها فى الشعر العربى حيث إما المديح وإما الهجاء، ويتلو ذلك ذكر لتولى ابن النغرلة الوزارة، ومابلغه اليهود من شأو (موقوت)

ثم يتابع الإلبيرى الحديث :

فكم مسلم فاضل قانت
لأرذل قرد من المشركين
وماكان ذلك من سعيهم
ولكن منا يكون المعين
فهلا اقتدى فيهم بالألى
من القادة الخيرة المتقين
وأنزلهم حيث يستأهلون
وردهم أسفل السافلين
وطافوا لدينا بأخراجهم
عليهم صغار وذل وهون

ولكن الشاعر ، لأمرما ، يعدل عن المضى فى تبكيت باديس، فبعد أن قال إنه زل زلة شنعاء، نراه يوجه له الخطاب قائلا :

أباديس أنت امرؤ حاذق
تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف اختفت عنك أعيانهم
وفى الأرض تضرب منها القرون
وكيف تحب فراخ الزنا

وهم بغضوك الى العاليمن

وكيف يتم لك المرتقى

إذا كنت تبنى وهم يهدمون؟

ثم يضيف :

وإنى احتللت بغرناطة

فكنت أراهم بها عابثين

وقد قسموها وأعمالها

فمنهم بكل مكان لعين

وهم يقبضون جباياتها

وهم يخضمون وهم يقضمون

وهم يلبسون رفيع الكسا

وأنتم لأوضعها لابسون

ولكن لهجة الشاعر لباديس فيها محاولة لإيقاظه من غفلته وليس فيها خنوع أو مذلة . إنه يهتف به :

وهم أمناكم على سركم

وكيف يكون خؤون أمين

ويأكل غيرهم درهما

فيقصى ويدنون إذ يأكلون

وقد لابسوكم بأسحارهم

فما تسمعون ولا تبصرون

ورخم قردهم داره

وأجرى إليها نمير العيون

فصارت حوائجنا عنده

ونحن على بابه قائمون

وقد عرفنا من أمر فرط ثقة باديس فى ابن النغرلة ومع ذلك فإن الشاعر يغريه فى هذه القصيدة بأن يفتك به ، ويستعين فى تسويغ ذلك بمحاولة اثارة النخوة فى نفس ملك غرناطة :

فبادر الي ذبحه قربة

وضح به فهو كبش سمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه

فقد كنزوا كل علق ثمين

وفرق عداهم وخذ مالهم

فأنت أحق بما يجمعون

ولا تحسبن قتلهم غدرة

بل الغدر فى تركهم يعبثون

وقد نكثوا عهدنا عندهم

فكيف تلام على الناكثين

وكيف يكون لهم ذمة

ونحن خمول وهم ظاهرون

ونحن الأذلة من بينهم

كأنا أسأنا وهم محسنون

فلا ترض فينا بأفعالهم

فأنت رهين بما يفعلون

وراقب إلهك فى حزبه

فحزب الإله هم الغالبون

وقد أوردنا معظم أبيات هذه القصيدة التى شغل الناس بتحليل جوانبها التاريخية، ولكنها جديرة بأن تنال كذلك قدرا من الاهتمام بأبعادها الفنية والجمالية ، ولسنا نزعم أن الألبيرى من الشعراء الفحول ، ومع ذلك فأى براعة تجلت فى اختيار هذا النسق اللغوى الواضح البسيط الذى يخاطب الأذن ويتسلل الى الوجدان مباشرة بلا أدنى كلفة؟

وتأتى الموسيقى الصادحة لتتواءم تماما وروح القصيدة ، التى تنتهى أبياتها بحرف النون الساكن، بكل مافيه من رنين وأصداء ، تعضدها صور شديدة الوضوح والبساطة ومن هنا لا نكاد نصادف شيئا من الافتعال حتى في حالات تعارض الصور مثل " وكيف تحب ... وهم بغضوك.." ومثل :...إذا كنت تبنى وهم يهدمون ، و "كيف انفردت بتقريبهم ... وهم من المبعدين ".

ومن جوانب التوفيق فى نونية الألبيرى الاستعانة بالمعانى الدينية الإسلامية وهذا يلغ ذروته فى البيت الأخير الذى يخلف فى نفس السامع أثرا قويا يظل يرن فى الاذان طويلا ، محققا الغاية التى رمى اليها هذا النص الذى يتفجر بالقوة والغضب والحيوية والصدق والمهارة الفنية .

لمحة عن

الشعر فى عصر المرابطين والموحدين

مدخل:

لعل القرنين الخامس والسادس أعظم عصور الأدب فى الأندلس ، وبحسب المرء أن يختبر كتبا مثل الذخيرة والقسم الأندلسي من الخريدة وكذلك مطمح الأنفس وقلائد العقيان والمغرب والمطرب ..الخ لكى يطمئن الى هذه النتيجة ونسلم بأن درس هذا النتاج الأدبى مسألة محفوفة بالعديد من الصعوبات ، فهل ندرسه بحسب العصور أم وفقا لتقلب الأوضاع السياسية أم تبعا للاتجاهات الفنية - ان كانت هناك اتجاهات واضحة المعالم - ؟

ولعل الأجدى أن نتفق على أن الأدب الأندلسى "مجرد فترة من تاريخ الأدب العربى.. لا يقتصر ارتباطها على حياة الأقطار العربية وحدها، وعندما يجرى الحديث عن تطور الثقافة العالمية فإن هذا الماضى يعطينا مثالا واضحا لتمييز الحدود بين الشرق والغرب ، ويدخل الشعر العربى في الأندلس فى نطاق الثقافة والأدب العالمى لا لمجرد أنه نما وتطور على أرض احدى الدول الغربية .. المهم هو أن الفترة العربية فى الأندلس هى فترة التأثيرات الأدبية العميقة الواسعة التى تسمى جوازا بالتفاعلات الغربية - الشرقية أو على وجه التحديد الرومانية العربية؛ [(١)] وهذا يبلغ مداه فى الفترة التى نحن بإزائها

أما "أندلسية" هذا الشعر فإن استخلاصها يحتاج الى هوادة وتمعن،

(١) كراتشكوفسكى: الشعر العربى فى الأندلس ، ترجمة د. محمد منير مرسى ، القاهرة ١٩٧١ ، ص٩

فالأصول الفنية التي حكمت شعر المشرق هي التى امتدت الي المغرب، ومن الصعب إطلاق أحكام صارمة ترسم الفروق بين هذا وذاك، ولكن يمكن القول بأن أهل الأندلس كانوا فى هذه الفترة أقل شغفا بالبديع من نظرائهم بالمشرق وقارن بين أعمالهم وبين أدباء مثل القاضى الفاضل وابن قلاقس وابن سناء الملك، على سبيل المثال وهذه النتيجة نستخلصها فى شئ من الاطمئنان من خلال التأمل فى أعمال شعراء الأندلس العظام فى القرن السادس الهجرى، ممن سلمت دواوينهم من الضياع أوجمعت أشعارهم فى العصر الحاضر، وهناك - على سبيل المثال لا الحصر - الأعمى التطيلى الأديب الوشاح (ت ٥٢٧ق) وابن حمديس الصقلى (ت٥٢٧ هـ) وابن خفاجة (٥٣٣هـ) ... وانتهاء بأبى بكر بن زهر .الحفيد) المتوفى سنة ٥٩٥هـ، وكل منهم أبدع فى شعره غاية الإبداع، وصفا طبعه فبعد عن التكلف كل البعد .

وامتدادا من النقطة السابقة نشير الى عدم احتفاء هؤلاء الشعراء بمنزع التوليد العقلي الذى أغرم به كثير من شعراء المشرق آنذاك، حيث دفعتهم الرغبة في الابتكار إلى الوقوع فى شراك التكلف والاتكاء على الأفكار والمصطلحات العلمية والفقهية ومإلي ذلك[1] وهو مالانراه عند الأندلسيين إلا فى القليل النادر

وهذا كله أدى إلى أن يكون النص الشعري الأندلسي، بصورة عامة، واضح النسق ، مترابط البنيان ، لا يلجأ عادة الى المقدمات الشكلية، ويغلب عليه الميل إلى التشخيص والتفاعل مع الطبيعة والحياة [2] ويجنح الشعر الأندلسى إلى التعبير عن مدى إقبالهم على الحياة وشغفهم بكل مايحيط بهم

---

(١) للمزيد من التوسع يراجع : د. حكمت الأوسى: الشعر فى عصر الموحدين ص ٢٤٣

(٢) راجع فى دلك كتاب ب. عبدالعزيز الأهوانى: ابن سناء الملك ومشكة العقم والابتكار فى الشعر ، وانظر كتابنا : النصوص الصقلية، والمراجع المذكورة فيه .

من جمال وترف ونضارة ولذا جاء هذا الشعر فى معظمه واضح الأفكار والتراكيب والصور ، وقد يوصف بالسطحية وعدم الجزالة وقلة التأنق إلى آخر ما يطلقه أصحاب الأذواق "الكلاسيكية" من أحكام قاسية لاتخلو من تعسف .

ويلاحظ ، على كل حال، أن الشعر الأندلسى أكثر "رومانسية" من الشعر المشرقى وهذه بدورها مقولة ضخمة تحتاج الى مزيد من الشرح والاستدلال والتحديد ، فضلا عن أن تحديد "الرومانسية" (١) أمر معقد، وكل مانريد أن نقوله الان فى إيجاز ان الحدة العاطفية تبدو أشد توهجا فى الأندلس منها فى المشرق، على الأقل ابان تلك الفترة التي نتعرض لها، والتى ضمت شعراء مثل ابن خفاجة الأندلسى ، وابن الزقاق البلنسى ويحيى بن بقى وأمية بن أبى الصلت وابن اللبانة والأعمى التطيلى وابن مجبر وابن زهر الحفيد الخ ، ممن سوف نتناولهم وممن لا يتسع المجال للحديث عنهم تفصيلا .

ومن منا لم تتحرك أحاسيسه وهو يقرأ قصيدة ابن خفاجة " فى الاعتبار":

بعيشك هلى تدرى أهوج الجنائب
تخب برحلى أم ظهور النجائب
فما لحت فى أولى المشارق كوكبا
فأشرقت حتى جبت أخرى المغارب
وحيدا تهادانى الفيافى فأجتلى
وجوه المنايا فى قناع الغياهب

---

(١) لا نعنى بالرومانسية هنا المدرسة الرومانتيكية التى شاعت فى الشعر الأوربى فى أخريات القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر، ولكن المقصود منها الأدب الذى تسيطر عليه الأخيلة والانفعالات الحارة والانغماس فى الذات .

وأشهر مافيها قوله فى وصف الجبل :

وأرعن طماح الذؤابة باذخ
يطاول أعناق السماء بغارب
يسد مهب الريح عن كل وجهة
ويزحم ليلا شهبه بالمناكب
وقور على ظهر الفلاة كأنه
طوال الليالى مطرق فى العواقب
يلوث عليه الغيم سود عمائم
لها من وميض البرق حمر ذوائب
أصحت اليه وهو أخرس صامت
فحدثنى ليل السرى بالعجائب(١)

ومن هذا الطراز قوله ابن جبير البلنسي:

غريب تذكر أوطانه
فهيج بالذكر أشجانه
يحل عري صبره بالأسى
ويعقد بالنجم أجفانه

وقول أبى الحسن بن مطرف، من شعراء مجموعة "زاد المسافر" :

أنا صب كما تشاء وتهوى
شاعر ماجن خليع جواد

(١) راجع القصيدة فى ديوانه (طبعة د. سيد غازى ص ٢١٦

أرضعتنى العراق ثدى هواها

وغذتنى بظرفها بغداد

راحتى لوعتى وإن طال سقم

وتمادي على الجفون سهاد

سـنة سـنها قديمـا جميـــل

وأتى المحدثون مثلى فزادوا

على أن الشعر الأندلسى لم يكن كله شعر لهو وغزل وهيام فى رحاب الطبعية فقد خاض فى مختلف مجالات التعبير ، والتصق بالخلفاء والأمراء وذوى الجاه ، وتناول كذلك المعارك فهلل للانتصارات، ونقب عن الأعذار عند الهزيمة، وتحول أحياناً إلى مايشبه "البيانات" الحماسية الناطقة باسم الدولة، فمن ذلك أن الخليفة أبا يعقوب يوسف أمر بأن تذاع فى قبائل افريقية قصيدة تحضهم على ترك الخلافات والتأهب للجهاد لنصرة الأندلس، فكتب علي اثر ذلك طبيبه الفيلسوف أبو بكر ابن طفيل قصيدة طويلة مطلعها:

أقيموا صدور الخيل عند المضارب

لغزو الأعادى واقتناء الرغائب (١)

ومن أبياتها :

ألا فابعثوها همة عربية

تحف بأطراف القنا والقواضب

أفرسان قيس من بنىّ ابن عامر

وماجمعت من طاعن ومضارب

(١) انظر الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ ٢ص ٤٧٩

لكم قبة للمجد شدوا عمادها

بطاعة أمر الله من كل جانب

كما أمر الخليفة بأن توجه قصيدة ثانية فكتب ابن عياش الكاتب على الأثر :

أقيموا الى العلياء عوج الرواحل

وقودوا الى الهيجاء جرد الصواهل

وقوموا لنصر الدين قومة ثائر

وشدوا الى الأعداء شدة صائل

فما العز إلا ظهر أجرد سابح

يفوت الصبا فى شده المتواصل

وأبيض مأثور كأن فرنده

على الماء منسوج وليس بسائل

ومن أبرز شعراء هذه الفترة عباس الجراوى (منافس ابن مجبر، وسنعرض له بعد قليل)، وله عشرات القصائد فى مدح الخليفة أبى يعقوب يوسف ثم ابنه المنصور ، وله فى التهنئة بانتصاره على بنى غانية وفتح قفصة قصيدة ذكر منها ابن عذارى عشرين بيتا، يستهلها بقوله :

فتح يطاول فتحه الأحقابا

خضعت له فرق الضلال رقابا

واستشعر المراق منه مخافة

ملكت عليهم جيئة وذهابا

وغدا به ماقد صفا من عيشهم

كدرا ومافيه الحلاوة صابا

ويقول فى وصف الانتصار:

آيات نصر بينات كلها

بهرت بما جاءت به الألبابا

خصت إماما للبرية مجتبى

برا تقيا خاشعا أوّابا

ملك عليه مسحة ملكية

ليس الزمان جمالها جلبابا

وللجراوى قصيدة قالها يهنئ المنصور باستيلائه على مدينة شلب من أيدى فرنجة البرتغال:

إياب الإمام حياة الأمم

توالى السرور به وانتظم

وجاء به الأرض صوب الحيا

وجلى الظلام به بدر تم

فتوح عظام جناها الزمان

لذى همم دونهن الهمم(١)

وإذا كان هذا النمط من الشعر يزخر بالخطابية وإضفاء شتى النعوت على الممدوحين، والقدح فى الأعداء بكل السبل فإن فى بعض نماذجه ما يفصح عن شاعرية أصيلة تفاعلت مع المواقف، ومزجت مزجا حيا بين ذات الأديب وشخص

الممدوح وجلال الأحداث ، (على ماسترى فى كثير من شعرابن مجبر) وتوهج الشاعرية، كما فى مدحة ابن حزمون التى وجهها للخليفة المنصور فى أعقاب النصر يوم "الأراكة" :

حيتك معطرة النفس
نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم
إن الإسلام لفى عرس
أ إمام الحق وناصره
طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى
فدنا التوفيق لملتمس
ورفعت منار الدين على
عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما
صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جموعهم فغدوا
فرسا فى قبضة مفترس
جاؤوك تضيق الأرض بهم
عددا لم يحص ولم يقس
ومضيت لأمر الله على
ثقة بالله ولم تخس

فأناخ الموت كلا كله

بظباك على بشر نجس

وتساوى القاع بهامهم الـ

ـمرفض مع الحدب الضرس

فأولئك حزب الكفر ألا

إن الكفار لفى نكس

وهكذا ننتهى من هذه العجالة الموجزة عن الأدب فى القرن السادس الهجرى فى الأندلس ، وهى فترة نهضة أدبية وعلمية وحضارية أحيت التألق الذى كانت عليه البلاد على أيام دول الطوائف ومحت جالة الركود الفكرى التى سادت علي زمن المرابطين، كما أن هذا القرن كان عصر قوة نسبية للمسلمن هناك، وهكذا تفتقت الطاقات الفنية لمن ذكرنا من شعراء، وشهدت الأندلس كذلك عبقريات فى مجال الفكر مثل ابن رشد، وظهر فى مضمار الطب أبو بكر بن طفيل وفى النحو ابن مضاء صاحب "الرد على النحاة" وفى هذا القرن بلغت الموشحات ذروة تألقها كما انتشرت فيه الأزجال على يدى أبى بكر بن قزمان، وظهرت فيه نخبة طيبة من روائع كتب الأدب مثل "الذخيرة" لابن بسام وقلائد العقيان والمطمح لابن خاقان ، وزاد المسافر لصفوان بن ادريس الخ ...

الأعمى التطيلي :

ان هذا الشاعر الفذ (أبو جعفر - وأيضا أبو العباس - أحمد بن عبدالله بن أبي هريرة أو ابن هريرة) ينحدر من أصول عربية (من القيسية) وعادة ماينسب إلى تطيلة Tudela - وهى غير طليطلة - وتقع قريبا من سرقسطة، من الثغر الأندلسى الأعلى ، وينسب أيضا لإشبيلية ، ومن الملاحظ أن المعلومات عنه قليلة للغاية، وكل مايرد عنه (باستثناء المختارات الشعرية) لا يتجاوز الأسطر القليلة، فمن ذلك مايأتي فى "الوافى بالوفيات" وفى "نكت الهميان" ..الخ، وعلى الرغم من أن ابن بسام خصص له خمسا وعشرين صفحة إلا أنها فى مجموعها مختارات شعرية ونثرية ، يتصدرها قوله :" وله أدب بارع ، ونظر فى غامضه واسع، وفهم لايجارى وذهن لايبارى ، ونظم كالسحر الحلال، ونثر كالماء الزلال، جاء فى ذلك بالنادر المعجز فى الطويل منه والموجز، نظم أخبار الأمم فى لبة القريض ، وأسمع فيه ماهو أطرف من نغم معبد والغريض . وكان بالأندلس سر الإحسان وفردا فى الزمان، إلا أنه لم يطل زمانه، ولا امتد أوانه ، واعتبط عندما به اغتبط؛ "(١)

ولاتكاد المصادر الأندلسية الأخرى التى ترجمت له (مثل قلائد العقيان والمغرب والبغية والروض المعطار) تضيف شيئا ذا بال، والمتفق عله أنه توفى سنة ٥٢٥ مما يرجع معه أنه ولد فى ظل دولة المرابطين، وفى عهدم فارق الحياة

(١) القسم الثانى من الذخيرة ، ص ٧٢٨ ، وراجع عنه أيضا :
العماد الأصفهانى : خريدة القصر (ط. تونس)
ابن فضل العمرى : مسالك الابصار .مصورة منها ص ٢٦٧ من السفر السابع عشر

وليس هناك - من بعد - الا حفنة من المعلومات عن الشاعر تستمد بصورة أساسية من ديوانه ، ويلاحظ أن أديبنا لايشير قط الى تطيلة ، فى حين أنه كثيرا مايذكر اشبيلية، التى نشأ بها على نحو مايقرر الصفدى لكنه يبدو بها ملولا أحيانا:

مللت حمص وملتنى فلو نطقت

كما نطقت تلاحينا على قدر

ويقول فى بائيته "عتاب على الدنيا وقل عتاب" :

وقائلة مابال حمص نبت به

ورب سؤال ليس عنه جواب

نبت بى فكنت العرف فى غير أهله

يعود على أهليه وهو تباب

فبالله مااستوطنتها قانعا بها

ولكننى سيف حواه قراب

أيغضب حسادى قيامى إلى العلا

وقد قعدوا لما ظفرت وخابوا

بل أن ديوانه يستهل بقصيدة "يحرض فيها أهل اشبيلية على رجل عسوف "- ٢ -:

الي الله أشكو الذى نحن فيه

أسى لاينهنه منه الأسى

على مثلها فلتشق القلوب

مكان الجيوب والا فلا

فشا الظلم واغتر أشياعه

ولا مستغاث ولامشتكى

"وماذا بحمص من المضحكات

ولكنه ضحك كالبكا"

والتطيلى كثيراً مايتشكى الفقر:

الحمد لله وشكرا له

لا طارف عندى ولا تالد

صرت ولا أنبيك عن غائب

فى حالة يرثى لها الحاسد

حولى أفراخ كزغب القطا

ليلى من هم بهم ساهد

ووسط هذا الجو القاتم من الشكوى والتبرم تنداح مدائح التطيلى لتشغل معظم الديوان وبعض منها قيل فى على بن يوسف بن تاشفين، ثانى ملوك المرابطين ، وكان وقتها وليا للعهد :

جنابك للعلا حصن حصين

وذكرك للمنى دنيا ودين

وأدنى غايتيك لها أمان

وكلتا راحتيك بها يمين

أهاب بك الزمان إمام عدل

فلبته بك الحرب الزبون

حساما ماانتضاه الدهر الا

ليعلم من يفى ممن يخون

وآخر أبياتها:

ولى العهد لى بهواك عهد

كأن مدائحى منه يمين

سددت مقاقرى وأشدت باسمى

فذل الصعب وانقاد الحرون

وخيل لى الغنى فنطقت عنه

لعلمى أنه مما يكون

وقد بويع على بن تاشفين أميرا للمسلمين سنه ٥٠٠ هـ ، مما يقطع بأن قصيدتنا هذه قيلت قبل هذا التاريخ .

وللتطيلى مدائح كثيرة فى عدد من قواد المرابطين ووزرائهم ورجالاتهم فمن ذلك ماقاله فى الأمير سير بن أبى بكر اللمتونى (ابن عم يوسف بن تاشفين) الذى يعود له الفضل فى الاستيلاء علي أهم ممالك "الطوائف" :

أقل ماتهب الأعمار والدول

ودون ماتتعاطى القول والعمل

ومن أبياتها :

ياأيها الملك الميمون طائره

يابدر يابحر ياضرغام يارجل

أتاركى لصروف الدهر تلعب بى

وقد حدانى اليك الحب والأمل

كما مدح القائد ابا الحسين بن الربيع بقصيدة طويلة فى ثمانية وسبعين بيتا أولها:

تلاف فلانا وأخلف فلانا

كفانا منى وكفانا امتنانا

وطاول بعمرك عمر السهى

فأبل زمانا وجدد زمانا

ومن أبيات المديح فيها:

ركبت الملوك وأركبتها

تكف الجماح وتكفى الحرانا

وأشبهت آباءك الأولين

عرضا عزيزا ومالا مهانا

ولعل الجديد فى مدائح التطيلى أن بعضا منها قيل فى الأميرة حواء زوجة ابن سير ، مثل قصيدته :

ياربع ناجية التى انهلت بها السحب

أما ترى كيف نابت دونك النوب

ولمقطع المديح تمهيد جميل يقول فيه :

هبت تعاتبنى زهر وقد علمت

أن العتاب شجى فى القلب أو شجب

قالت : قعدت وقام الناس كلهم

ألا يعللك الإثراء والرتب

فقلت كفى فما تغنى مقارعتى

في أمة ضاع فى أثنائها الأدب

فاستضحكت ثم قالت: أنت فى سعة

من أن تسيم، وهذا الماء والعشب

أما رأيت ندى حواء كيف دنا

بالغيث اذ كاد يأتى دونه العطب

مليكة لايوازى قدرها ملك

كالشمس تصغر عن مقدارها الشهب

وفى ديوان التطيلى بعض قصائد فى الرثاء وغيره إلا أن براعته إنما تتمثل بصورة أساسية فى المديح وفى شعر الغزل ، وهناك مايدل علي أنه تعلق بقينة تدعى "لذيذة" وله فيها قصائد أوردها صاحب "الذخيرة" فمن ذلك قوله:

النوم بعدكم على محرم

من ذا ينام وقلبه يتضرم

ومن أبيات هذه القصيدة (مما لايوجد فى ديوانه) :

ماء الحياة وقد نأيتم آسن

رنق ووجه الدهر جهم مظلم

قد بان عنى الصبر لما بنتم

والوجد ينجد فى الفؤاد ويتهم

ماكان أكتمنى لسري قبل أن

تكف الدموع كأنما هى عندم

فإذا عهدت جماعة واعتادنى

تذكاركم فاضت دموعى تسجم

أعتبتكم فعتبتم وأطعتكم

فعصيتم ووصلتكم فهجرتم (١)

قد كان لى فى هجركم لو أننى

أقوى عليه من السلامة سلم

ولقد علمتم أننى قد رمته

فضعفت عنه فافعلوا ماشئتم

أنتم مناى وفيتم أو خنتم

ولكم هواى دنوتم أو بنتم

وهو شعر غاية فى السلاسة ، يتفجر من قلب مترع بالشعور ، ومن قلب أوتى الفصاحة والقدرة علي تجسيم المعانى ورسم الصور الحية المتألقة المتدفقة بالفن والجمال ..

هذه لمحة عن الأعمى التطيلى الذى عد من اعظم شعراء عصر المرابطين، أى ذلك العصر الذى هيمن فيه البربر علي مقاليد الأمور فى المغرب والأندلس ، واهتزت فيه مكانة الشعراء تبعا لذلك فى حين تصدر الفقهاء - من أصحاب مالك - مما دفع بشاعرنا لأن يصرخ :

أيا رحمة للشعر أقوت ربوعه

على أنها للمكرمات مناسك

---

(١) البيت فى الذخيرة ، القسم الثانى ص ٧٣٩ : علي هذا النحو :

أعتبتم فعتبتم وأطعتم

فعصيتم ووصلتم فهجرتم

وللشعراء اليوم ثلت عروشهم

فلا الفخر مختال ولا العز تامك [1]

فيا دولة الضيم اجملي أو تجاملي

فقد أصبحت تلك العرى والعرائك

ويا "قام زيد" أعرضي أو تعارضي

فقد حال من دون المنى قال مالك!

ومع ذلك فقد عاش شعر التطيلي وتغنى به العارفون بفضله في الشرق والغرب ، وألفت عنه الكتب والرسائل [2] وأما الموشحات فإنه بلغ فيها الغاية، ولهذا حديث في غير هذا المكان ..

---

(١) تامك : مرتفع .

(٢) راجع عنه :

عبد الحميد عبدالله الهرامة: الأعمى التطيلي ، طرابلس (ليبيا) ١٩٨٣

ومقدمة ديوانه بتحقيق د. احسان عباس ، بيروت ١٩٦٣

ابن مجبر المرسى

هذه وقفة أمام شاعر ينتمى إلى عصر الموحدين ، بل هو "شاعر عصره" كما يشير إلى ذلك كثير من المؤرخين ، ومع ذلك فإن اسمه غاب فى زحام الأحداث ، فلم يعد القارئ يصادفه ولو عرضا فى المؤلفات العامة عن تاريخ الأدب الأندلسى ، بل لم يعد يقابله إلا نادرا فى الدراسات التى عقدت حول الحياة الأدبية فى عصر الموحدين .

ومحاولتنا هذه تهدف إلى إلقاء بعض الضوء على حياة وأعمال هذا الشاعر المبدع، وقد عرضنا له فى كتاب مستقل تناول عصره ، من زواياه المختلفة، وحياته، مع جمع لما بقى فى المصادر من عيون شعره، وهناك أيضاً زاوية هامة نلمع إليها فى إيجاز ، وهى أنه كان كذلك صاحب اسهام فى مجال التوشيح (ومن عجب أن كافة المراجع الحديثة لا تذكر شيئا البتة حول هذه النقطة) .

أما شاعرنا فهو بحسب تعبير الذهبى فى "سير أعلام النبلاء": "شاعر زمانه الأوحد ، البليغ أبو بكر يحيى بن عبدالجليل بن مجبر ، الفهرى المرسى ، ثم الاشبيلى : مدح الملوك، وشهد له بقوة عارضته ، وسلامة طبعه ، وفحولة نظمه قصائده التى سارت مثالا ، وبعدت منالا" (١).

---

(١) جـ ٢١ ترجمة ١٠٥ وانظر التكملة لكتاب الصلة والفوات ووفيات الأعيان (فى ثنايا ترجمة الخليفة المنصور) وبغية الملتمس للضبى الخ ...

وقال عنه ابن الابار :

" كان فى وقته شاعر الأندلس ، بل شاعر المغرب غير مدافع "

ووصفه ابن شاكر فى الترجمة التى عقدها له فى "الفوات" بأنه "شاعر الاندلس فى وقته ".

أما ابن خلكان فقد عرض له فى ثنايا الترجمة ليعقوب بن عبد المؤمن قائلا : "وكان من شعراء دولته أبو بكر يحيى بن عبدالجليل بن عبدالرحمن بن مجبر الأندلسى المرسى. ولقد نظرت فى ديوانه فوجدت أكثر مدائحه فى الأمير يعقوب"

وهناك إشارة أخرى للديوان تأتي فى "بغية الملتمس للضبى :أديب شاعر متقدم فى طريقة الشعر ، برع فيها وفاق أهل زمانه...ولقد رأيت شعره مجموعا فى سفرين ضخمين" .

وقد عرفنا من قبل أن شاعرنا مرسى اشبيلى، ونضيف إلى ذلك قول الحميري فى ثنايا ذكره لمدينة شقورة، من أعمال جيان بالأندلس:

"ومن شقورة أبو بكر بن مجبر ، الشاعر المفلق المجيد ، شاعر دولة عبد المؤمن".

كذلك فإن أبا بحر صفوان يذكر شاعرنا تحت اسم "أبو بكر بن مجبر من بلش" وبذا فإنه ينسب إلى أكثر من مدينة أندلسية، لكن نسبته إلى مرسية أقوى مما عداها.

وبقيت اشارة إلى تاريخ وفاته ، وفى ذلك لاتختلف المصادر كثيراً وقد أورد الذهبى أنه "مات بمراكش ليلة النحر سنة ثمان وثمانين وخمس مائة، كهلا، وقيل سنة سبع" وقد اتفقت المظان الأخرى على التاريخ الأول (سنة٥٨٨)

ورأينا ابن خلكان ينص على التاريخ الثانى (٥٨٧) وهناك اتفاق على أنه توفى بمراكش وهو ابن ثلاث وخمسين سنه ، وبذا يتحدد تاريخ مولده بسنة ٥٣٥ هـ.

ولم يرد فيما فحصنا من أعمال أى إشارة لمؤلفات لابن مجبر عدا ديوانه الذى عرفنا أنه كان ضخما ، فى سفرين ، وهذا الديوان ضائع الان، ولانملك من شعره إلا ماورد فى ثنايا ترجمته هنا وهناك، واحتفظت مجموعة "زاد المسافر" بأوفر قدر من شعر ابن مجبر (قرابة ست صفحات) وفى "الروض المعطار" عدد لا بأس به من الأبيات .

وعلى الرغم من ضآلة القدر الذى وصل إلينا من شعر هذا الشاعر الكبير فإن فيه مايكشف عن سماته العامة من حيث مادة هذه القصائد وقيمتها الفنية.

ومن البديهى أنه - وقد كان شاعر البيت الموحدي - سيكون شاعر مديح فى المقام الزول ، وسيأتى شعره حافلا بأنباء الانتصارات ومنازلة الاعداء وقهر المدن فى الأندلس وفى المغرب ، خاصة على زمن عقب بن يوسف ابن عبد المؤمن الذي شهدت أيامه عشرات المعارك الضارية ، فمن ذلك قصيدته:

أسائلكم لمن جيش لهام

طلائعه الملائكة الكرام

وقد ذكر الحميرى أطرافا منها عند الحديث عن "حمة مطماطة" ثم عاد إلها عند الحديث عن "عمرة" وهى فحص بأحواز قفصة هزمت عنده جيوش يعقوب بن عبد المؤمن ، ووقع فريق من كبار قواده فى الأسر ولجأمن جرح منهم إلى قفصة طمعا فى أن يجدوا الملاذ عند ابن غانية ولكنه نكل بهم، ووصلت أنباء الهزيمة إلى تونس فاستشاط يعقوب بن عبد المؤمن غضبا، وخرج بجيوشه لملاقاة جيوش ميورقة والأغزاز الذين أوقعوا برجاله الهزيمة عند "عمرة"، وكان له النصر

على أعدائه عند حمة مطماطة - على مقربة من قابس، وعلى أثر هذا الانتصار قال ابن مجبر قصيدته تلك التى أوردنا مطلعها، والتى يقول فيها:

تجاذب خيله اليمن اغتباطا
بعصمته ويخطبه الشآم
ويعطو المسجد الأقصى إليه
ويشرف نحوه البيت الحرام

ومنها:

مضى متقلدا سيفى مضاء
هما الإلهام والجيش اللهام
فسل ماحل بالأعداء منه
وكيف استئصل الداء العقام
لقد برزت إلى هول المنايا
وجوه كان يحجبها اللثام
وماأغنت قسى الغز عنها
فليست تدفع القدر السهام
كأن الحرب كانت ذات عقل
صحيح لم يحل به سقام
فأفنت كل من دمه حلال
وأبقت كل من دمه حرام

ولابن مجبر قصيدة أخرى بائية ترتبط ارتباطا وثيقا بوقائع استيلاء الموحدين على قفصة، والصراع بين العرب وابن عبد المؤمن وعلى بن غانية،

وكان يوسف بن عبد المؤمن قد استولى عليها بعد حصار عنيف فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وفى عهد يعقوب بن عبدالمؤمن نجح ابن غانية فى الاستيلاء على بجاية ومليانة ومازونة كما استولى على القلعة وتوزر وقفصة، وقوى مركز ابن غانية بعد هزيمة جيوش الموحدين فى وقعة عمرة إلا أن خروج يعقوب بن عبد المؤمن على رأس جيشه وانتصاره في موقعة حمة مطماطة وضع حدا لأطماع ابن غانية، وحوصرت قفصة حصارا عنيفا وضربت بأحجار المنجنيق، واستسلمت بعد مجازر وحرائق وطول تخريب ، وفى هذا يقول ابن مجبر :

ماغر قفصة إلا أنها اجترمت

فلم يكن عند أهل الحلم تثريب

مابالها زار أمر الله حوزتها

فلم يكن عندها أهل وترحيب

وتغنى ابن مجبر باسترداد يعقوب بن عبدالمؤمن لمدينة شلب، وكان ملك البرتغال ابن الرنق (سانشو بن هنريكس) قد حاصر المدينة وخاف أهلها من الهزيمة فسلموها له بكل ما فيها ، وثار يعقوب بن عبدالمؤمن حين وصلت إليه أنباء هذا الاستسلام وخرج من مراكش .سنة خمس وثمانين وخمسمائة فسار إلى رباط الفتح وبقى هناك إلى أن اجتمعت جيوشه ، واتجه - بحرا - من قصر مصمودة حتى وصل إلي جزيرة طريف ، وفى قرطبة عقدت له الرايات بمسجدها الجامع ، وفى ذلك أنشد ابن مجبر :

بشراي هذا لواء قل ماعقدا

الا ومد له الروح الأمين يدا

وأقبل النصر لايعدو مناحيه

فحيثما قصدت راياته قصدا

واستقبلته تباشير الفتوح وقد

كادت تكون على أكتافه ليدا

وكان هذا حقا بشيراً بالفتح فإن جيوش الموحدين أحاطت بالمدينة وشددت عليها الحصار ونصبت المجانيق واشتدت وطأة القتال حتي طلب الفرنجة الأمان على أن يسلموا المدينة للمسلمين ، وتم استرداد شلب سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وأنشد ابن مجبر فى هذه المناسبة قصيدة يقول فيها :

دعا الشوق قلبى والركائب والركبا

فلبوا جميعا وهو أول من لبى

وظلنا نشاوي للذى بقلوبنا

نخال الهوى كأسا ويحسبنا شربا

إذا القضب هزتها الرياح تذكروا

قدود الحسان البيض فاعتنقوا القضبا

وهناك نصوص أخرى مدحية فى الخليفة يعقوب أو فى بعض أبناء البيت الموحدي، مما لايرتبط بأحداث كبرى، مثل التهنئة بإبلال من مرض أو نحوه ، ولكن لا ينبغي أن يفهم من هذا أن شاعرنا توارت ذاته فى خضم متابعة الوقائع وإزجاء أبيات المديح ، بل إننا نحس فى مواضع كثيرة من شعر المديح نفسه بهذا الملمح الذاتى ينثال شفيفا متوهجا كما فى قوله :

أتراه يترك العذلا

وعليه شب واكتهلا

كلف بالغيد ماعلقت

نفسه السلوان مذ عقلا

غير راض عن سجية من

ذاق طعم الحب ثم سلا

نظرت عينى لشقوتها

نظرات وافقت أجلا

غادة لما مثلت لها

تركتنى فى الهوى مثلا

وهى قصيدة جميلة احتفظ ابن خلكان باثنين وثلاثين بيتا منها ، وأورد بعض أبياتها الذهبى فى سير أعلام النبلاء وصفوان فى زاد المسافر وابن شاكر فى الفوات الخ ...فهى - على هذا - أشهر قصائد ابن مجبر ، وبمضى مقطعها الغزلي على هذا المنوال الراقص المفعم بالبساطة وقوة التأثير .

ومن أجمل قصائده قوله :

سأستجدى صغيرا من كبير

وأرغب فى حصاة من ثبير

وفيها حديث عن فاقته ووحدته وغربته ، ووصف جواده الذى أضناه الهزال من شدة الجوع وطول التسيار فى البلاد:

ووجه العذر فى الأسفار باد

فلا أحتاج فيه إلى سفور

رأيت الحبة البيضاء عزت

فكيف يسير بي طاوى المصير

متى أصغى إلى تصهال طرف

يجبه بالعويل وبالزفير

وأورده المناهل وهي زرق
فيصدر بى عن الماء النمير
وإن أصفر ليشرب قال مهلا
أصفر الجوف يشرب بالصفير؟
أحس بوســـق أبعرة رأها
فأقبل يرتعى بعر البعير
ورام يســـير من طرب إليها
فقيده الهزال عن المسير

وفيما يبدو أن ابن مجير كان مفتوناً بوصف الخيل، وفى نفح الطيب اثنا عشر بيتا يصور فيها خيل الخليفة الموحدى بألوانها المختلفة وانطلاقاتها العاصفة وصورها المتألقة :

ترى كل طرف كالغزال فتمترى
أظبيا ترى تحت العجاجة أم طرفا
وقد كان فى البيداء يألف سربه
فربته مهرا وهى تحسبه خشفا
تناوله لفظ الجواد لأنه
إذا ماأردت الجرى أعطاكه ضعفا

ومن المقطوعات الجميلة التى تصور فاقته :

وقائلة تقول وقد رأتنى
أقاسى الجدب فى المرعى الخصيب

أما عطف الفقيه وأنت تشكو

له شكوى العليل إلى الطبيب؟

وقد مر الثناء بعطفيه

كما مر النسيم على القضيب

فقلت : على شكر وامتداح

وليس على تقليب القلوب

ولابن مجبر مقاطع فى الحكمة ، يجسم فيها المعنى من خلال صور واقعية بسيطة معبرة مثل قوله :

ليت الشباب الذى ولت غضارته

أعطانى الحلم فيما كان أعطانى

فلم تكن منة للشيب أحملها

ولم يكن من سرورى بعض أحزانى

وقد عده المقرى مما ينبغي أن يفاخر به أهل المغرب أهل المشرق، وذكر فنونا من ارتجالاته ودربته فى الوصف خاصة وصفه لمقصورة المسجد الجامع بمراكش ، وكانت مشيدة وفقا لتصميم هندسى بارع بحيث تضم الخليفة ووزراءه عند الصلاة، حتى إذا ماانصرفوا اختفت المقصورة .

والحق أن أوجه البراعة أرحب من أن تحصي عند ابن مجبر، وانظر إلى قوله من قصيدة فى مدح يوسف بن عبد المؤمن :

إن خير الفتوح ماجاء عفوا

مثل مايخطب الخطيب ارتجالا

تجد الشطرة الثانية تنفث فى المعنى حيوية لا تباري من خلال الإشارة إلى أمر عادى كثيراً مايقع فى الحياة اليومية ، ومثل قوله فى ضرورة اللين عند معاتبة الصديق:

وعاتبه لكن رويدا كما

تعض على الطفل عند اللعب

واللغة عنده تذوب رقة عندما يعرض لمواقف الغزل وتنداح حينئذ الموسيقى والصور المتألقة ، على نحو مافى قوله :

وزائرة والليل ملق رواقه

ومن أين للظلماء أن تكتم القمر ؟

حدرت نقاب الصون عن صفح خدها

فياحسن ماانشق الكمام عن الزهر

ولم يأت التساؤل فى الشطرة الثانية عبثا ، وكذلك صيغة التعجب فى البيت الأول، وانظر كذلك إلى أسلوب الاحتجاج فى مثل قوله مشيرا إلى مصرع عدد من رجالات الدولة ممن طواهم البحر:

إن الحمام الذى فى البحر غالهم

قد غال عثمان ذا النورين فى الدار

وبذا ينجح فى أن يعبر عن عشرات الأفكار التى تدور حول مصير الانسان وحول القضاء والقدر والحياة والموت ، ينجح فى التعبير عن كل هذا من خلال الصياغة الشعرية التى تعتصر المعانى وتختزن التجارب لتصبها فى سلاسة وعفوية خلال البيت الذى يتحدث عن مسألة من المسائل ولكن معناه ينفلت من إسار الجزئية الواحدة ليعبر عن الموقف الانسانى ، متجاوزا اسوار الزمان والمكان والأحداث .

أبو بكر بن زهر (الحفيد)

مما لا شك فيه أن اسم "ابن زهر" من المفاخر التى ظل التراث الأندلسى يباهى بها زمنا [(١)] ، فقد اقترن هذا الاسم بالعلم والأدب وسار جيلا بعد جيل، يحوطه التقدير والمهابة.

ورأس هذه الأسرة الفقيه محمد بن مروان بن زهر(ت٤٢٢ هـ) ، الذى سطع نجمه فى إشبيلية مع بداية ظهور دولة بنى عباد، إذ كان بحسب تعبير ابن بسام "أول من تثنى عليه الخناصر، وتشير إليه القلوب والنواظر، وتفتقر إلي ماالديه الألباب والبصائر"، فكان أن لقى من حسد بنى عباد وسوء ظنهم فيه ما اضطره للهجرة إلى شرقى الأندلسى "وأقام بها بقية عمره، بين جاهه ووفره ، وفى حصن حصين من سلامة سره وجهره" [(٢)].

ثم كان ماكان من أمر ابنه أبى مروان عبدالملك بن محمد "فما بلغ أشده حتى سد مسده، بل ماخلع تمائمه حتى استوفى مكارمه، وورث مباديه وخواتمه، ومال إلى التفنن فى أنواع التعاليم من الطب وغيره من العلوم ، فجمع شعاعها، واستوفى أجناسها وأنواعها .." .

---

(١) فى رسالة الشقندى فى المفاخرة بالأندلس (وترد فى نفح الطيب جـ٣ ص ١٩٣) يقول مخاطبا أهل المشرق "وهل لكم فى الطب مثل ابن طفيل صاحب رسالة حى بن يقظان المقدم فى علم الفلسفة ومثل بنى زهر أبي العلاء ثم ابنه عبد الملك ثم ابنه أبي بكر ثلاثة على نسق؟" .

(٢) انظر عنه :الذخيرة ، ص ٢١٩ من القسم الثانى ، والمطرب ص ٢٩٣، والوافى جـ ٥ ص ١٦ وبغية الملتمس ص ١٢٠ والصلة ص ٤٨٧ .

ولأبى مروان هذا رحلة مشهورة للمشرق و "تولى رياسة الطب ببغداد ثم بمصر ثم بالقيروان" على حد تعبير ابن دحية [١] وناهيك بذلك مكانة وعلو شأن وذيوع شهرة .

ثم نأتى للجيل الثالث من هذه الأسرة النبيلة، وهو الوزير أبو العلاء زهر ابن عبدالملك. يقول عنه ابن بسام: "وهو وإن كان فى وقتنا البحر الذى لم يبلغ بالتحصيل، والصبح الذى لايفتقر معه إلى دليل، فإنى أجريت ذكره فى نفس هذا الديوان نفسا، واجتلبت قطعة من شعره أقمتها للآداب عرسا" [٢] ويقول ابن دحية انه كان "وزير ذلك الدهر وعظيمه، وفيلسوف ذلك العصر وحكيمه" .

وكتب التاريخ والأدب حافلة بما يكشف عن أخلاق أبى العلاء بن زهر، وعلو باعه فى ميادين العلم والأدب ففى الذخيرة أن المعتمد بن عباد، بعد أن دالت دولته ووقع فى الأسر بأغمات ، لجأ لأبى العلاء بن زهر ليعالج بعض كريماته من علة أصابتها، وكان إذ ذاك فى المغرب فـ "سارع إلى تأتىّ مطلوبه ، ولم يلتفت إلى ماكان سلف بين سلفيهما من معانٍ ، قضتها صروف الزمان، واقتضتها حماية السلطان، فلاطف علاجها ، ورفع قدر المعتمد بالتبجيل ، ودعا له بالبقاء الطويل" وكانت بين الرجلين، على اثر ذلك، مراسلات شعرية غاية فى البراعة .

ثم نصل إلى أبى مروان: عبدالملك بن زهر (المتوفى سنه ٥٥٧)، صاحب كتاب "التيسير فى الطب" ، والذى يذكر أحيانا تحت عنوان: التيسير فى المداواة والتدبير، وقد شرقت شهرته وغربت ، حتى أنه "أثر أثرا بليغا فى الطب

---

(١) له ذكر فى العديد من المصادر مثل الذخيرة ، السابق، والذيل والتكملة جـ ٥ ص ٣٧ وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٦٤ .

(٢) الذخيرة ، السابق وانظر المطرب ص ٢٠٣ .

الأوربى ، وظل هذا التأثير إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادى ، وذلك بفضل ترجمة كتبه إلى العبرية واللاتينية " [1]واشتهر اسمه عندهم Avenzoar على نحو يكاد يدانى شهرة ابن سينا وابن رشد .

وقد نوه جونثالث بالنثيا طويلا بفضله، واعتبره سباقا فى مجال الفصل بين الجراحة والصيدلة والطب الباطنى، واعتبر كتابه "التيسير" - الذى أهداه لابن رشد - "خير ما ألف العرب فى الطب العربى ، فقد تحرر فيه من كل ما كان يقيد غيره من آراء نظرية، وهو يأخذ بما تؤدى إليه الملاحظة المباشرة".

هذه خطوط سريعة عن هذه الأسرة النبيلة التى اجتمعت فيها عبقرية العلم وعبقرية الأدب والفضل والنباهة جيلا بعد جيل .

ابن زهر (الحفيد) :

وهكذا نصل الى محمد بن عبدالملك بن زهر، الملقب بالحفيد (ربما على اعتبار أن أباه كان وزيراً ، وكان جده وزيراً أيضاً ، وإلا فإن أبا العلاء بن زهر أحق بلقب الحفيد من أبى بكر هذا ...)

وأبو بكر بن زهر (٥٠٧-٥٩٦) يعد ولا ريب أحد جهابذة القرن السادس فى ميادين شتى من أدب ولغة وعلم وسجايا. يقول عنه تلميذه ابن دحية: "وكان شيخنا الوزير أبو بكر - رحمه الله - بمكان من اللغة مكين ، ومورد من الطلب عذب معين . كان يحفظ شعر ذى الرمة، وهو ثلث لغة

---

(١) راجع مادة ابن زهر فى دائرة المعارف الإسلامية وهناك دراسة جامعة عنه وعن أسرته (بالفرنسية) كتبها جورج كولان. ومن مراجعه : طبقات الأطباء جـ٢ ص ٦٦، والتكملة ص ٦١٦ والمغرب جـ١ ص ٢٧ الخ ..

العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عند اصحاب المغرب (يقصد الموحدين) مع سمو النسب وكثرة الاموال والنشب "، ويقول عنه ابن الأبار فى "التكملة" إنه :

"انفرد بالإمامة فى علم الطب فى وقته، مع الحظ الوافر من الاداب واللغة والحفظ لأشعار الجاهلية والمولدين، وحدّث بالمقامات عن أبيه عن الحريرى، وإليه كانت رئاسة بلده ، وكان لا يعدله أحد من رجالات الأندلس فى الحظوة عند الأمراء ورفعةالمكانة، سمحا جوادا نفاعا بجاهه وبماله، وما أكثر ماأثنى مؤرخوه على تدينه وحفظه للقرآن الكريم ولصحيح البخاري بأسانيده ومتونه، كما أثنوا على ثقافته الأدبية. وقد مر بنا أنه كان يحفظ شعر ذى الرمة كله

ولا جدل فى أن ملكة الحفظ كانت عنده قوية للغاية ، ففى خبر آخر تأتي إشارة إلى أنه كان يحفظ شعر المتنبى بتمامه !

ولم يحل تدينه أو مكانته الاجتماعية الشامخة دون خوضه فى فنون الشعر من غزل وخمريات ونحو ذلك، وقد ضاع شعر أبى بكر بن زهر ألا قليلا، فمن ذلك ماجاء فى "زاد المسافر" :

وموسدين على الكف خدودهم

قد غالهم شرب الصبوح وغالنى

مازلت أسقيهم وأشرب فضلهم

حتى سكرت ونالهم مانالنى

والخمر تعلم كيف تأخذ ثارها

إنى أملت إنا ءها فأمالنى

وأيضا قوله ، من "زاد المسافر" :

مغنى خصيب وباب مرتج أبدا

والدف والزق والابريق والطاس

هذى الخلاعة لا شئ سمعت به

فاستغنم اللهو إن العمر أنفاس

ولى حبيب مليح الدل ذو غنج

حلو الشمائل ماقى لثمه باس

فإن تعذر أو عزت مطالبه

فالكاس والكيس : وسواس وخناس !

ولكن لابن زهر شعرا فى الاعتبار بالأيام ، ولعل ذلك من نتاج الشيخوخة - وقد عمر ابن زهر طويلا - فمن ذلك قوله

الموت جزار بلا مدية

لا أسد يبقى ولا ينقله

ولا شريفا من بنى هاشم

ولا وضيعا من بنى قندلة

ويقول :

لاح المشيب على رأسى فقلت له

الشيب والعيب لا والله ماجتمعا

ياساقى الكأس لا تعدل إلىّ بها

فقد هجرت الحميا والحميم معا

وقد يتجسم الموقف عنده فى شكل "مشهد" يذكر من بعض الوجوه بشعر يحيى الغزال، وقد أورد له صاحب وفيات الأعيان هذا النص:

إنى نظرت الى المرآة إذ جليت
فأنكرت مقلتاى كل مارأتا
رأيت فيها شييخا لست أعرفه
وكنت أعهده من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذى بالأمس كان هنا
متى ترحل عن هذا المكان، متى؟
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة.
ان الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادي ياأخىّ وقد
صارت سليمى تنادى اليوم ياأبتا

ولابن زهر براعة فى الموشحات بخاصة، وفى ذلك يقول صاحب "المطرب": "والذى انفرد شيخنا به وانقادت لتخيله طباعه، وأصارت النبهاء خوله وأتباعه: الموشحات، وهى زبدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته، وهى من الفنون التى أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضياء المشرق ؛ على أن للموشحات حديثا آخر، يطول فيه اللقاء مع ابن زهر ...

الموشحات الأندلسية

لعل الموشحات أهم الأشكال التي تفتقت عنها القريحة العربية، في سعيها الحثيث نحو الابتكار والتجديد فقد ظهرت قبلها وواكبتها ألوان أخرى متنوعة، بالفصحى وبالعامية، مثل المسمطات والدوبيت... الخ، ولكن كثيراً منها انطوت صفحته منذ أمد بعيد، أو عاش مغمور الشأن ضئيل الأثر، أما الموشحات فإنها ازدادت مع الأيام رونقاً، وشمل تأثيرها العالم العربي كله، بل والأكثر من هذا أنها تعدت نطاق العالم العربي، وظهرت على غرارها موشحات بالعبرية، فضلاً عن أن جمهرة من علماء الغرب تذهب الى أن الموشحات (والأزجال) تمثل الركيزة التي بنيت على أساسها أغاني التروبادور، إلى غير ذلك من قضايا تتجاوز نطاق هذه الكلمة.

والموشحات — في واقع الأمر — فن أندلسي خالص، بمعنى أنه لم يعرف في صورته الناضجة المكتملة إلا على أرض الأندلس، وليس في هذا الرأي ما يتعارض والقول بأن هناك أعمالاً ظهرت بالمشرق، يعدونها بمثابة الإرهاص أو التمهيد لظهور هذا اللون الجديد، الذي بزغت شمسه في أخريات القرن الثالث الهجري، على يد شعراء مثل محمد بن محمود (أو حمود) القبري، ومثل مقدم بن معافي، الذي ينتسب بدوره الى قبرة، إحدى القرى الواقعة قرب قرطبة.

ويضم كتاب «الذخيرة» لابن بسام أقدم إشارة وصلت الينا عن طور نشأة هذا الفن:

«وأول من صنع هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقها — فيما بلغني — محمد بن محمود القبري الضرير، وكان يصنعها على أشطار من الأشعار، غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة، يأخذ اللفظ العامي أو العجمي ويسميه المركز، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان».

وهذه الفقرة غاصة بالمصطلحات غير محددة الدلالة، وفيها إشارة عابرة إلى أوزان الموشحات الأولى وما كانت عليه من ارتكاز على مقطع عامي — شعبي ؟ أو اعجمي (بالرومانث، لغة الأسبان الأصليين)، وبها تلميح إلى شكل لا «تضمين» فيه ولا: «أغصان، الصورة كلها تتسم بالغموض، ومع ذلك فإنها تترك في النفس انطباعاً ما بأن شكل الموشحة القديم كان شديد البساطة، ليس فيه هذا الإكثار من الأجزاء في الأقفال والأبيات، الذي يلحظ في كثير من النصوص التي ألفت في فترات لاحقة، وبمعنى آخر إن صورة الموشحات في مرحلة تكوينها كانت أقرب الى طبيعة الأغنية الشعبية من حيث بنائها على «الأعاريض المهملة غير المستعملة»، وارتكازها على «اللفظ العامي أو العجمي»، ولا خلاف على أن المقصود بكلمة «اللفظ» هنا ذلك المقطع الختامي، الذي تصل فيه الموشحة إلى ذروة توهجها، وهو ما أطلقت عليه تسمية الخرجة.

ويتلاقى هذا الفهم مع قول ابن سناء الملك:

«والخرجة هي ابزار الموشح وملحه، وسكره ومسكه وعنبره، وهي العاقبة وينبغي أن تكون حميدة، والخاتمة بل السابقة وإن كانت الأخيرة، لأنها التي ينبغي أن يسبق الخاطر إليها، ويعملها من ينظم الموشح في الأول، وقبل أن يتقيد بوزن أو قافية».

ثم يجيء فريق من الشعراء يجددون في هيكل الموشحة، منهم يوسف بن هارون الرمادي، الذي يذكر ابن بسام أنه «أول من أكثر فيها من التضمين في المراكيز»، ومنهم عبادة بن ماء السماء الذي «أحدث التضفير» — ؟ — «ذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان فيضمنها كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز».

وتكون النقلة التالية إلى عبارة شهيرة لابن خلدون تقول:

«وأما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً سموه بالموشح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً وأغصاناً أغصاناً، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، فيسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عدد قوافي

تلك الأغصان وأوزانها، متتالية فيها بعد الى آخر القطعة، وأكثر ما ينتهي عندهم الى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان، عددها بحسب الأغراض والمذاهب».

وعند هذا الحد تكون قد تجمعت بين يدي القارىء معظم الخيوط المتصلة بهيكل الموشحة ومصطلحاتها، ولكن تنبغي ملاحظة ماتتميز به الموشحات من مرونه، كذلك فان المصطلحات التي تتردد (التضفير، التصغير، التضمين — هل تعني كلها معنى واحداً ؟— الأغصان، الأسماط) مجال لاختلاف وجهات النظر إلى حد بعيد، يضاف الى هذا ما يظهر في حقب لاحقة من مصطلحات جديدة مثل «الدور» وقدر موفور من التعبيرات المستمدة من الاصطلاحات الموسيقية، بحكم الصلة الوثيقة بين الموشحات والغناء، ولا يبقى إلا الإشارة لاستقرار دلالات «القفل» و«الخرجة»، فقد أفلتا — أو كادا — من دوامة الجدل والخلاف.

ولا تثير مسألة الموضوعات التي تعالجها الموشحات كثير الجدل، وقد حسم ابن سناء الملك القضية عندما قال إنه «يعمل فيها ما يعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والرثاء والهجو والمجون والزهد، وما كان فيها في الزهد يقال له المكفر» وساق ابن خلدون رأيها مشابهاً: «وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد» ولكن هذه الأقوال لا تبين طبيعة التطور الذي طرأ على الموضوعات، كما أنها لا تحدد مدى مناسبة هذه الموضوعات لطبيعة الموشحات.

والتصور الطبيعي أن الموشحات بدأت أول ما بدأت بمعالجة موضوعات الغزل والوصف والحنين والخمريات، أي تلك الفنون شديدة الصلة بالموسيقى والغناء، ثم جاء طور لاحق أخذت تعالج فيه بقية الأغراض المألوفة في القصائد، كالمديح مثلاً (أما الرثاء والهجاء فإنهما لم يشغلا إلا مكانة ثانوية)، ولا يأتي — في العادة — إلا مسبوقاً بتمهيدات غزلية أو وصفية أو نحو ذلك.

أما الموشحات الزهدية والدينية فإنها تمثل طوراً تالياً تبزغ فيه أسماء عديدة مثل أبي مدين وابن عربي والششتري وابن الصباغ...، وعلى أيدي

هؤلاء يعود للموشحة جانب من انتمائها للبيئة الشعبية وللغناء، وتنداح هذه الموشحات في حلقات الذكر والمتدروشين، منفلتة في أحايين كثيرة من قواعد الفن وفصاحة اللغة، مرتحلة في ركاب هذه المواكب الهائمة في فجاج الأرض.

ولربما كان من الضروري أن تعرج هذه الكلمة على أعلام التوشيح في الأندلس، وهنا ستكون لنا أكثر من وقفة:

وقفة أولى تتناول مرحلة النشأة، حيث تبرز ثلاثة أسماء:

محمد بن محمد القبري، ومقدم بن معافي، ثم ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، فالمصادر تؤكد أن هؤلاء هم الرواد الأوائل لهذا الفن الجديد، وإن كان الملحوظ أن ابن بسام يسوق اسم محمد بن محمود على اعتبار أنه «المخترع» الأول ثم يضيف:

«وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات عندنا» وبمعنى آخر أن ابن بسام لايذكر اسم مقدم بن معافى في هذا الصدد (بل أن اسم مقدم لا يرد على الإطلاق في جميع أجزاء الذخيرة)، بينا يجيء في «المتقطف من أزاهر الطرف» لابن سعيد، ونقل عن الحجارى صاحب «المسهب»:

«أن المخترع لها — للموشحات — بجزيرة الأندلس مقدم بن معافي القبرى، من شعراء الأمير عبد الله بن المرواني، وأخذ عنه ذلك أبو عمر بن عبد ربه صاحب كتاب العقد».

ويبقى بعد هذا أن المعلومات عن محمد بن محمود وعن مقدم بن معافي من الندرة بمكان، واذا كان الاسم الثالث — اسم ابن عبد ربه — ملء السمع والبصر بفضل كتابه «العقد الفريد» فان صلته بفن التوشيح تبدو شديدة الغموض، والشيء المؤكد — على كل حال — أن المصادر لم تحتفظ البته بأي نموذج من تأليف هؤلاء الرواد، مما يجعل الحديث عن الموشحات الأولى محفوفا بالصعاب، لا يعتمد فيه الا على بعض العبارات المبثوثة في «الذخيرة» و«المقتطف».

ومن الطبيعي أن الصورة، في المرحلة التالية، تأتي أكثر وضوحا، والإشارة هنا للجيل الثاني من الوشاحين الذي حمل الراية بعد جيل الرواد، وهذا الجيل الثاني يضم أسماء شهيرة في تاريخ الأدب الأندلسى مثل يوسف بن هارون الرمادي، وابن ماء السماء، وابن عبادة لكن تظل هناك — مع ذلك — ملامح يشوبها الغموض، فإننا لا نملك نماذج الا لاثنين من سبعة وشاحين يذكرون في هذه المرحلة، فضلا عن أن قدرا من الاضطراب يسيطر على المعلومات والنصوص المعروفة لهذين الوشاحين (ابن ماء السماء وابن عبادة)، وربما أدى المزيد من التنقيب في التراث الأندلسى الى الكشف عن معلومات تزيل ما يرين من لبس في هذه الناحية.

ومن حسن الحظ أن الموشحات في المرحلة الثالثة — التى تستغرق فترة القرن السادس الهجري كله — تكون قد نضجت كل النضج، واستقامت لما كل قواعدها الفنية وبرزت أسماء رنانة مثل ابن بقي والأعمى التطيلي وابن زهر (الحفيد)، ولمعت نصوص فياضة بالسحر والوهج مثل:

بأبِي ظبيُ حِمًى   تكنُفُهُ أُسْدُ غِيلْ

ومثل:

ضاحِكٌ عن جُمانْ   سافِرٌ عن بدرِ
ضاق عنهُ الزّمانْ   وحواهُ صَدْرِي

وتنساب نغمات شاردة، يمتزج فيها الهوى والغزل والافتتان بالطبيعة كما في موشحة ابن زهر:

حيِّ الوجوهَ الملاحا   وحيِّ نُجْلَ العُيونْ

• قطعة شهيرة

أيهَا السّاقِي اليكَ المُشْتَكَى كَم دعونـاكَ وإنْ لم تـسـمع

والخلاصة أن هذا الفن يصل الى قة تمامة في القرن السادس الهجري، وقد احتفظت مجموعات مختلفة مثل «دار الطراز» و «توشيع التوشيح»، و«جيش التوشيح» بقدر وفير من النصوص الجميلة التى تنتمى لهذه الفترة.

وتجيء مرحلة تالية — فى القرن السابع الهجرى — تبدأ فيها الموشحات الصوفية في التدفق، وتظهر هنا وهناك بعض سمات الخروج عن القواعد المتفق عليها، على أن التقاليد الأصيلة تظل ماثلة عند عدد من المبرزين في التوشيح، مثل ابن سهل الإشبيلى صاحب النص المعروف:

هـل درى ظَـبْـيُ الـحِـمـى أنْ قـد حَـمَـى
قَـلْـبَ صَـبٍّ حَـلّـه عـن مَـكْـنـسِ

وصاحب موشحة «رحب بضيف الأنس» التى لم تشتهر شهرة «هل درى»، ومع ذلك فانها لا تقل عنها جمالا، فضلا عن أنها تخلف في النفس أثرا يشبه — من بعض الوجوه — ما تخلفه قراءة «رباعيات الخيام» من أصداء وعبق وحرارة.

وآخر حلقة تشمل شعراء القرنين الثامن والتاسع، وهي حقبة تنتهي سنة ٨٩٨هـ بانتهاء الهيمنة الاسلامية على آخر مدينة أندلسية هي غرناطة، وهكذا يقدر لأصداء الموشحات أن ترتحل بعيدا عن أجواء الحمراء ومغاني غرناطة، كما ارتحلت من قبل عن قرطبة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس.

ولم تخل هذه المرحلة من وشاحين مجودين مثل أبى حيان الغرناطى وابن خاتمة الأنصارى وأبن زمرك، على أن أشهرهم جميعا لسان الدين بن الخطيب الذي يتألق في فن التوشيح على نحو فريد، وبحسبه أنه صاحب:

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ همي
يـازمـان الوصـلِ بـالأنـدلُـسِ

وقد عارض فيها موشحة «هل درى ظبى الحمى» لابن سهل، لكن

المعارضة فاقت الأصل شهرة، وأصبحت معلما بارزا من معالم فن التوشيح إلى يومنا هذا.

وللرجل نفسه نصوص أخرى لا تقل براعة عن «جادك الغيث» مثل موشحته:

قد حرّكَ الجُلْجُلْ بازى الصّباحْ والفجر لاحْ

فيها غرابَ الليلِ حُثَّ الجناحْ

ومن الغريب حقا أن موشحته:

رُبَّ ليلٍ ظفِرتُ بالبدرِ ونجومُ السمّاء لم تَدْرِ

تجيء في نفح الطيب مصدرة بـ :

قال لسان الدين بن الخطيب رحمة الله تعالى: ومما قلته من الموشحات التى انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها «فهل طمس رسم الموشحات حقا في الحقبة التي عاش فيها ابن الخطيب؟ لا نظن، ولعل الرجل كان يقصد أن الأيام عدت على ذلك العهد الزاهي الذي كانت فيه الموشحات تتردد في أبهاء القصور، ومجالى اللهو والطرب، وأنه يقصد أن الأجيال اللاحقة لم تعد تبدع فى هذا الفن نصوصا من نمط ما أبدع من قبل ابن بقى والتطيلي وابن زهر.

وهكذا تكون رحلة الموشحات على أرض الأندلس قد انطوت بعد فترة دامت زهاء خمسة قرون، استطاعت فيها أن تضيف لقيثارة الشعر العربى وترا جديدا قوامه التوهج والصفاء، والتعبير عن خوالج النفس، والإحساس العارم بالحب والطبيعة والحياة.

نماذج من الموشحات

● عبادة بن ماء السماء (المتوفى نحو سنة ٤٢٠ هـ):

ـ مـــن ولـــي في أمـــة أمــرا ولم يــعــدل
ـ حب المها عبادة مـن كـل بسـام الـسـوارى

● ابن عبادة القزاز (المتوفى نحو سنة ٥٠٠ هـ):

ـ رح للسراح وباكر بالمعلم المشوف
ـ كم في قدود البان تحـــت اللمـــم

● ابن اللبانة (المتوفى سنة ٥٠٦ هـ):

ـ شاهدي في الحب عن حرقي أدمع كالجمر تنذرف
ـ هلا عذولي قد خلعت العذار لا اعــتـــذار.

● ابن أرفع رأسه (أوائل القرن السادس الهجرى):

ـ من علق القرطا في أذن الشعرى

● ابن لبون (أوائل القرن السادس الهجرى):

ـ من أطلع البدر في كمال غـصـن اعـتـدال

● الكميت البطليوسي (النصف الاول من القرن السادس الهجرى):

ـ لاح للروض على نهر البطاح زهـــر زاهـــر

● ابن عيسى المرسي الخباز (النصف الاول من القرن السادس الهجرى):

ـ من لي بظبي ربيب بصيد أسد الغياض

● الأعمى التطيلي (المتوفى سنة ٥٢٥ هـ):

ـ دمع سفوح وضلوع حرار مـــاء ونــــار
ـ ضاحك عن جمان سافر عن بدر

● أبو بكر الأبيض (المتوفى بعد سنة ٥٢٥ هـ):

ـ من سقى عينيك كأس المدام يـــا مـــنـــى المستهام

● ابن الزقاق (المتوفى سنة ٥٣٠)

ـ خذ حديث الشوق عن نفسي وعن الدمع الذي همعا

● ابن رحيم (المتوفى نحو سنة ٥٣٠):

ــ نسيم الصبا أقبل من نجد لقد زادني وجدا على وجد

● أبو بكر بن بقي (المتوفى سنة ٥٤٥ هـ):

ــ ساعدونا مصبحينا نرتشفها قد ظمينا

ــ مالي شمول إلا شجون

● أبو جعفر بن سعيد (المتوفى سنة ٥٥٠ هـ):

ــ ذهبت شمس الأصيل فضة النهر

● أبو عبد الله بن شرف (المتوفى سنة ٥٧٠ هـ):

ــ يا ربة العقد متى يفقد

● ابن مالك السرقسطي (المتوفى سنة ٥٧١ هـ):

ــ ماذا حملوا فؤاد الشجي يوم ودعوا

● ابن زهر الحفيد (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ):

ــ أيها الساقي إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

حي الوجوه الملاحا وحي سود العيون

● محيي الدين بن عربي (المتوفى سنة ٦٣٨ هـ):

ــ عندما لاح لعيني المتكا ذبت شوقا للذي كان معي

● ابن سهل الإشبيلي (المتوفى نحو سنة ٦٥٠ هـ):

ــ هل درى ظبي الحمى أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس

● ابن خاتمة الأنصاري (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ):

قم هاتها قهوة كدمع مهجور

● لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ):

ــ يا حادي الجمال عرج على سلا

● ابن زمرك (المتوفى سنة ٧٩٥ هـ):

ــ نسيم غرناطة عليل لكنه يبرىء العليل

● اللخمي الغرناطي (من شعراء القرن التاسع الهجري):

ــ حياك بالأفراح داعي الصباح قم لاصطباح

● المنصور السعدي (المتوفى سنة ١٠١٢ هـ):

ــ عطر الأرجاء لما نسما شمأل الصهباء عند الغلس

● عبادة بن ماء السماء (نحو سنة ٤٢٠ هـ):

١ •

مَنْ ولي   في أمةٍ أمرا   ولم يعدِلِ   يُعْزَلِ   إلا لحاظُ الرشأ الأكحلِ

جُرْتَ في (١)   حكميكَ في قتلي يا مسْرِفُ
فانصف   فواجبٌ أن ينصفَ المنصِفُ
وارأفِ   فإنّ هذا الشوقَ لا يرأفُ

عَلِّلِ   قلبي بذاك البارد السلسلِ   ينجلي (٢)   ما بفؤادي من جوىً مُشْعلِ

إنما   يبرز كي يوقد نارَ الفتنِ (٣)
صنما   مصوّرا من كلّ شيءٍ حَسَنِ
إنْ رمَى   لم يُخط من دون القلوب الجُنَنْ

كيف لي   تَخَلُّصٌ من سهمِكَ المُرْسَلِ   فَصِلِ   واستبقني حياً ولاَ تقتُلِ

يا سنا   الشمسِ ويا أبهى من الكوكبِ (٤)
يا مُنى   النفس ويا سؤلي ويامَطْلبي
ها أنا   حلّ بأعدائك ما حلّ بي

عُذّلي   من ألم الهجرانِ في معزِلِ   والخلِي   في الحُبّ لا يسألُ عمنْ بلي

---

٥ ترد في «التوشيع» ص ١١٣ و «الفوات» (ط إحسان عباس) ١٥١/٢
منسوبة لابن ماء السماء وفي «الوافي» ١٨٩/٢ منسوبة لابن القزاز

(١) توشيع : جزت
(٢) التوشيع : ينجل
(٣) الوافي : يبرد. الفوات : تبرز. توقد
(٤) الوافي : وياسنى

أنـــت قـــد صيّرتَ بالحسنِ من الرشد غَنِيْ
لم أجــــد في طرفي (٥) حبك (٦) ديْنا علي
فـــاتــــئد وان تشا في قتلي شيئا فَشَيْ
أجمل ووالِني منك يدَ المُفْضِل (٧) فَهْيَ لي من حسناتِ الزمن المُقْبل

مـــا اغـتــذى طرفي إلا بسنا ناظرَيْكْ
وكـــــذا في الحُبِّ ما بي ليس يخفى عليكْ
ولـــــذا أُنشِد والقلبُ رهينٌ لديكْ:
ياعلي سلطت جفنيكَ على مقتلي فابْقِ لي قلبي وجُدْ بالفضلِ ياموئلي

٢ •

حُبُّ المَهـا عِبادَة من كلِّ بسام السّوارِ
قمرٌ يطلع من حسنٍ آفاقِ الكمالِ حسنُهُ أبدع
لله ذاتُ حُسْنِ مليحةُ المُحَيّا
لها قوامُ غصنٍ وشَنْفُها الثُّرَيّا
والثغرُ حَبُّ مُزْنٍ رُضابُه الحُمَيّا
من رشفه سعادة كأنه صِرفُ العُقارِ
جوهرٌ رصِّع يسقيك من حلو الزُلالِ طيِّبَ المشرَع
رشيقةُ المعاطف كالغصنِ في القَوامِ
شهديةُ المراشِف كالدُّرِ في نظامِ
دعصيةُ الروادِف والخصرُ ذو انهضامِ
جوّالةُ القِلادة محلولةُ عقْدِ الإزارْ
حسنُها إبدعْ من حسنٍ ذيّاكَ الغزالْ أكحلِ المدمَعْ

---

(٥) الفوات : طرق (٦) الوافي : حبيك (٧) الوافي : ندى

• ترد في «الفوات» (ط احسان عباس) جـ ٢ ص ١٥٢ ولم نجدها في اي مصدر آخر

ليليةُ الذوائبْ   ووجهُها نَهارْ
معقولةُ الترائبْ   ورشفُها عقارْ
أصداغُها عقاربْ   والخدُّ جُلّنارْ
ناديتُ: وافؤادهْ   من غادة ذاتِ اقتدارْ
لمثلها أقطعْ   من حلا معقولةِ الشمالْ   من الفتى الأشجعْ

سَفَرْجَلُ النُّهودِ   في مرمرِ الصدورِ
يُزْهى على العقودِ   من لذةِ النُّحورِ
ومقلةٍ وجيدِ   من غادة سَفُورِ
حبيّ لها عِبَادَةْ   أعوذُ من ذا الفخارِ
برشاً يرتَعْ   في روضِ أزهارِ الجَمالْ   كلما أينَعْ
عفيفةُ الذيولِ   نقيةُ الثيابِ
سلابةُ العقولِ   أرقُّ من شَرابِ
أضحى بها نحولي   في الحُبِّ من عذابي
في النوم لي شَرادَةْ   وحُكمُها حكمُ اقتدارِ
كلما أمنعْ   منها فإن طيفَ الخيالْ   زارني أهجعْ

●●●

• ابن عبادة القزاز (نحو سنة ٥٠٠ هـ)

١

رُحْ للرّاحِ وراكِرْ بالمُعَلِّم المَشُوفْ غبوقاً وصَبُوحْ على الوتَرِ الفَصيحْ
ليس اسمُ الخمرِ عندي مأخوذاً فاعلَمْ
إلا من خاءِ الخَدّْ وميمِ المَبْتَسَمْ .
وراءِ ريقِ الشُّهدِ العاطرِ الفَمْ
فكُنْ للهمِّ هاجر وصِلْ هذي الحروفْ كي تغدو وتروحْ بجسمٍ له رُوحْ

باللهِ سقِّنيها في وُدِّ الوائقْ
فبانَ منه فيها شيمةُ الخلائقْ
من أعدمَ الشبيها في المجدِ الباسقْ
له من المفاخِرْ تليدٌ وطريفْ دوحٌ من عهد نوحْ وروضةٌ تفوحْ
هل تَخشُنُ المدائحْ من كلِّ مادحْ
إلا على الجحاجحْ بني صمادحْ
فإنهم مصابيحْ على سوانحْ
أكارمٌ أكابرْ صيدٌ شُمُّ الأنوفْ حازُوا المجدَ الصّريحْ فَخُصُّوا بالمديحْ
محمدٌ بعيدْ مرامُه قريبْ
وحولَه جنودْ مِن آلِهِ نُجيبْ
كأنهم أسودْ في حومةِ الحروبْ
إذا سلّوا البواتِرْ فالحَيْنُ والحُتوفْ والنصرُ والفتوحْ وآيةٌ تلوحْ
إذ لاح ابنُ معنِ في جيشِه اللَّجِبْ
ونادى كلَّ قِرنِ باسمه في اللَّعِبْ
فالهَيْجا تغني والسيفُ قد طرِبْ
ما أملحَ العساكرْ وترتيبَ الصُّفوفْ والأبطالُ تصيحْ الواثِقْ يا مليحْ

• دار الطراز، ص٧١، واشار الى الخرجة ص٣٢، ونسبها لعبادة.

٢•

كم في قدودِ البانْ تحت اللِّممْ من أقمرٍ عواطِ
بأنمل وبَنانْ مثل العَنَمْ لم تَنْبَر لِعَاطِ

لَهُنّ الظِّباءُ الشُمسْ فنيضُهُنّ الضَّيغمُ
ما إن لها من كُنسْ إلا القلوبُ الهُيَّمُ
القربُ منها عُرسْ والبعدُ عنها مأتمُ
تلك الشفاهُ اللُّعسْ يَخشَى بهن المُغْرَمُ
لها لحاظٌ نُعسْ ترنو إلى من يَنْقَمْ

بأعينِ الغزلانْ وتبتسمْ عن جوْهَرِ الأسماطِ
قضى لها الغَيْرانْ أنْ تكتمْ في مُضْمَرِ الآتياطِ

أهوى رشاً ساحرا هواهُ لي ما أقتلَهْ
قد قتختْ طائرًا ألحاظُه قلبي ولَهْ
ولم يزلْ سادِرًا على هوى ما علَّلَهْ
لما غدا قادرا غدا قليلَ المَعْدَلَهْ
ياحاكما جائِرا ظلمتَ من لا ذنبَ لهْ

خف سطوةَ الرحمنْ اذا تَحكّمْ بين البرِي والخاطي
سطوتَ بالهَيْمانْ ظلما ولمْ يستنصِرِ ياساطي

ياويح مَنْ شُوِّقا إلى حبيبٍ قد سَلا
قضى بأن يُغرِقا في الدمعِ مَنْ قد أمحَلا
ظُلماً وأن يخفقا منه الفؤادُ المبتَلَى
كأنما علّقا منه على تلك القُلى
فقلت مستنطِقا مَنْ ذا الذي أهدى الى

• ترد في «دار الطراز» ص ٦٠ (ومقطع منها ص ٢٩) وجاء قسم منها في «ازهار الرياض» ٢/٢٥٤ و«نفح الطيب» ٤/٣٨٠

فؤادي الخفقان فقال قم فلتنظر في الشاطي
إلى بنود الشوان عذواك ثم واستخبر أقراطي

أما تراها مثول على قناها خافقة
في جاريات تجول مثل الجياد السابقة
إنشاء من في المحول ينشي السحاب الوادقة
سمت على النجم طول منها فروع باسقة
إن الثريا تقول وإنها لصادقة

ما فوق هذا المكان من الهمم فيه يرى مناطي
سمت على كيوان منه القدم والمشترى مواطي

أفلاك ملك تنير سعادة للمسلمين
تسري الدجى وتسير بالفتح والنصر المبين
يسوء بعد النذير منها صباح المنذرين
تغدى بمدح الأمير إلى بلاد المشركين
أني نحا فتطير بمثل أشفار الجفون

وقد بسم الخرصان قد انتظم كأسطر الأمشاط
والبحر كالبركان قد اضطرم بمشعر الأنفاط

ومهرجان لنه يوم أنيق منظرة
بحر حكى رملة من كل طيب عنبرة
والشاط قد حلة محمد وعسكره
مركبا رجلة فلكا حكتها قمرة
فقال عبد لنه متحين ما يبصرة:

ما أملح المهرجان رمل يتم كالعنبر للواطي
والفلك كالعقبان والمعتصم بالعسكر في الشاطي

• ابن اللبانة (المتوفي سنة ٥٠٧ هـ):

١ *

شاهدي في الحبّ حُرقي		أدمع كالجمر تنذرف

تعجز الأوصاف عن قمر (١)
خدّه يدمي من النظر
بشرٌ يسمو على البشر

قد براهُ اللهُ من علق		ما عسى في حسنهِ أصف

كيف للصبّ الكئيب بقا
والكرى عن جفنه أبقا
هل يطيقُ الصبرَ مَنْ عشقا

شادناً يرمي من الحدق		أسهماً قلبي لها هدف

ياأولي التفنيد ويحكمُ (٢)
أنا لا أصغي لنصحكمُ
في ثلاثٍ قد عصيتكمُ

غسقٌ داج على فلق		في قضيبٍ زانه الهيف

بأبي مَنْ فاق شمسَ ضحى
وكسا بدرَ الدُجى مُلحا (٣)

• ترد في «التوشيع» ص ١٣١ وفي «عقود اللآل» مخطوطة «الاسكوريال — ورقة ٩ وفي «العذارى المائسات» وقال إنها لجمال الدين بن نباته وقيل لابن عزلا (ولعل الاسم الاخير تحريف لابن غرلة الذي كان ذكرناه من قبل وليست هذه الموشحة من جنس ماوصل الينا من موشحاته، اما ابن نباته فان ديوانه لايتضمن هذه الموشحة ولا حتى معارضة لها).

(١) توشيع : قمرى (٢) توشيع : التنفيذ (٣) التوشيع : لحا

فدليلي فيه قد وَضحا

لوجود الشمسِ(٤) في الأفق عَدَمٌ والبدرُ ينكسِفُ

رُبَّ راضٍ بعد ما غَضِبا
زارني في غفلةِ الرُّقَبا
عندها غنيتُ: واطربا

ياحبيباً بات معتنقي ها أنا بالوصلِ مُغتَرِفُ

٢

هلاَّ عذولي قد خلعتَ العِذارْ لا اعتِذارْ عن ظُبا الإنسِ وشُرْبُ العُقَارْ

ما العيش إلا حُبُّ ظبيٍ أنيسْ
مهفهفٍ أحوى وحثُّ الكؤوسْ
من قهوةٍ تحكي شُعاعَ الشُّموسْ

كأنها في كأسِها إذ تُدارْ شعلةُ نارْ يقتُلُها الإبريقُ قبل السّوارْ

شيئان قلبي فيهما ذُو غَرامْ
القولُ بالغيدِ وشربُ المُدامْ
فلستُ أصغي فيهما لِلُّوّامْ

لا والذي تُوِّجَ تاجَ الفخارْ بحرُ البحارْ ببحرِ جَدْواه وحامي الذّمارْ

المَلِكُ المأمونُ ذو المكرُماتْ
الواحِدُ الفردُ الجزيلُ الصِّفاتْ
كم مادحٍ أحيا وكم قد أماتْ
تهلُّ يُمناهُ علينا بحارْ ثُمَّ اليَسارْ تجلو دُجى العُسْرِ ببذلِ اليَسارْ

---

(٤) عمود : البدر

• النص في «جيش التوشيح» ص ٧٠

فـــي اســـمــــه للـــنصر والـــفـــتـــح فـــالْ
قـــد عـــم أهـــل الارضِ ظُـــرًا نَـــوالْ
أصـــبـــح فـــي الجـــودِ بـــغـــيـــرِ مـــثـــالْ

أنجد ذكراه الكريم وغاز   في الأمصاز   حتى حدت فيه حداةُ القطاز

وغـــادةٍ تـــشـــكـــو بِـــعَـــاذ الخـــلـــيـــلْ
غُـــدُوّهـــا تـــبـــكـــي ويـــوم الـــرحـــيـــلْ
بـــصـــفـــةِ الـــبـــحـــرِ وطـــلـــت تـــقـــولْ

يـاقـرجـونـي كـكـرس بـون امـار   لـبـش الـفـرار   ولـيـش دمـار (١)

• • •

(١) الخرجة فيه : «اما الفرار وليس دمار» وهي ـــ ولا شك ـــ مثورة، ولا تتفق مع بقية الاقفال. وفي نسخة حسن حسني عبدالوهاب (صفحة ١غ).
يـاقـرجـوني كـكـرس بـون   امـار الـفـرار لـبـش   ولـش دمـار
ولا تستقيم على هذه الصورة

• ابن رافع راسه (أوائل القرن السادس الهجري ؟):

مَنْ علّق القُرطا   في أذن الشّعرَى   وأكفف المرطا   الغُصْنَ النَّضرا
الحسنُ مرجومُ   عندي ومأثومُ
والطرفُ ظلومُ   والقلبُ مظلومُ
بأبي ريمُ   يعشقهُ الرّيمُ
لم يأكل الخَمْطا   ولا رعى السِّدْرا   ولا رعى الأرْطى(١)   مذ سكَن القَصرا
ياقومُ بي تيّاه   لماه معسولُ
الهجرُ منْ هجراه(٢)   والذنبُ محمولُ
يدري الذي يهواه   أنه مقتولُ
أماتني غَبْطا(٣)   وما اتقى الوِزْرا   لم أعرف الشّرطا   فكنتُ مُغْتَرّا
قد هِمْتُ في وَسْنان   أشدّ الشّرى يَسْبي
بلحظِه الفتّانْ   في معرك الحربِ
على الظّبي سلطانْ   بقدرةِ الربِّ
سبحانَ من أعطى   جفونَك السّحْرا   والقبضَ والبسطا   والنّهيَ والأمْرَا
عليّ ما أعْدى   سيوفُ عينيكا
كم أنّبَ الأعدا   بعذلِهم فيكا
والحسنُ قد أبدى   عذري بخدّيكا
بأحرفٍ خَطّا   لم تعرف الحِبْرا   أودعنا نقطا   بالحِبْر كي تُقرَا
ضنَّ بإسعادي(٤)   والشمسُ تحكِيهِ
مِنْ بعد ميعادِ   أبدى الرّضا فيهِ
فكان إنشادِي   خوف تجنّيهِ
حبيبي قد أبطا(٥)   من أمسكَ البَدْرا   عني لقد أخطا   وأشغل السّرّا

• ترد في «توشيع» ص ١٥١ ونسبها لابي الحسن علي بن عبدالغني الحصري، وهي في «جيش» ص ٧٤ ضمن موشحات ابن ارفع راسه، ورجحنا انها له.

(١) جيش: ولا درى الابطا (!) والارطى: شجر الاثل
(٢) توشيع: هجيراه
(٣) جيش: أماتني غبطا. وعبطا: نحرا
(٤) جيش: باسعاد
(٥) جيس: حيث قد ابطا (!).

• ابن لبون (أبو عيسى) ـ أوائل القرن السادس الهجري:

من أطلع البدرَ في كمالِ غصنِ اعتدالِ

بهجتي شادِنٌ غريرُ
يجورُ (١) حُكماً ولا يُجيرُ
وما سوى أدمعي نَصيرُ

تفعلُ عيناه بالرِّجالِ فعلَ العَوالِ

عُلِّقتُه أوطفاً كَنحِيلْ (٢)
يحسُده الغصنُ اذ يميلْ
تجولُ في ثغرهِ شمُولْ
يمج في ثغره لآل بَرْد الزُّلالِ

يا أيها العاذِلُ الخَليْ
بي مَنْ بني الليث بابِلي
قلبي به مغرمٌ شَجِيْ

عذلُك عندي ـ إذ لست سالِ مِنَ المُحالِ

كم قلتُ لا أدّعي بحبهْ
لطول إعراضِه وعتبِهْ
حتى إذا لاح صبحُ قربِهْ

• النص في «جيش التوشيح» ص ١٦٨
(١) في الاصل: يجوز حكما (٢) في الاصل: اوطف

أبديتُ مس عِزةِ الجمالِ(٣) دلَّ السؤالِ

مازلتُ أشكو له ببعدِهْ
حتى أرعوى حافظاً لِعَهْدِهْ
كأنه إذا أتى لوعدِهْ

يختالُ في ظُلمةِ الدَّلالِ طيفُ الخيالِ

لله يومٌ به نَعِمْنَا
راق أصيلا فراق حسنا
عاتبته مازحاً فغنى

إياك يغرنك صرف مال(٤) ياامن بدا لي

• • •

---

(٣) ى الاصل. عرة الحمال (٤) ى الاصل صرف رمال ماقد ىد ر

• الكميت (أبو عبدالله محمد بن الحسن البطليوسي) ـ النصف الأول من القرن السادس الهجري:

لاح للرّوضِ على غُرِّ البِطَاحْ — زَهَــــرٌ زاهِـــرْ
وثـنـا جِـيـداً مُـنَـعَّـمَ الأقاحْ — نَـــورُهُ الـنـاضِـرْ
زارني منه على وجهِ الصّباحْ — أرجٌ عــاطِــرْ
نشرَ الـطّـلَّ عـليها حين فَـاحْ — أيّما عِقْدِ
حبّذا البشْرُ لي عند افتتاحْ — وجنةَ الوَرْدِ

يضحِكُ الروضُ مسايلَ السَّحابْ — مـلءَ أجـفـانِـهْ
ومشتْ فيه لآلىء الحَبَابْ — فـوق غـدرانِـهْ
فتراه كيف(١) يكشِفُ النِّقابْ — عـنـد تهـتـانِـهْ
يـنتهـي طـولُ تـنـاوح الـرِّيـاحْ — وسطَ الرَّعدِ
وتَـرى الـبـرقَ كـصـارمٍ مُشَـاحْ — سُلَّ من غِمْدِ

رقصت وسطَ رياضِها الغُصونْ — رقـصَ نـشـوانِ
وأرتـنـا مـن لـطـائـف الجنونْ — كـلَّ إحـسـانِ
فنسينا عند وشيِهِ المَصُونْ — وشـي صـنـعـانِ (٢)
كـنـجـوم أطـلـعـتْ والجوُّ صاحْ — في ذرى سَعْدِ
فـسـعـى الـنـاسُ بألسنٍ فِصاحْ — نِعَمَ الحمدِ

• يرد النص في «حيس التوشيح» ص ٩٤.

(١) كذا في المطبوع، ولعلها: حين

(٢) صنعان: صنعاء

فاغتنِمْ ما قد صفا من الزّمان … واخلع العُذْرا
واشرب الرّاحْ على سمعِ القِيانْ … مزة صَفْرا
واغتبِقْها من سلافةٍ دِنَانْ … عُتِّقَتْ دَهْرا
كأسُها جسمُ طفلةٍ رداحْ … ناعِمُ القَدّ
تمزجُ الراحَ بريقها القُرّاحْ … شيب بالشَّهدِ

وفتاةٍ فتنتُ بحسنِها … وتشنّيها
تشتكيّ طولَ جفاء خِذْنِها … حين يُؤْذيها
وتُغَنّي برفيع لحنِها … ومغانِيها :
ذبت والله أسى نطلق صياحْ … قد كسر نهْدِي
وعمل لي في شفيفاتي جرّاحْ … ونثر عقدِي

• • •

• ابن عيسى المرسي الخباز (ابو الوليد يونس): النصف الأول من القرن السادس الهجري:

مَنْ لي بظبي ربيب يصيدُ أُسْدَ الغياض(١) لـوى بـديـنِـيَ لما أملتُه للتقاضِي

جـعـلـتُ حـظّـي مـنـهُ بين الـرجـا والتمنّـي
لم أظـهـر اليـأسَ عـنـهُ لـمـا أطـالَ التـجـنّـي
بـل قـلـتُ ياقـلـبُ صُنْهُ لـديـك عـن سـوءِ ظَـنّـي

وأنتِ يانفسي ذوبي ويامطيا: اعتراضي نَفّذ بما شئت حُكما إنني بحكمِكَ راضِي

مـا حـالُ قـلـب لـديكَ لا تـنـقـضـي حسراتـه
يـشـكـو جـواهُ الـيـكَ ولـيـس تُـجْـدِي شـكـاتُهْ
مـهـلاً فـفـي راحـتـيـكَ حـيـاتُـه ومـمـاتُـهْ

ياممرِضي وطبيبي بفيك برء المراضِ ومنكَ قد ذبتُ سقماً فلتقض ما أنتَ قاضِ

يـامـن يـنـافـر ظُـلـمـاً مَـنْ لـيـس عـنـه بصابِرْ
مـاضر إذ ذبـت سـقـمـاً لـو لم تـكـن لـي هـاجـرْ
رفـقـاً فـبـي مـنـك ألـمي وسـنـان سـاجـي الـنـواظِرْ

رامٍ بـسهم مصيبِ من الصحاح المراضِ يـرنو فيرسل سهما والقلبُ في الاعتراض

• ترد كاملة في «جيش التوشيح» ص ١٤٧ وهي في «عدة الجليس» ــ بدون ذكر قائلها ــ ونقل د. الأهواني «الزجل في الاندلس» ص ١٨ المطلع والخرجة عن مقال غومث (الأندلس سنة ١٩٥٢) الخاصة بالخرجات الأعجمية في مجموعة ابن بشرى

(١) جيش: يسطو باسد

مَـنْ لـي بـتـفـتـيرِ جـفـنِـه والمـوتُ مـن لحـظـاتِـهْ
إن مـرّ ثـانـي عِـطـفِـه فـالـحُـسْـنُ فـيـه بـذاتِـهْ
أورمـتُ إدراكَ وصـفِـه أعـيـتـنـي بـعـض صفـاتِـهْ

يجولُ لحظُ الكئيبِ من خدّه في رياضٍ لكن عن القطفِ تُحْمَى بمرهفاتٍ مَواضِ

لله ظـبـيـةُ خِـدْرٍ قـد روعـتْ بـالـفِـراقِ
بـنـتُ ثـلاث عشرٍ تُـسْـبِـلُ دمـعَ المآقـي
تـقـولُ فـي حـالِ سُكْرٍ لأمّـهـا فـي اشـتـيـاقِ

يامم مو الحبيب تيبش ان نز ترباض غار كفري ياءما انن يجنال للشاض

• • •

• الأعمى التطيلي (المتوفي سنة ٥٢٥ هـ):

١ •

دَفعُ سفوحٌ(١) وضلوعُ حِرَارْ ماءٌ ونار ما اجتمعا إلا لأمر كبَارْ

بئس لعَمْري ما أراد العذولْ
عُمرٌ قصيرٌ وعناءٌ طويلْ
يازفراتٌ نطقتْ عن غَليلْ(٢)
ويادموعاً قد أصابتْ مَسِيلْ(٣)

امتنع النومُ وشَطّ المَزَارْ ولاقرارْ طرت ولٰكن لم أصادف(٤)مطار

ياكعبةً حجّت اليها القلوبْ
بين هوى داعٍ وشوقٍ مُجيبْ
دعوة (٥) أوّاه اليها مُنيبْ
لبيكَ لا ألوي لقولِ الرقيبْ (٦)

• الموشحة في جيش ص ١٠٦ وديوان الأعمى التطيلي ص ٢٦١ والتوشيع ص ١٠٦.

(١) الديوان: مسفوح.

(٢) توشيع: عليل.

(٣) الديوان: ويا دموع قد أعانت.

(٤ ط الديوان: أصادق.

(٥) جيش: حسنت. الديوان: حسة.

(٦) الديوان: لبيك الا الهو وقل للرقيب. جيش: لبيك لا الوى.

جد لي بحج(٧) عندها واعتماز ولااعتذار قلبي هَدِيَ ودموعي جُماز

أهــلاً وإن عــرّضَ بــي للــمــنــونْ
بمائسِ الأعطافِ ساجي الجفونْ (٨)
يـاقـسـوةً يحسبها الـصَّـبُّ لـيـنْ
عـلّمـتـنـي كـيـف تُساءُ الظُّنونْ (٩)

مذبانَ عن تلكَ الليالي القِصازْ دمعي غزازْ(١٠)كأنّما بين جفوني غرازْ(١١)

حكّمتُ مولىً جار في حكمِهِ
أكنى به لا مفصِحاً باسمِه (١٢)
وأعجبُ (١٣) لإنصافِي على ظلمِهِ
واسألهُ عن وصْلي وعن صَرْمِه

ألوي بحظّي(١٤) عن هوىً واختيازْ طوع النفازْ وكل(١٥) أنسٍ بعده بالخيار

---

(٧) الديوان والحس : مرنى .

(٨) في جيش : وسن الجفون . وفي الديوان يشير المحقق «الى أن الأصل لم يكن واضحاً ، ولعله : « فما بسر ماتصون الجفون » .

(٩) في الديوان والجيش : كيف أسيء .

(١٠) الديوان والجيش : نومى غرار.

(١١) الجيش : بين جفوني عرار.

(١٢) الوشيع : أهذي به .

(١٢) الديوان والجيش : فاعجب .

(١٤) الديوان : بحق .

(١٥) الديوان والجيش : فكل .

لا بُـدَّ لـي مـنـه عـلـى كـلِّ حـالْ
مـولـى تجـنـى وجـفـا واسـتـطـالْ
غـادرنـي رَهْـنَ أسـى واعـتـلالْ

ثم شدا بين الهوى والدّلال :

ما والحبيب دموا صار   مادر شنار   بنفيس رامش كف دموعار(١٦)

• • •

٢

ضاحِكٌ عن جُمَانْ سـافِـرٌ عـن بَـدْرِ ضاقَ عنه الزّمانْ وحـواهُ صـدري
آه ممـا أجـدْ شـفّني مـا أجِـدُ
قـام بي وقَـعَـدْ بَـاطِـشٌ مُـتَّـئِـدُ
كـلما قـلـتُ قـدْ قـال لي أيـنَ قـدْ

(١٦) كذا جاءت الخرجة في الديوان (وهي بالأعجمية أي بلغة الرومانث) وترد في التوشيح «مر الحبيب انفرم دموار.. كان دشنار.. تنفس اميت كادمواتار» وفي الجيش «ماوالحبيب دموصار.. فادرشنار.. بنفس آست كساد موعار» وأوردها د. احسان عباس في «تاريخ الأدب الأندلسي» ج ٢ ص ٢٤١ نقلا عن مقالة عن الخرجات كان الأستاذ غومث قد نشرها في «الأندلس» سنة ١٩٥٤، وفيه: موا الحبيب انفرم ذي موامر كن دشتر ننفيس اميب كسد توليفر ومعناها «حبيبي مريض بسبب الحب ــ وكيف لا يكون ذلك ــ ألا ترى أنه لن يرجع إليّ أبداً» ؟

• انظرها في «ديوان الأعمى التطيلي» ص ٢٥٣ وترد في «المغرب» ٤٥٣/٢ و«دار الطراز» ص ٤٣

وانثنى خُوط بانْ(١) ذا مِـهَـزٍّ نـضِيـر(٢) عابَثته يدانْ(٣) لـلـصّـبـا والـقـطـر
لـيـس لي منك بُدْ(٤) خـذ فؤادِي عن يدْ
لم تـدعْ لي جَـلَـدْ غير أني أجـهَـدْ
مَـكْـرَعٌ مـن شَـهْـدْ واشتياقي يشهدْ
مالِبِنْتِ الدّنانْ ولـذاك الـثّـغـر أين مَحْيا الزمان(٥) من حُـمَـيـا الـخَمْر(٦)
بِي هـوىً مُـضْـمَـرُ(٧) لـيت جَهْدِي وفقُهْ
كـلما يـظـهـرُ(٨) فـفـؤادِي أفـقُـهْ
ذلـك المـنـظَـرُ لا يُداوِي عشقُهْ
بأبي كيف كان فَـلَـكِـيٌّ دُرِّي راقَ حق استبانْ(٩) عُـذْرُه وعُـذْرِي
هـل إلـيـكَ سبيلْ أوإلى أنْ ايأسا (١٠)
ذُبْـتُ إلا قـلـيـلْ عـبـرةً أو نَـفَـسَـا
مـا عـسـى أنْ اقـولْ ساء ظني بعسى
وانقضى كلُّ شان وأنـا اسـتـشـرِي خالعاً مِنْ عِنانْ جـزعـي أو صَـبْـرِي
ما علَـيّ مَـنْ يَـلُـوم لـو تناهى عني
هـل سـوى حُـبّ رِيم دِيـنُـه االتجنـي
أنـا فـيـه أهيم وهـو بي يـغـني
قد رأيتكْ عيان آش عليك ساتدرى(١١) سيطول الزمان(١٢)، وستنسى ذكرى(١٣)

● ● ●

(١) المغرب: غصن بان
(٢) المغرب: ذا فنى
(٣) المغرب: لاعبته
(٤) المغرب: لي فيك
(٥) المغرب: ليس محيا
(٦) الديوان: من محيا الجمر
(٧) المغرب: بن جوى
(٨) المغرب: كلما يذكر
(٩) المغرب: رق
(١٠) المغرب: إلى أن أيسا
(١١) دارٍ: ليس عليك ساتدري وفي الديوان: ليس عليك ستدري
(١٢) المغرب: سايطول
(١٣) المغرب: وتجرب غيري

• الأبيض (أبو بكر محمد) المتوفى بعد سنة ٥٢٥هـ:

مَنْ سقى عينيكَ كأس المُدَام   يـــا مُنى الـــمُـــسْـــتَـــهـــام

رشـــأ أســـهـــرَني وهـــو نـــائِـــمْ
رقَّ لي والمـــوتُ بين الحـــيـــازِمْ
عـــجـــبـــاً مِـــنْ دمـــعِـــه وهـــو بـــاسِـــمْ

خَنِثٌ يمزِجُ لي تحت اللِّثام (١)   عـــبـــرةً بـــابـــتـــســـامْ

قـــلـــبَ دُنـــيـــايَ تُـــســقـــى رُوَيْـــدْ
تحـــت إحـــســـانِ الـــوزيـــرِ ابـــن زيـــدْ
فـــأنـــا أربـــع في خـــبـــرِ قـــيـــدْ (٢)

بين بِـــرٍّ وعـــطـــايـــا جِـــســـامْ   أخـــواتِ الـــغَـــمـــامْ

بـــائِـــنُ الـــغَـــوْرِ بـــعـــيـــد المـــســـافـــةْ
قـــد كفى قـــرطـــبـــةً كـــلَّ آفـــةْ
كـــم يـــدٍ أولـــيـــتَ دارَ الـــخِـــلافَـــةْ

طوقت جيدكَ طوقَ الحَمَام   في حُـــلِـــيِّ الـــكِـــرَامْ

• يرد النص في «جيش التوشيح» ص ٥٤ (غير مقابل على أي مصدر آخر)

(١) اخذنا بقراءة نسخة حسن حسني عبدالوهاب

(٢) كذا في المطبوع ونشك في صحة القراءة ولعلها: «وانا اربع في غير قيد»

بك يا مُشرِقُ صبحَ اليقينُ
أنت صبحُ المِشْكاة المُبينُ
أيُّ نصلٍ سلّه ما (يلينُ) (٣)

مَلِكٌ شرّفه في الأنام   حملُ ذاك الحُسَامْ

شَرُفَ الملكُ به حين حاطَهْ
فشدت وجْداً به غرناطَةْ
إذ تَوَخَّى بِسِواها ارتباطَهْ

كُلّ يومٍ اقريك ياحبيب السلام   ونسيت أنت ذمامْ

• • •

(٣) بياض في الاصل، وملأناه بما يناسب المعنى

• ابن الزقاق (أبو الحسن علي) المتوفي سنة ٥٣٠:

خُذْ حديثَ الشَّوقِ عن نفسي وعن الدمع الذي هَمَعَا

ما ترى شوقي قد اتَّقَدا
وهمى بالدمع واطَّرَدا
واغتدى قلبي عليك سدى

آه من ماءٍ ومن قَبَسِ بين طرفي والحشا جُمِعَا

بأبي ريمٌ إذا سَفَرَا
أطلعت أزرارُهُ قَمَرَا
فاحذروه كلَّما نَظَرا

فبألحاظِ الجفونِ قِيسِي أنا منها بعضُ مَنْ صَرَعَا

أرتضيه جارَ أو عَدَلا
قد خلعتُ العَذْل والعَذَلا
إنما شوقي إليه فَلا

كم وكم أشكو إلى اللَّعَسِ ظمأً لو أنه نَفَعَا

• ترد الموشحة في توشيع التوشيح منسوبة لابن الزقاق (وألحقتها محققة ديوان ابن الزقاق الى الديوان استنادا الى ذلك) كما تجيء في «عقود اللآل» مخطوطة الاسكوريال ورقة ١٠ منسوبة كذلك لابن الزقاق بينما نسبها صاحب «نفح الطيب» جـ ٥ ص ٣٦٩ إلى ابن بقي

ضلَّ عبدُالله بالحَوَرِ
وبطرفٍ فاترِ النَّظَر
حُكْمهُ في أنفسِ البَشَرِ

مثلُ حكمِ الصّبح في الغَلَسِ   إن تجلى نورُه صَدَعا

شبّهته بالرشا الأُمَمُ
فلعمري إنهم ظَلَمُوا
فشفى من به السَّقَمُ

أين ظبيُ القفر والكُنُسِ   من غزالٍ في الحَشَا رَتَعا

• • •

• ابن رحيم (ابو بكر) المتوفي نحو ٥٣٠هـ (؟):

نسيمُ الصَّبا أقبلَ من نَجْدِ لقد زادني وَجْداً على وَجْدِ

يا ريحَ الصَّبا بالك دارِيني
بعَرْفِ شذا مسك دارين
ووصف رشا بالهَجْرِ يَبريني
وسل باللِّوى عن كُثْبِ يبرين

هل استوحشتْ بالنأي والبُعدِ وما صنعتْ بثينةُ مِنْ بَعدي

لئن هجر الشادِنُ أوطاني
وصغْبُ العزا في النأي أوْطاني
وضاقتْ بهجرِ الحبِّ أعطاني
وضننت بما في الحب أعطاني

فيا عاذلي عن عذلي عَدِّ فما حب ذا الحبِّ قد يُعْدِي

حَمام اللِّوى بالنَّوح أرشاني
بقُمرِيّةٍ ناحت بورَشْانِ
تهيمُ به وهو لها شاني
فقلتُ لها شانكِ من شاني

• النص فى «جيش التوشيح» ص ١٧٥

وسعدُك يا ورقاءُ من سَعْدِي وفي كلّ وادٍ من بني سَعْدِ

بنفسي الذي قد بَزّ أشرَافا
وحازت به الأيامُ إشرافا
أيا ابن سعيد سدتَ ايلافَا
بذلتَ لهم جودَك آلافَا

أجرَيْتَ (١) إذ سميتَ بالحمدِ وفتَ من المهدِ إلى المَجْدِ

حبيبٌ بدا مذ بدا أنسانِي
على أنه أسكنُ إنساني
غزال عن التعنيقِ أغناني
وأنصفَ إذ زادَ وغنّانِي

لأي قصة تبيت وحدك وأبيت وحدي كما بت عندك حتماً(٢) تبيت عندي

• • •

(١) في المطبوع : أجريت
(٢) في المطبوع : حتى

ابن بقي (أبوبكر يحيى، المتوفى سنة ٥٤٥هـ):

١•

ساعِدُونا مصبحينا   رتشِفُها قد ظمِينا(١) كنُضَارٍ في لُجَيْنِ   نِعْمَ أجر العامِلِينا

قُمْ بنا نجلو الكؤوسا   تحتَ أظلالِ السّحابِ
نتعاطاها عروسا   حَلْيُها دُرُّ الحَبابِ
قهوةٌ تُعطي النفوسا   عِزَّ أيامِ الشّبابِ

تَغْصِبُ الليثَ القَرِينا   ويُرَى كِسرَى قَرِينا   حينَ يُسْقَى باليدين   جامَها حِيناً فَحِينا

يومُنا يومٌ أنيقٌ   يومُ شُربٍ والتذاذِ
طُرِّزَتْ فيه البروقُ   لابِساً أثوابَ لاذِ
وسقَى الغيمُ الرقيقُ   ماءَ وردٍ برذاذِ

أظهَرَ السِّحرَ المُبينا   حين رشَّ الياسمينا   وبكى مِنْ دونِ عين   فضحِكْنا فاكِهِينا

أيها الساقي المُحَيَّا   بِرياحينِ التّمَنّي
سِحْرُ عينيك الحُمَيّا   فاصرِفِ الصّهباءَ عنّي
لا تُسَلِّطْها عَلَيّا   فالهوى قد نال منّي

قد نفثَ السّحْرُ فينا   فَرَضِينا الحُبَّ دِينا   فَمُنائي دونَ مَيْنِ   أنْ نَرى ذاك الجَبِينا

لي حبيبٌ يوسُفِيٌّ   وصلُه في الحُبِّ مِنَّهْ
وجهُهُ صبحٌ وضيٌّ   قد تبدّى في الدُّجُنَّهْ
دلّني منه الأبيُّ   فأعادَ النارَ جَنَّهْ

• ترد فى « جيش التوشيح» ص ١٣ ولم نجدها فى غيره من المصادر

(١) فى المطبوع : قد صمىا

بَدِّلَ الوردَ المصُونا   بعدما كان ضنينًا   فكأني ذو رعيْنِ   أوأميرُ المؤمنينا

ساءنا لما اتصلنا   كلُّ مغتابٍ حسودِ
وكذاكَ الوجهُ قلبنا   لا لتدنيسِ البُرودِ
لم نُرِدْ فيما امتثلنا   غيرَ اقلاقِ الحسودِ

قد بلينا وابتلينا   واش يقول الناس فينا   قم بنا يانورعيني   نجعل الشك يقينا

٢•

مالي شمولْ   إلا شُجونْ   مِزاجُها في الكاس   دمعٌ هتونْ
لله ما ابتدرْ   مِنَ الدُّموعِ
صبٌّ قد استعبرْ   مِنَ الوُلوعِ
أودى به جُوذُرْ   يومَ البقيعِ (١)
فهو قتيلْ   لابل طعينْ   بين الرَّجا والكاس   له مَنونْ
جَرَحْتُ للحَيْنِ   كفِّي بكفِّي
وحيلَ ما بيني   وبينَ إلفِي
لا شك بالبينِ   يكونُ حتفِي
حانَ الرَّحيلْ (٢)   ولي ديونْ   إن ردها العباسْ   فهو الأمينْ
أما ترى البدْرا   بدرَ السُّعُودِ
قد اكتسى خُضْرا   مِنَ البُرُودِ
إذا انثنى نَضْرًا   مِنَ (٣)القدودِ

• النص في «دار الطراز» ص ٦٧ وذكر الخرجة ص ٣١ ونسبها لابن بقى وترد الموشحة في نفح الطيب ٣٠٢/٩ مسبوقا بـ وبما يطربني من الموشحات قول بعضهم «وترد الخرجة في توشيع التوشيح» ص ١٧٥ في خاتمة موشحة للصفدي بناها على نسق موشحة ابن بقي

(١) نفح : يوم الطلوع

(٢) نفح : حال

(٣) دار : من

أضـحـى يـقـولْ مُـتْ بـاحـر يـنْ قد اكتسى بالآس الـيـاسـمـيـنْ
قـلـتُ وقـد شَـرَّدْ الـنـومَ عني
وأيـأس الـعُـوَّدْ الـسُّـقـمُ مِـنّـي(٤)
بَعد. فلما صـد فرعـتُ سني
جـسـمي نَحيلْ لا يـسـتـبـيـنْ بطلبةُ الجُلاّس (٥) حـيـثُ الأنـينْ
تجاوز الحـدّا (٦) قـلبي اشـتـيـاقـا
وكـلّف الـشُّـهـدا مَنْ لو(٧) أطاقا
قـلـت وقد مدّا (٨) لـيـلى رُوَاقـا :
لـيـلٌ طـويـلْ ولا مُـعِـيـنْ ياقلبَ بعضِ الناس أمـا تـلـيـنْ ؟

• • •

---

(٤) دار : للسقم
(٥) دار : تطلبه
(٦) نفح : الحد
(٧) نفح : من لا
(٨) نفح : وقد مد

• أبو جعفر بن سعيد (المتوفي سنة ٥٥٠هـ):

ذهّبت شمس الأصيلِ ... فضّة النهرِ

أيّ نهرٍ كالمُدامَهْ
صيّر الظلّ فدامَهْ
نسجتهُ الريحُ لامَهْ
وثنت للغصنِ لامَهْ

فهو كالعضبِ الصّقيلِ ... حُفّ بالشُّمرِ

مضحكاً ثغرَ الكِمَامْ
مُبكياً جفنَ الغَمامْ
مُنطِقاً وُرْقَ الحَمَامْ
داعياً إلى المُدامْ

فلهذا بالقَبُولِ ... خُطَّ كالسَّطرِ

حبّذا بالحورِ مَغنى
هي لفظٌ وهو معنى
مذهِبُ الأشجانِ عنّا
كم درينا حيث سِرْنا

ثم في وقتِ الأصيلِ ... لم نكنْ ندري

• النص في «المغرب» ١٠٣/٢

قلتُ والمزجُ استدارا
بِذُرَى الكأسِ يوارا
سالبٌ منه الوقارا
دائِراً من حيثُ دارا(١)

صادَ أطيارَ العقولِ		شبكُ الخمرِ

وَعدَ الحِبُّ فأخلَف
واشتهى المُطْلَ فسوّفَ
ورسولي قد تعرّفَ
منهُ ما أدرى فحرّفَ :

باللهِ قُلْ يارسولي		لشْ يغب بدري

• • •

(١) المطبوع : دار

• ابن شرف (أبو عبدالله) المتوفي نحو سنة ٥٧٠ هـ:

يـاربّـة العِـقْـدِ   متى تـقـلّـدْ   بـالأنجُم الزُّهرِ   ذاك المقلّدْ

مـن أطـلـعَ الـبـدرا   على جـبـيـنـكْ
وأودع الـسّـحـرا   بين جـفـونـكْ
وروّع الـسُّـمـرا   بـقـرْطِ لـيـنـكْ
يـالـك مِـنْ قـدّ   مـهما تـأوّدْ   أهـدى الي الـزهـرِ   خـدًّا مُـوَرّدْ

قـم فـاقـتـدِحْ زنْـدا   مـن الـعُـقـار
قـد قـلّـدت عِـقـدا   مـن الدرارى(١)
وألـبـسـت بُـرْداً   مـن الـنُّـضـارِ
واشربْ على وُدّ(٢)   عُـليـا محـمـدْ   نـاهـيـك من سِـرّ   وطـيـبِ مورِدْ

الـنـصرُ يـلـتـاحُ   على عُـلاهُ
والـزهـر يـرتـاحُ   إلى نـداهُ
مـا الـصـبـحُ وضّـاحُ   لـولا سَـنـاهُ
فـالـبـسْ مـن المجـدِ   بُـرْداً مـعـضّـدْ   وانـظـمْ مـن الـشـعـر(٣)   دُرّاً مُـنـضّـدْ

لله مـا أعـلـى   في كـلّ حـالِ
مَـلْـكٌ قـد استولَـى   على الـكـمـالِ
مُـقـلّـدٌ نَـصْـلا   مـن الـجـلالِ

• يرد في «جيش التوشيح» ص ١٠٥، و«المغرب» ٢/٢٣٢ (وأهمل محقق الجيش ـ لأمر ما ـ أن يقابل بين النصين)

(١) الجيش : الدرار

(٢) المغرب : على ورد (وذكر المحقق أنها في الأصل : على ود)

(٣) الجيش : من الفخر

• ابن مالك الرقسطي (أبو بكر أحمد) المتوفي سنة ٥٧١ هـ :

مــاذا حــمّــلــوا فــؤادَ الــشَّــجِــي يــومَ ودّعــوا
مــالي بــالــنّــوى يــدٌ تــســتــطــاعْ
ونــارُ الــجَــوى يُــذكِــيــهــا الــوَدَاعْ
وســرُّ الــهَــوى بــدمــوعــي يُــذاعْ(١)
بــالــحُــبِّ تــهــيــلُ(٢) عــيــونٌ وتــلــتــاعُ أضــلــعُ
هــل يُــرجَــى إيــابٌ لــعــهــدِ الحــبــائــبِ
إذ غــصــنُ الــشــبــابِ(٣) مــطــلــولُ الجــوانــبِ
ووصــل الــكِــعــابِ مــبــذولُ المــطــالــبِ
فــلا تــبــخــلُ بــالــوصْــلِ ولا الــصــبُّ يــقــنــعُ
لا أســلُــو ولا أصــغِــي لِلَّــواحِــي
بــل أصــبُــو الى هَــضِــيــم الــوشــاحِ
فــجــيــل الــطّــلا(٤) مــا بين الأقــاحِ
فــلــو يــعــدِلُ مــابــتُّ(٥) أظما ويــنــقــعُ
كــم ذا تــهــجَــعُ وجــفــني ســاهِــرْ
بــدرٌ يــطــلُــعْ(٦) في الــصُّــبــح لــنــاظِــرْ(٧)
لــه بُــرقُــعُ مــن ســودِ الــضّــفــائــرْ(٨)
إذ تُــبــلُ فــشــمــسٌ بــلــيــلِ تَــقَــنّــعُ
قــدٌّ ذوُ اعــتِــدَال مــنــه الــغــصــنُ اللــدنْ

• النص في «المغرب» ٤٤٦/٢ هـ «جيس التوشيح» ص ٢١٨
(١) جيس : بالدمع
(٢) جيش : فكم نهمل
(٣) جيش : اذ غض
(٤) المغرب : يجيل
(٥) المغرب : لمابت
(٦) جيش : طي يطلع (٧) جيش : لنافر (٨) جيش : الظفائر

يهزُّ للحَمْدِ(٤) نَصْلاً مُهَنَّدْ يَهِبُ بالنصرِ في كلِّ مَشْهَدْ

انـعِـمْ مـن الـحُـسْـنَـى بـكـلِّ حُـسْـنِ
في الـشـرفِ الأسنى وظـلِّ أمـنِ
يـا صـادقَ مـن غـنـى وأنـت يـغـنى
ما كـوكـبُ المجدِ الا محمّدْ قرابةُ الامرِ عليه تُعْقَدْ

● ● ●

---

(٤) الجيش : يهز

مــعــشـوقْ الـدّلال بـنـا(٩) ثم يـرنـوْ
بـعـيـنـيْ غَـزال فـاحـذرْ حـيـنَ يـدنـوْ
لحـظٌ يـرسِـلُ سِـهـامـا لهـا الـقـلـبُ موقـعُ
مُـنـى الـنـفـسِ كـمْ تُـزهـى بـالـتّـجـنّـي
فـيـا بـبـدرِتَـمْ صـل بـبـعـض التمني
لـمـن لم يَـنَـمْ وبـات يـغـنّـي :
أسـمـر حـلـو بـيـاض كـل عـاشـق يـبـيـت معُـو(١٠)

• • •

(٩) كذا في النص ، ولعلها ينآى
(١٠) في المغرب : مع

١ ابن زهر (الحفيد) المتوفي سنة ٥٩٥ هـ:

•١

أيُّها السَّاقِي إليكَ المشتكَى قد دعوناكَ وإن لَمْ تسمعِ

ونديمٍ همتُ في غُرَّتِهِ
وبشربِ الرَّاحِ من راحتِهِ
كلما استيقظ من سُكرتِهِ

جذبَ الزِّقَّ اليهِ واتَّكَى وسقاني أربَعاً في أربَعِ

ما لعيني عَشِيَتْ بالنَّظَرِ
أنكرتْ بعدكَ ضوءَ القَمَرِ
وإذا ما شئتَ فاسمعْ خَبَرِي

عَشِيَتْ عيناي من طولِ البُكَا وبكَى بعضي على بعضي معي

غصنُ بانٍ مالَ من حيثُ استوى
باتَ مَنْ يهواه في فرطِ الجَوَى
خفقُ الأحشاء موهونُ القُوى

كلما فكَّر في البينِ بكَى ويحه يبكي لِمَا لَمْ يَقَعِ

ليس لي صبرٌ ولا لي جَلَدُ
يالقومي عذلوا واجتهدوا
أنكروا شكوايَ مما أجِدُ

مثلُ حالي حقُّها أنْ تشتكي كمدَ اليأسِ وذُلَّ الطَّمَعِ

كبدِي حرَّى ودمعي يكِفُ
تعرفُ الذنبَ ولا تعترِفُ
أيها المعرِضُ عما اصِفُ

قد نما حُبيِّ بقلبي وزكا لا تخلْ في الحُبِّ أني مُدَّعِي

• ترد الموشحة في العديد من المصادر من بينها «المغرب» ٢٦٧/١ و«دار الطراز» ص ٧٣ (غير منسوبة) و«معجم الادباء» ٢١٩/١٨ و«المطرب» — غير كاملة — ص ٢٠٠ و«الموافي» ٤٠/٤ و«توشيع التوشيح» ص ١٢٦ (وقابل محقق التوشيح النص على المصادر السابقة ومن ثم لم نر ضرورة لرصد كل الخلافات) كما ترد في : «عيون الأنباء» — ص ٥٢٦ وفي «جيش» ص

٢٠٢•

حَيِّ الوجوه الملاحا   وحيِّ سود(١) العُيونِ
هل في الهوى من جُناح
وفي(٢) نديم وراح
رام النصوحُ(٣) صلاحي

وكيف أرجو صَلاحا   بين الهوى والمُجُونِ
ياغائبا لا يغيبُ
أنتَ البعيدُ القريبُ
كم تشتكيكَ(٤) القلوبُ

أثخنتَهُنّ جراحا   واسألْ سهمَ الجُفُونِ(٥)
أبكى العيونَ البواكي
تذكارَ أختِ السِّماكِ
حتى حَمامُ الأراكِ

بكي بِشَجْوٍ وناحا   على فروعِ الغصونِ
ألقى إليها زِمَامه
صبٌّ يداوى غرامه
ولا يطيقُ الملامه

٢٠٢ وديوان ابن المعتز (ط . القاهرة ١٨٧١)، بعناية عزيز زند والنسبة لابن المعتز غير صحيحة كما بينا وتجيء كذلك في «العذارى المائسات» ص ٥ وفي «عقود اللآل» ـــ مخطوطة الاسكوريال ـــ ورقة ٦ وسنذكر الفروق بين النسخ عند تحقيقنا للكتاب الاخير

• ترد الموشحة في «المعرب» ٢٧٣/١ وفي «توشيع» ص ١٠١ وفي «عيون الانباء ص ٥٢٧

(١) المغرب : نجل . طبقات : كحل (٢) المغرب : اوفى (٣) المغرب : النصيح
(٤) عيون : تشتقيك (٥) المغرب : فاترك . عيون الانباء : سهام العيون

غـدا بـشـوقٍ وراحـا   مـا بين شَـبْـي الـظُّـنـون
يـاراحِـلا لم يـوَدِّعْ
رحـلـت بـالأنـسِ أجـمَـعْ
والـعـجـزُ يُـعطِـي ويَـمْـنَـعْ
مَـرُّوا وأخـفـوا الـرّواحـا   عـنـيّ ومـا ودَّعُـونـي(٦)

• • •

(٦) عيون : سحر وماودعتني

• محيي الدين بن عربي (المتوفي سنة ٦٣٨ هـ):

عندما لاح لعيني المتّكا ذبتُ شوقاً للذي كانَ معي

أيها البيتُ العتيقُ المشرفُ
جاءك العبدُ الضعيفُ المسرفُ
عينُه بالدمع دوماً تذرفُ

فريةٌ منه ومَكْرٌ فالبُكا ليسَ محموداً إذا لم ينفَع

كلّما عددتُ فيه قال لي
ليس هذا فيَّ بل في أيس لي
سأرى حكمَ قليبٍ قد بُلِيَ

بهواها مستغيثاً قد شَكَا وأنا أعلمُ شكوى الجزَع

أشرقتْ شمسٌ له ما شرّقتْ
فرأيناها بها إذ شرّقتْ
أرعدتْ سحبٌ لها ما أبرقتْ

فعلمْنا أنه حينَ بكى ما بكَى إلا لأمرٍ موجِع

مرّ بي في ليلةٍ ليسَ لها
آخرٌ والصُّبح قد جلّلها

• النص في «الديوان الاكبر» ط. حجر (بومباي) ص ٢٠٢ وغني عن الذكر ان الموشحة على نسق قول ابن زهر «ايها الساقي اليك المشتكى»

والـــذي حـــرّمـــهـــا حـــلّـــلـــهـــا

وانتدى يطلبُ وصلي واتكّى		ومــضــى اذ وقــضـا لم يــرجــع

أيهــا الـســاقــي اســقــنــي لا تــأتــلِ
فــلــقــد أتــعــبَ فِــكْــري عُــذّلــي
ولــقــد أنْــشـــدُهُ مــا قــيــل لــي:

أيها السّاقي اليكَ المشتكى		ضاعت الشكوى إذا لم تَنْفَعِ

***

● ابن سهل الإشبيلي (المتوفي نحو سنة ٦٥٠ هـ):

هل درى ظبيُ الحمى أنْ قد حمى | قلبَ صَبٍّ حلَّه عن مكنسِ
فهو في حَرٍّ وخفقٍ مثلما | لعبتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ
يابدوراً أشرقت يومَ النَّوى(١) | غُرَراً تسلكُ،نهجَ الغُرَرِ(٢)
ما لنفس في الهوى ذنب سوى(٣) | منكمُ الحُسْنى ومن عيني النَّظَرْ(٤)
أحسنى اللذاتِ مكلومَ الجَوى | والتداني من حبيبي بالفِكَرْ
كلما أسكوه وجْدي بَسَمَا(٦) | كالرُّبى بالعارِضِ المنبجس(٧)
إذ يقيمُ القطرُ فيه مأتَما | وهي مِنْ بهجتِها في عُرُسِ(٨)
غالتْ لي، غالتْ بالتُّؤدَةْ | بأبي أفديه من جافٍ رقيقْ
ما علِمْنا مثلَ ثغر نضَّدَهْ | أقحواناً عصرتْ منه رَحيقْ(٩)
أخذتْ عيناه منه العِزّ بدّه | وفؤادي سُكْرُه ما إنْ يفيقْ(١٠)
فاحِمُ اللَّمةِ معسولُ اللَّمَى | ساحِرُ الغُنْجِ شَهِيُّ اللَّعَسِ(١١)
وجهه يتلو «الضُّحى» مبتسماً | وهو من إعراضِه في «عَبَسِ»
أيها السائلُ عن جرمي لديه | لي جزاء الذنبِ وهو المذنِبُ
أخذت شمسُ الضُّحى من وجنتيه | مشرقاً للشمسِ فيه مغربُ
ذهب الدمعُ بأشواقي اليه | وله خدّ بلحظي مُذْهَبُ

● النص في ديوانه (ط. احسان عباس) ص ٢٨٣، وفي «نفح الطيب» ٢٧١/٩، وعقود اللآل ــ مخطوطة الاسكوريال ــ ورقة ٦٧، وهناك بعض اختلاف في ترتيب الأقفال والأبيات.

(١) نفح والديوان : اطلعت

(٢) الديوان : تسلك بي. عقود : غرر تسلك

(٣) الديوان : مالنفس وحدها

(٤) عقود : الحسن

(٥) الديوان : التذاذي

(٦) الديوان : واذا اشكو بوحدي. عقود: كلما اشكو بوجد ناسما

(٧) الديوان : والعارض

(٨) عقود : فهي (٩) عقود : أقحوان (١٠) عقود : لايطيق

(١١) عقود : الحمة اكحل الطرف (وينقض بعدها القفل والبيت التاليان)

بـــنـــبـــتُ الـــوردِ بـــسفـــرسٍ كـــلـما لاحـظته مقلتي في الخُلَسِ

لـيـــت شـعـــري أيّ شـــيءٍ حـرمـــا ذلـك الـوردَ عـلـى الـمُـفْـتَـرِسِ

كـــلـما أشـــكـــو إلـــيـــه حُـــرقـتي غـادرتـنـي مـقـلـتـاه دَنِفَا(١٢)

تـــركـــت ألحـــاظُـــه مـــن رمـــقـــي أثرَ النّـملِ على صُمِّ الصَّفا(١٣)

وأنـــا أشـــكـــره فيا بـــقـــي (١٤) لـستُ ألحـاه عـلـى مـا أتـلـفـا

فـــهـــو عـــنـــدي عـــادِلٌ إنْ ظَـــلَما وَعـذُولـي نـطـقُـهُ كـالـخَـرَسِ

لـيس لـي في الأمرِ حكمٌ بعد ما (١٥) حـل مـن نـفـسـي محلّ النَّفَسِ

أضـــرم الـــدمـــعُ بـــأحـــشـــائي ضِـــرَامْ تـتـلـظى كـلّ حـين مـاتـشـا(١٦)

هـــيّ فـــي خـــدّيـــهِ بـــردٌ وسَـــلامْ وهي ضرٌّ وحريقٌ في الحشا(١٧)

أتـــقـــي مـــنـــه عـــلـــى حـــكـــم الـــغـــرامْ أسـدا وَرْدا وأهـواه رَشَـا(١٨)

قـــلـــتُ ـــ لـــمـــا أن تـــبـــدى مُـــعْـــلَـــمَـــا وهـو مـن ألحـاظِـه في حَرَسِ:

أيهـــا الآخِـــذُ قـــلـــبـــي مـــغـــنـــا اجعل الوصْلَ مكانَ الخُمُسِ

• • •

---

(١٢) الديوان : من اذا امل عليه حرقى طارحتنى مقلتاه الدنفا
(١٣) الديوان : تركت اجفانه (١٤) الديوان : وانا اشكره
(١٥) عقود : ليس لي في الحب
(١٦) الديوان: تقدت دمعي نار في ضرام تلتظي...مايشا. عقود: منه للنار.
(١٧) عقود : وهي منار (١٨) عقود : اسد الغاب

● ابن حاتمة الانصاري (المتوفى سنة ٧٧٠ هـ)

قُمْ هاتِها قهوةً كدمعٍ مهجورِ   قد أفرطتْ إفراطاً في اللُّطف والنور
هذي الرُّبى تختالْ   في حُلَلِ الزَّهرِ
قد سحبتْ أذيالْ   بِرودِها الخُضرِ
ورقّت الآصالْ   لِعَبْرةِ القِطْرِ
فافترّ عن حُوّةٍ(١) ثغرُ الأزاهرِ   ونمَّ عن أحلاطٍ مسكٍ وكافورِ
فهاتِها قد بانْ   لعاذِلي عُذري
في نغمةِ العيدانْ   ورنّةِ الزّمرِ
والثم طُلى القُطعانْ(٢)   وأرشُفْ لمى الخَمرِ
رُضابةً حلوةً كذوبٍ بِلُّورِ   تختالُ في أسماطٍ من جوهر النورِ
يُديرُها تيّاهْ   كالصُّبحِ مرآهْ
إن أخطأت كفّاه   سقتكَ عيناهُ
لِلّهِ ما أبهاه   وما أُحيلاهُ
غصنٌ على رَبوةٍ ألحاظُ يعفورِ(٣)   مجوهرُ الأقراطِ طلقُ الأساريرِ
آه ومن يُبلى   حر بأنْ يبدي
لِشدّ ما حلا   بالصّبُّ من وَجدِ
ياعاذلي مهلاً   فالعَذْلُ لا يُجدي
ما أبعد السّلوَ عن قلبٍ مذعورِ   تُيّمَ في قُسطاطِ بدرٍ ذي حُورِ
رفقاً مُنى قلبي   بقلبِ هيْمانِكْ
قد زاد في كَرْبي   فتورُ أجفانِكْ
اللهَ في صَبّ   بنيلِ إحسانِكْ
ياصاحبَ السّطوهوارفقْ بمهجورِ   أضغطني إضغاط(٤) يافتنةَ الحُورِ

● من ديوان ابن خاتمة الأنصاري تحقيق د. محمد رضوان الداية (١٩٧٢م) ص ١٦٢، وعلق المحقق على النص بقوله إن: الموشح تام من ستة اقفال وخمسة اغصان وهو موشح غير شعري والخرجة عامية ولانتفق معه في تعبير «اغصان» ولا في قوله: ان الخرجة بالعامية فهي خرجة فصيحة ونؤثر تسمية «الابيات» بدلا من الأغصان لأنها هي التي عليها ابن سناء الملك.

(١) الحوة: السمرة في الشفة (٢) لعل المراد هنا: صغار الظباء (٣) اليعفور: ولد الظبي (٤) لاشك في أن التعبير سيء ولعل لقافية الطاء اثرا في هذه الركاكة

• لسان الدين بن الخطيب (المتوفي سنة ٧٧٦ هـ) :

١

جَادَكَ الغيثُ إذا الغيثُ همى   يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ
لم يكن وصلُكَ الا حُلما   في الكَرى أو خُلسَةَ المختلسِ
إذ يقودُ الدَّهرُ أشتاتَ المُنى   ينقلُ الخَطْو على ما يرسمْ
زُمَرا بين فرادى، وثُنا   مثل ما يدعو الوفودَ الموسمُ
والحيا قد جلّلَ الروضَ سَنَا   فثغورُ الزَّهرِ منه تبسمُ (١)
وروى النعمانُ عن ماءِ السَّما   كيف يروي مالكٌ عن أنسِ
فكساهُ الحسنُ ثوباً مُعْلَمًا   يزدهي منه بأزهى ملبسِ (٢)
في ليالٍ كتمتْ سرَّ الهوى   بالدُّجى لولا شموسُ الغُرَرِ
مال نجمُ الكأسِ فيها وهَوَى   مستقيمَ السيرِ سعدَ الأثرِ
وطر ما فيه من عيبٍ سوى   أنه مرَّ كلمحِ البَصَرِ
حين لذَّ الأنسُ شيئاً أو كما   هجمَ الصبحُ هجومَ الحَرَسِ
غارت الشهبُ بنا أو ربّما   أثرت فينا عيونُ النَّرجسِ
أيُّ شيءٍ لامرىءٍ قد خلَصا   فيكون الروضُ قد مكّن فيه
تَنْهَبُ الأزهارُ منه الفُرَصا(٣)   أمِنتْ من مكره ماتتقّيه
فإذا الماءُ تُناجي والحصا   وخلا كلُّ خليلٍ بأخيهِ
تبصِرُ الوردَ غيوراً بَرِما   يكتسي من غيظِه ما يكتسي
وترى الآس لبيباً فَهِما   يسرِقُ السمعَ بأذنى فَرَسٍ (٤)
ياأهيلَ الحي من وادي الغَضا   وبِقلبي سكَنٌ أنتمْ بِهِ (٥)
ضاق عن وجدي بكم رحبُ الفضا   لا أبالي شرقَه مِن غربِهِ
فأعيدُوا عهدَ أنسٍ قد مضى   تعتقوا عانيكم مِنْ كربِهِ

• يرد النص كاملا في «النفح الطيب» ٢٢٥/٩ (ويأتي معظمه في «مقدمة» ابن خلدون ٣٩٩/٣)وفي مصادر اخرى منها «عقود اللآل» ـ مخطوطة الاسكوريال ـ

(١) عقود : ومقدمه : فسنا الازهار فيه
(٢) عقود ومقدمة : بأبهى
(٣) عقود ومقدمة : فيه الفرصا
(٤) «مقدمة» : بأذنى فرس
(٥) مقدمة : مسكن

واتقوا الله وأحيوا مُغرَماً   يتلاشى نَفَساً في نَفَسِ
حَبَسَ القلبَ عليكم كَرَما   أفترضون عفاء (٦) الحَبسِ
وبقلبي منكمُ مقتربٌ   بأحاديث المُنى وهو بعيدْ
قمرٌ أطلعَ منه المغربُ   شقوةَ المغرَى به وهو سعيدْ
قد تساوى محسنٌ أو مذنبٌ (٧)   في هواه بينَ وعدٍ ووعيدْ
ساحر المقلةِ معسولُ اللَّمى   جال في النفس مجالَ النَّفَسِ
سدَّدَ السهمَ وسمَّى ورمَى   ففؤادي نهبةُ المفترسِ
إن يكن جارَ وخابَ الأملُ   وفؤاد الصَّب بالشوقِ يذوبْ (٨)
فهو للنفس حبيبٌ أولُ   ليس في الحب لمحبوب ذنوبْ
أمره معتمَلٌ ممتثلٌ   في ضلوعٍ قد براها وقلوبْ
حكم اللحظُ بها فاحتكما   لم يراقبْ في ضعاف الأنفسِ
منصفُ المظلوم مِمَّنْ ظلما   ومُجازي البَرَّ منها والمُسي
ما لقلبي كلَّما هبَّتْ صَبا   عادَهُ عيدٌ من الشوقِ جديدْ
كان في اللوحِ لهُ مكتتَباً   قولُه «إنَّ عَذابي لَشَديدْ»
جلَبَ الهمَّ له والوصَبا   فهو للأشجانِ في جَهْدٍ جَهيدْ
لاعِجٌ في أضلعي قد أضرما(٩)   فهي نارٌ في هشيمِ اليَبَسِ
لم يدعْ في مُهجتي إلا ذَما   كبقاءِ الصبحِ بعد الغَلَسِ
سلِّمي يا نفسُ في حكمِ القضا   واعمري الوقتَ برُجعَى ومتابْ
دعكِ من ذكرى زمانٍ قد مضى (١١)   بين عُتبى قد تقضت وعتابْ
واصرفي القولَ إلى المولَى الرِّضا   ملهمُ التوفيقِ في أمِّ الكتابْ
الكريمُ المنتهَى والمنتمَى   أسدِ السرح وبدر المجلسِ
ينزل النصرُ عليه مثلَ ما   ينزل الوحيُ بروحِ القُدُسِ (١٢)
مصطفى اللهِ سمِيِّ المصطفَى   الغنِيِّ باللهِ عن كل أحدْ

---

(٦) عقود : خراب

(٧) مقدمة : ومذنب

(٨) عقود : وفؤادي

(٩) مقدمة : لاعج من

(١٠) مقدمة :الا الدما ، عقود : الا دما كبقايا

(١١) عقود : من ذكر

(١٢) ينتهي هنا النص في المقدمة

مَنْ إذا ما عَقَدَ العهدَ وَفى ... وإذا ما فَسَخَ الخطبُ عَقَدْ (١٣)
من بني قيسِ بن سعدٍ وكفى ... حيث بيتُ النصرِ مرفوعُ العَمَدْ
حيث بيتُ النصرِ محميُّ الحِمى ... وجَنى الفضلِ زكيُّ المغْتَرَسِ
والهوى ظِلٌّ ظليلٌ خيَّما ... والذي هبَّ الى المُفْترِسِ (١٤)
هاكَها ياسبطَ أنصارِ العُلا ... والذي إن عَثَرَ الدهرُ أقالْ
غادةً ألبسَها الحسنُ مُلا (١٥) ... تبهرُ العَيْنَ جلاءً وصِقالْ
عارضتْ لفظاً ومعنًى وحُلا ... قولَ مَنْ أنطقَه الحبُّ فقالْ:
هل دَرَى ظبيُ الحِمَى أنْ قد حَمَى ... قلبَ صَبٍّ حلَّهُ عَنْ مكنسِ
فهو في حرٍّ وخفقٍ مثل ما ... لعِبَتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ

● ● ●

٢*

ياحاديَ الجمالِ عرِّجْ على سلا (١) ... قد هام بالجَمَالِ قلبي وما سَلا
عرِّجْ على الخليجِ والرملِ في الحمَى
في المنظرِ البهيجِ بالبيضِ كالدُّمى
والأبطحِ النَّسيجِ من صنعةِ السَّما

---

(١٣) عقود : فتح
(١٤) عقود : نهب
(١٥) عقود : حلا

* النص في «نفاضة الجراب في علالة الإغتراب» لابن الخطيب، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، ص ١٦٩. ويضم الكتاب موشحة اخرى لابن الخطيب، مطلعها:

قد قامت الحجة ... فليعذر العاذر ... فالعذل لا يجدي
شيئاً سوى الكرب ... وشقوة الخاطر ... وشدة الوجد

(ص ١٦٧) وصدرهما ابن الخطيب بقوله:
«ونظمت في هذه الأيام (ورجح المحقق في المقدمة، ص ٤ أن الكتاب لم يؤلف في الفترة ما بين سنة ٧٧٣ ـ ٧٧٦ أي الفترة الأخيرة من حياة ابن الخطيب التي قضاها في منفاه الاختياري بالمغرب الأقصى بل أكد =

لِلّهِ مِنْ جلالِ تختالُ في حُلا لَم تلقَ في اعتدالِ عنهنّ معدلا
وظُلفٌ مِنَ الرّباظ بركبِ طائفِ
بنزلِ اغتباظ دارِ الخلائفِ
مقدّس المواظ جسمُ العوارفِ
كم من سِنا هِلالٍ بأفقه انجلى أعمى على الضّلالِ فانجابَ وانجلى
جني النّعيمِ داني والبحرُ والغديرْ
أهلّةُ الشّواني في أفقه تسيرْ
وقهوةُ الدّنان يُديرُها مُديرْ
أغرُّ كالغزالِ مقلّدُ الطّلا يسطو ولا يبالي بالأُسْدِ في الفلا

أولىَ اليكَ أوْلاَ من ذكرِ معهدِ
أكثرت فيه قوْلا في كلّ مشهدِ
خذ في امتداح مولى نَدبٍ مؤيدِ
مُمَجّدِ الجَلالِ مُشتهرِ العُلا قد فاقَ في كمالٍ وراق مُجتلا

موافِقُ الخليلِ في الاسمِ والسّماتِ
ذي المنظرِ الجميلِ الرائقِ الصّفاتِ
مُكرّمِ الدّخيلِ ومُجزِلِ الهباتِ
ومخصِبِ النّوالِ لمن توسّلا ورافعِ المعالي سُحباً مُظلّلا

يامَنْ عُلاه درّتْ بكلّ نائلِ
خُذها إليك جرّتْ ذيلَ الخمائلِ
وفي حُلاكِ أزرتْ بقولِ قائل:
يامنزلَ الغزالِ حيِّيتَ منزِلاً فما أرى ببالِ عنه وإن سَلا

» أن الكتاب ألف خلال المدة التي كان فيها ابن الخطيب برفقة السلطان محمد الخامس الغني بالله عندما خلع وأقام بالعدوة. أي من سنة ٧٦٠ الى سنة ٧٦٣) موشحتين استطردت فيها الى مدح السلطان، تنويعاً في الوسائل، وسبراً للقريحة».

(١) مدينة بالمغرب الأقصى على المحيط، وأقام بها ابن الخطيب فترة في خلال مدة عزل السلطان، الغني بالله.

• ابن زمرك (المتوفي سنه ٧٩٥ هـ):

نسيمُ غرناطةٍ عليلُ   لكنهُ يبرىءُ العليلْ
وروضُها زهر بليلُ   ورَشفهُ ينقَعُ الغليلْ
سقى بنجدٍ رُبا المُصلّى   مباكِراً روضَه الغَمامْ
فجفنه كلما استَهلاّ   تبسّم الزهرُ في الكِمامْ (١)
والروضُ بالحُسْنِ قد تجلّى   وجردَ النَّهرَ عن حُسَامْ
ودوحُها ظلّه ظليلُ   يحسُنُ في ربعهِ المقيلْ
والبرقُ والجوُّ مستطيلُ   يلعب بالصارم الصَّقيلْ
عقيلةٌ تاجها السّبيكَةْ   تُطِلُّ بالمرقبِ المَنيفْ
كأنها فوقه مليكَةْ   كرسيُّها جنةُ العَريفْ
تطبعُ من عسجَدٍ سبيكَةْ   شموسُها كلُّها تُطِيفْ (٢)
أبدعَها الخالقُ الجَليلُ   يامنظرا كلُّه جَميلْ
قلبي إلى حسنِه يَميلُ   وقبلَنا قد صَبا جَميلْ (٣)
وزاد للحسنِ فيك حسنا   محمدُ الحمدِ والسَّمَاحْ
جدَّدَ للفخر فيك مغنَى   في طالِعِ اليُمنِ والنَّجاحْ (٤)
تُدْعَى رشاداً وفيك معنَى   يخصُّك الفالُ بافتتاحْ (٥)
فالنصرُ والسعدُ لا يزولُ   لأنه ثابتٌ أصيلْ

• النص في «نفح الطيب ١٠٤/١٠ يتصدرها:» وقال أيضا من الموشحات الرائقة، في مثل هذه السابقة (اشارة لموشحة: «بالله يا قامة القضيب» في التشوق الى غرباطة ومدح الغنى بالله) وأشار الى محاسن، من وصف الرشاد.

ويرد النص فى «العذارى المائسات» ص٣٤ يتصدرها: «وقال متشوقا الى غرناطة ومادحا السلطان ايده الله بنصره»

(١) في النفح: «فحفنه كلما استهلا» في العذارى يبتسم
(٢) في النفح: كلما تطيف
(٣) في النفح: وقلبنا
(٤) في الفح: فيك منى
(٥) في العذارى تدعى دثارا

سعدٌ وأنصارُهُ قبيلُ ... آباؤهُ عِترةُ الرَّسولْ
أبدى به حكمةَ القديرِ ... وتوَّج الروضَ بالقبابْ
ودرعَ النهرَ بالغديرِ ... وزيّن الزهرَ بالحَبابْ (٦)
فمِنْ هديلٍ ومِنْ هديرِ ... ما أولع الغُصنَ بالشَّبابْ
هبّتْ على روضِها القَبولُ ... وطرفُها بالثَّرى كليلْ (٧)
فلم يزلْ بينَها يجولُ ... حتى تبدَّتْ له حُجُولْ
للزَّهرِ في عِطفِها رقُومُ ... تلوحُ للعين كالنجومْ
وللنَّدى بينها رسومُ ... عِقدُ النَّدى فوقَها نَظِيمْ (٨)
وكلُّ وادٍ بها يهيم ... ولم يزل حولها يَحُومْ
سُنبلُها مُدّ منه نيلُ ... والسَّبنُ الف لمستيلْ (٩)
وعينُ وادٍ له تَسِيلُ ... من فوقِ حدٍّ له أسيلْ (١٠)
كم من ظلالٍ به تَرِفُّ ... تطفو له فوقها شُفُوفْ
ومِنْ زجاجٍ به يشِفُّ ... ما بين نورٍ وبين نُورْ
ومن شُموسٍ به تحفُّ ... تُديرُها بينها البُدورْ (١١)
مزاجُها العذبُ سلسبيلُ ... ياهل إلى رشفِها سبيلْ
وكيف والشيبُ لي عذولُ ... وصِبغةٌ صفرةُ الأصيلْ
ياسرحةً في الحِمى ظليلهْ ... كم نلت في ظلِّك المُنى
روضُكِ اللهُ من خميلهْ ... يُجنى بها أطيبُ الجَنى
وبرقُها صادقُ المَخيلهْ ... ما زال بالغيثِ محسِناً
أنجِزْ لي وعدَك القَبولُ ... فلم أقل مثلَ مَنْ يقولْ:
ياسرحه يامطولُ ... شرحُ الذي بيننا يطولُ

---

(٦) في النفح: ودرع الزهر ... وزين النهر
(٧) في النفح: كب على روضها
(٨) نفح: فوقه
(٩) في النفح: شنبلها
(١٠) نفح: بها تسيل
(١١) في النفح: به تصف

• اللخمي الغرناطي (أحمد بن علي)، من شعراء القرن التاسع الهجري:

حيَّاك بالأفراحِ داعي الصَّباح   قمْ لاصطباحْ

فالنوم في شرع الهوى لا يُباحْ

والصبحُ قد جرَّدَ منه حُسامْ   بادِ القسامْ
تضحَى وجوهُ الزَّهرِ منه وِسَامْ   ذاتِ ابتسامْ
وحامُ جنحِ الليلِ قد عادَ سامْ   مما يُسامْ
وخافِقُ البرقِ بدا بالنياحْ   سامي اللّياحْ

وأدمُع المُزنِ بِه في انسياحْ

والروضُ من ذاك الهتونِ البليلْ   ظِلٌّ ظَليلْ
يغدو نسيم الزهرِ منه عليلْ   يشفي الغَليلْ
وساجِعُ البلبلِ يُبدي ألِيلْ   على الخليلْ
لما رأى تلك الغياضَ الفِساحْ   غنى وصاحْ

وكاد يزري بالطيورِ الفِصاحْ

إني بذكري للتصابي أطيبْ   عن كلِّ طِيبْ
كأنما تذكارُه لي مطيبْ   غَضٌّ رطيبْ
حتى إذا ما قمتُ فيه خطيبْ   بما يَطيبْ
أ[illegible]تُ مدحي للصفاتِ المِلاحْ   عي[illegible] الصَّلاحْ

• ترد في «العذارى المائسات» ص١٨ تسبقها جملة «قال .. على أثر قفوله من الحج عام ٨٤٩»

فلم اصغ فيه إلى قولٍ لاحْ

أما ترى ابن البازي استمالْ قلبي فمالْ
غيثٌ ولكن ليس فيه انهمالْ إلا بمالْ
بدرٌ ولكنْ ليس إلا الكمالْ ثم الجمالْ
به بأفق المعلوات التماحْ إلى الطماحْ

وشأنه البذلُ وفرطُ السماحْ

قد حاز فضلَ (١) السبق بين الوجود حلماً وجود
تهوي اليها كان اليه سجودْ منها يجودْ
وذاته العلياءُ روضٌ مجودٌ عالي السجودْ
شذاه للمأمول (٢) والسؤال راحْ والاقتراحْ

ومورد العافين منه قراحْ
بمثلِ هذا الذُخرِ يُشقى الغرامْ مما يُرامْ

(١) في المطبوع: خصل
(٢) في المطبوع: بالمأمول
وقد جاء في «نفح الطيب» حـ ٩ ص٢٩٣ مطلع موشحة للسان الدين بن الخطيب

قد حرك الجلجل بازي الصباح والفجر لاح
فيا غراب الليل حث الجناح

وذكر أنه «معارض للموشح الشهير الذي اوله:
بنفسج الليل تذكى وفاح بين البطاح
كأنه يسقى بمسك وراح»
ومن المعارضات الاخرى له قول ابن سهل الاشبيلي «باكر الى اللذة والاصطباح »
وموشحة لابن نباته المصري أولها «ماسح محمر دموعي وساح» وتردان في «عقود اللآل» ــ مخطوطة الاسكوريال ــ ورقة ٥، وتجيء لاحيرة في «نفح الطيب».

فإنه فخر القضاة الكرام   بلا انصرام
وجاهه أزرى بكل احترام   صنف المرام
وجوده في الناس حافي الجناح   بالامتداح
فهل على مداحه من جناح

وهاكها مولاي ذات اعتدال   كما يُقال
ترجو ندى يقضي بحل العقال   للاستقبال
وها أنا عارضت فيها مثال   مَن كان قال :
بنفسج الليل تزكّى وفاح .   فوق البطاح
أظنه يُسقى بماء وراح

• • •

• المنصور السعدي (المتوفي سنة ١٠١٢هـ):

عطر الأرجاء لما نسمت   شمألٌ الصهباء عند الغلس
وأتت شمس الضحى تنبغ ما   يفعل الليل لنا من عسس
طاف بالكأس من الترك فتى   مولع بالصد عنى ما فتن
فتن الألباب لما التمحنا   واجتنى منه بعض الشفة
وأتانا بالخميا فتى   صده تيه الهوى عن ألفتي
وكؤوس الراح بين الندما   أرجت بالعرف أفق المجلس
خمرة صفراء في البلور ما   أشبه الراح بروض النرجس
بادر اللذات واجمع شملها   بمدام وغلام مطرب
ذي عيون ساعدت كم لها   من فنون السحر ما يلعب بي
وافر الأرداف عاني حملها   ناحل الخصر وذا من عجب
كلما أفرغ كأساً قال ما   أنت بالشاري حياة الأنفس
فابذل الجهد وكن مغتنما   لمعيش المعتق طيب الأنفس
فرص اللذات كن منتهزاً   بشذاها قبل حذف الخبر
ولليالي الأنس كن منتجزاً   قبل أن تمضي كلمح البصر
واجتني زهر الهوى مختبرا   من جنايات هموم الكبر
لا تكن يوما جبانا حبشا   لاحت اللذات كالمختلس
ما مضى يوم وواهى مثلها   كان فالدهر لنا بالحرس
للرياض اذهب ترى بلبلها   يتغنى بين زهر ينجلي
وخدود الروض قد كللها   دمع طل لاشتياق البلل

• يرد النص في «الدراري السبع: الموشحات الأندلسية» ص١٥، وعلى رأسه: «لابي العباس المنصور سلطان الأندلس»، كما يرد في «الكواكب السبعة السيارة» — مخطوطة الظاهرية — النص السابع، يتصدره «لأبي العباس المنصور مولاي أحمد، سلطان الأندلس».

والموشحة — كما هو واضح — مما نسج على منوال موشحتي ابن سهل وابن الخطيب اللتين مرتا من قبل. وموشحة المنصور السعدي نموذج لموشحات متأخري المغاربة، وقد سقناها — على علاتها — لتوضيح صنيع هؤلاء المتأخرين في حرصهم — وفي عدم حرصهم — على محاكاة صنيع القدامى.

وقُدُودَ البانِ قد قامَ لها ... يانِعُ الغصنِ مقامَ الأَسَلِ
والرُّبى فاحت تحاكي حُرماً ... وعليها مس ثياب السُّندُسِ
جيبُها زرّر بالزهرِ كما ... زر بالفضةِ ثوبُ الأطلسِ
وجلا الروضُ لنا أشجارَهُ ... مائساتٍ في قباءٍ أخضرِ
وترى في جيدِها أنوارَهُ ... تتلالا كعقودِ الجوهرِ
خلعَ الليلُ به أطمارَهُ ... فغدا كالصبح باهي المَنظرِ
وبقاياه زهت فيه كما ... في شفاهِ الغيدِ حسن اللّعَسِ
كعِذارٍ في مُحَيّنا علما ... فبدا للعينِ لا للملْتَمِسِ
حبذا الصبوةُ أيامَ الصِّبا ... وعيونُ الشَّيبِ في سهوِ الوَسَنْ
فاذا أيقظها دهرٌ صبا ... لصروف خَدَّ حدَّيْها وسَنْ
جرد الشيبُ بياضاً أشيباً ... واقتفى شرخَ شباب وطعَنْ
وغدا الإنسانُ شيخاً هَرِما ... واعتراه لاعج من هَجسِ
فاذا ما فات يقضي ندمَا ... واغتنامُ الوقتِ فعلُ الأكيَسِ
لا تدعْ عمرَك يمضي هدَرا ... أنت اذ ذاك جبان غافِلُ
وارقَ بالجهلِ من النُّبلِ ذرَى ... واجتهد فالدهرُ ضِرْغٌ حافِلُ
إنما الايامُ أمثالُ الشّرى ... والجرىءُ الشهمُ ليثٌ باسِلُ
ووحوشُ الأُنسِ تبقى مغنما ... بارِدا للأُسدِ المُفترِسِ
ترك الوهمَ وخاضَ الظُّلَمَا ... وله عزم أضا كالقَبَسِ

أهم المصادر والمراجع

أولا: المخطوطات:

ابن اياس: الدر المكنون في السبع فنون. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.

ابن تغرى بردى: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.

ابن سناء الملك: فصوص الفصول وعقود العقول. مخطوطات دار الكتب بالقاهرة وخزانة الأزهر والمكتبة الوطنية بباريس.

ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار. مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس.

الدرويش: العقيدة الدرويشية في السبع فنون الادبية. مخطوطة المكتبة المركزية جامعة الملك عبدالعزيز ــ مكة المكرمة.

السلفي: معجم السفر نسخة حققها شير محمد زمان (لم تنشر بعد)

الصفدي: الوافي بالوفيات، ٣٠ مجلدا، مصوره عن مخطوطات الزيتونة واستامبول والمتحف البريطاني.

النواجي: عقود اللآل في الموشحات والأزجال. مخطوطة الاسكوريال

مجهول: الكواكب السبع السيارة. مصورة عن مخطوطة الخزانة الظاهرية بدمشق.

ثانيا: مصادر:

الابشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف. جزءان. القاهرة ١٩٥٢.

ابن الأبار: الحلة السيراء. تحقيق د. حسين مؤنس. القاهرة ١٩٦٣.

ابن الأبار: التكملة لصلة الصلة. جزءان. القاهرة ١٩٥٥

ابن الأحمر: (اسماعيل بن يوسف): نثير الجمان: (أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن). تحقيق. محمد رضوان الداية، بيروت ١٩٧٦

ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الاطباء. تحقيق د. نزار رضا، بيروت ١٩٦٥

ابن الخطيب: (لسان الدين): جيش التوشيح. تحقيق هلال ناجي، تونس ١٩٦٧

ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة. تحقيق د. احسان عباس، بيروت ١٩٦٣
ابن الخطيب: الاحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبدالله عنان. القاهرة ٧٣ — ١٩٧٤
ابن الخطيب: نفاضة الجراب في علالة الاغتراب. تحقيق د. أحمد مختار العبادي القاهرة لا تاريخ.
ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة. صدر منه باشراف لجنة من العلماء القسم الأول في مجلدين، ثم المجلد الأول من القسم الرابع القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٥.
القسم المجلد الاول من القسم الثاني تحقيق د. أحمد لطفي عبدالبديع القاهرة ١٩٧٥.
ابن بشكوال: الصلة. جزءان، القاهرة ١٩٦٦
ابن خاتمة: ديوان تحقيق د. محمد رضوان الداية. دمشق ١٩٧٢م
ابن خاقان : قلائد العقيان في محاسن الأعيان. تونس ١٩٦٦
ابن خلدون: المقدمة ط. كاترمير ٣ أجزاء باريس ١٨٥٨
ابن خلكان: وفيات الأعيان ٦ أجزاء، ط. محيي الدين عبدالحميد القاهرة ١٩٤٨
ابن دحية: المطرب من أشعار أهل المغرب. تحقيق الابياري وحامد عبدالمجيد وأحمد بدوي. القاهرة ١٩٥٤
ابن الزقاق: ديوان. تحقيق عفيفة ديراني بيروت ١٩٦٥
ابن زيدون: ديوان تحقيق علي عبدالعظيم. القاهرة ١٩٥٧
ابن سعيد (المغربي) المغرب في حلى المغرب (قسم الأندلس) جزءان تحقيق د. شوقي ضيف. القاهرة ١٩٦٤
ابن سعيد (المغربي) رايات المبرزين وغايات المميزين. تحقيق د. النعمان عبدالمتعال القاضي القاهرة ١٩٧٣
ابن سعيد (المغربي): المقتطف من أزاهر الطرف. قسم منه نشره د. عبدالعزيز الأهواني ضمن «أعمال مهرجان ابن

خلدون» القاهرة ١٩٦٢
ابن سناء الملك: دار الطراز في عمل الموشحات. تحقيق. جودت الركابي، دمشق ١٩٤٩.
ابن سهل (الاشبيلي): ديوان. تحقيق د. احسان عباس بيروت ١٩٦٧
ابن شاكر (الكتبي): فوات الوفيات ط. محيي الدين عبدالحميد، جزءان القاهرة ١٩٥١
ابن عبد ربه: العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين ــ أحمد الزين ــ ابراهيم الابياري ط٣ القاهرة.
ابن عربي: ديوان. طبعة حجر. بومباي.
ابن قتيبة: الشعر والشعراء. تحقيق د. خويه. ليدن ١٩٠٢
ابن المعتز: ديوان. ط. صادر بيروت ٦١، وطبعة دمشق ١٣٧١، والقاهرة ١٨٩١
ابن المعتز: شعر عبدالله بن المعتز صنعة أبي بكر الصولي. تحقيق استامبول ١٩٥٠
الأصفهاني (أبو الفرج): الأغاني ط. دار الكتب.
الأصفهاني (عماد الدين): خريدة القصر وجريدة العصر. تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبدالعظيم (قسم المغرب والأندلس) القاهرة.
امرؤ القيس: ديوان تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم. القاهرة
الباقلاني: اعجاز القرآن. تحقيق أحمد السيد صقر ط ٣ القاهرة ١٩٧٣
التبريزي: الوافي في العروض والقوافي. تحقيق د. فخر الدين قباوة وعمر يحيى. بيروت ١٩٧٥
التطيلي: (الأعمى) ديوان تحقيق د. احسان عباس. بيروت ١٩٦٣
الثعالبي: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ٤ أجزاء. القاهرة ١٩٤٧
الحلي (صفي الدين): العاطل الحالي والمرخص الغالي. تحقيق هونرباخ ويسبادن ١٩٥٥
السلفي: أخبار وتراجم أندلسية، مستخرجة من معجم السفر اختارها د.

احسان عباس بيروت ١٩٦٣
الصفدي: الوافي بالوفيات. الأجزاء المطبوعة (من ١ ـــ ٩)
الصفدي: توشيع التوشيح تحقيق. البير مطلق. بيروت ١٩٦٣
الضبي: بغية الملتمس ط. مجريط ١٨٨٤م
الغبريني: عنوان الدراية. تحقيق عادل نويهض. بيروت ١٩٦٩
القفطي: المحمدون من الشعراء. تحقيق محمد معامري. الرياض ١٩٧٠
المرزباني: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء. القاهرة ١٣٨٥هـ
المعري: رسالة الغفران تحقيق د. بنت الشاطىء ط٥ القاهرة ١٩٦٩
المقري: أزهار الرياض في أخبار عياض، ٣ أجزاء بتحقيق السقا والابياري وشلبي. القاهرة ١٩٣٩ ـــ ١٩٤٢
المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. طبعة محيي الدين (١٠ أجزاء) وطبعة احسان عباس (٨ أجزاء).
ياقوت (الحموي): ارشاد الأريب الى معرفة الأديب (معجم الادباء) نشر دار المأمون بالقاهرة.
مجهول: العذارى المائسات في الأزجال والموشحات. اختيار فيليب قعدان الخازن. جونية ١٩٠٢

ثالثا: مراجع عربية:

الأهواني: (د. عبدالعزيز) الزجل في الأندلس. القاهرة ١٩٥٧
أنيس: (د. ابراهيم) موسيقى الشعر. الطبعة الثانية. القاهرة
البستاني (بطرس): أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث ط١ بيروت ١٩٦٨
الجراري (د. عباس): القصيدة (الزجل في المغرب) الرباط ١٩٧٠
الركابي (د. جودت) في الأدب الأندلسي. القاهرة ١٩٦٠
الريسوني (محمد المنتصر): الشعر النسوي في الأندلس. بيروت ١٩٧٨
الرزقي (الصادق): الأغاني التونسية تونس ١٩٦٧
الزركلي: (خير الدين) الأعلام ط٣
الشكعة: (د. مصطفى) الأدب الأندلسي: موضوعاته وفنونه. بيروت ١٩٧٤

ضيف (د. شوقي): العصر العباسي الأول ط٣. القاهرة الفن ومذاهبه في الشعر العربي ط٤ القاهرة ١٩٦٠

الطنجي (محمد تاويت): ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي. بيروت ١٩٦٠

الطيب (د. محمد عبدالله): المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها جـ ١ القاهرة ١٩٥٥

عباس (د. احسان): تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) بيروت ١٩٦٠

عباس (د. احسان): تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) بيروت ١٩٦٢

عناني (د. محمد زكريا): نشأة فن التوشيح بالمشرق: مستلة من مجلة كلية الشريعة والدراسات الاسلامية (مكة المكرمة) العدد الثاني

غومس (اميليو غرسية): الشعر الأندلسي. ترجمة د. حسين مؤنس، ط٣ القاهرة ١٩٦٩

غومس (اميليو غرسية): مع شعراء الأندلس والمتنبي ترجمة د. الطاهر مكي القاهرة ١٩٧٤

كراتشكوفسكي: الشعر العربي في الأندلس القاهرة ١٩٧١

كرامة (بطرس): الدراري السبع (الموشحات الأندلسية) بيروت ١٨٦٤

كيلاني (كامل): نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي. القاهرة ١٩٢٤

الكريم: (د. مصطفى عوض) فن التوشيح. بيروت ١٩٥٩

هدارة (د. محمد مصطفى): اتجاهات الشعر في القرن الثاني الهجري. القاهرة ١٩٦٩

هيكل (د. احمد): الأدب الأندلسي القاهرة ط٦، ١٩٧١

يافيل: مجموع الأغاني من كلام أهل الأندلس. الجزائر ١٩٠٤

يلس (حلول) والحفناوي امقران: الموشحات والازجال. حرءاں، الجزائر ١٩٧٢

رابعاً: مراجع أجنبية:

Blachère (R.): Le Vizir Poète Ibn Zumruk et son oeuvre. Annales de l'Institut d'Etudes Orientales. II 1936.

Gomez (Emilio Garcia): Estudio del Dar at - Tiraz - Preceptiva Egipcia de la Muwassaha. Al - Andalus. Vol xxvii (1962) pp. 21 - 104

Hartmann (M.) Das Arabische Strophengedicht. Das Muwassah, Weimar, 1897.

Jargy (S.) la poèsie populaire traditionnelle chantée au Proche - Orient, Paris - la Haye, 1970

Levi - Provençal: Islam d'Occident. Paris, 1948.

Menendez Pidal: Poesia arabey poesia evropa- Madrid, 1941.

Nykl (A.R.): Hispano - Arabic Poetry. Baltimore 1946.

Pellat (Ch.). Langues et Literature arabes, Paris 1952.

Pérès (H.). La poesie andalouse en arabe classique au xle siecle. Paris 1953.

La poèsie arabe d'Andalousie et ses rélations Possibles avec la poesie des Troubadours. Le Cahiers du sud, 1974.

Stern (S.N.) Hispano - Arabic strophic Poetry, Oxford 1974.

Les Vers Finaux (Kharjas) en espanol dans les Muwashshah arabes et hebreux, Oxford, 1964.

Les chansons mozarabes, Palerme 1953.

المحتـــويات

- مقدمــة
- أضواء على التاريخ:

(فتح الأندلس - الاسم والموقع - عصور التاريخ الأندلسى: مرحلة الولاة والامارة ثم الخلافة الأموية - عصر ملوك الطوائف - عصر المرابطين - عصر الموحدين - العصر الغرناطى - مابعد الرحيل (مرحلة المدجنين)

- ملاحظات حول الثقافة والمجتمع (السكان : المستعربة - المولدون - اليهود - أهل البلاد المعادون للعرب - العرب والبربر ..)

مكونات الشخصية الأندلسية (القلق وعدم الاستقرار - الاحساس بالنقص بإزاء المشرق - من جوانب الثقافة الأدبية الأندلسية - أوضاع المرأة)

- الشعر الأندلسى من البدايات إلى مرحلة النضج (أوائل الشعراء - شعراء البيت الأموي - يحيى بن الحكم الغزال.
- شعراء عصر الإمارة والفتنة البربرية .ابن عبد ربه - ابن دراج القسطلي -. يوسف بن هارون الرمادى -
- الشعر فى عصر ملوك المرابطين (مثال من ابن زيدون - المعتمد بن عباد)
- من شعراء القرن السادس الهجرى (مدخل عام - الأعمى التطيلي - ابن مجبر -ابن زهر الحفيد)
- فنون الأدب الأندلسى : الموشحات